التاريخ الإسلامي

منذ العهد النبوي ﷺ حتى العصر الحاضر

للدكتور ابراهيم الشريقي
عضو المجامع العلمية الدولية

مع

القول السليم

في مبادئ التاريخ والتقويم

لسماحة العلامة إمام المحدثين في شبه القارة الهندية
الشيخ سليم الله خان الموقر

القول السليم

في مبادئ التاريخ والتقويم

لسماحة العلامة إمام المحدثين في شبه القارة الهندية

الشيخ سليم الله خان الموقر

شيخ الجامعة الفاروقية العالمية بكراتشي، باكستان

ورئيس وفاق المدارس العربية والجامعات الإسلامية بباكستان

بتحشية وإضافات

أبي لبيد ولي خان المظفر

عُضْو رابطة الأدب الإسلامي العالمية

أستاذ الحديث والأدب والتأريخ الإسلامي

بالجامعة الفاروقية العالمية بكراتشي باكستان

المكتبة الفاروقية

٤، شاه فيصل كالوني، كراتشي، باكستان

2008 / 1429

مطبوعات مکتبہ فاروقیہ کراچی 75230 پاکستان
نزد جامعہ فاروقیہ شاہ فیصل کالونی نمبر 4
کراچی 75230، پاکستان
فون: 021-4575763
m_farooqia@hotmail.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين، وعلى آله، وصحبه، ومن والاه إلى يوم الدين، وبعد.

فهذه رسالة نفيسة مختصرة في مبادئ فن التوريخ، نبدؤها بمايلي:

التأريخ لغةً: أَرَخَ الْكِتابَ يَأْرُخُهُ أرْخاً، وآرَخه إيراخاً، وأرَّخهُ تأريخاً، وأَوْرخه، وورَّخه تَورِيخاً وقّته، الإراخ بقر الوحش، التأريخ: تعريف بالوقت وإعلام بالوقت. يقال: أرَختُ الكتابَ أي بيّنتُ وقت كتابته. وقال الأصمعي: بنوتميم يقولون: ورَّخت الكتابَ توريخاً، وقيس تقول: أرَّختُه تأريخاً، وهذا يؤيد كونه عربياً، وتأريخ كل شيء غايته التي ينتهي إليه زمنه ، والتأريخ يطلق على اللفظ الدال بحروفه أو شكله الخاص على تعيين وقت مخصوص. وأما التقويم: فمادته (ق و م)، ومعناه: حساب الأوقات والأشهر والسنوات(Calendar) (١).

اصطلاحاً: ١ـعلم يتضمن ذكر الوقائع ولا سيما ما كان منها متعلقاً بالقبائل والشعوب والشخصيات والأقاليم والدول والقارات وغير ذلك مع تعيين أوقاتها من يوم وشهر وسنة و بيان أسبابها ومسبباتها. أو٢ـ هو فن يُبحث فيه عن وقائع الزمان في العالم

---

١)...... فليراجع للتفصيل: الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التأريخ للسخاوي ص ٦و٧. ومحيط المحيط لبطرس البستاني. ص٦و٧.. والمعرّب للجواليقي ص ٢٢٠. وشفاء الغليل في الدخيل للخفا جي ص ١٠٢.

من حيثية التعيين والتوقيت (١).

موضوعه:الإنسان والزمان وأحوالهما المفصّلة تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان في الزمان(٢).

فوائده: معرفة الأمور على وجهها. وقال ابن الأثير: „ إن فوائد التاريخ كثيرة ومنافعه الدنيوية والأخروية غزيرة، وها نحن نذكر شيئاً مما يظهر لنا فيها، ولكل إلى قريحة الناظر فيه معرفة باقيها، فأما الدنيوية فمنها: أن الإنسان يجد بها معاصرة المتقدمين الغابرين والاستفادة منهم بجلب المنافع ودفع المضرات ومعرفة الآراء الصائبة والتجارب وعواقب الحوادث من حسن وقبح، وزيادة العقل، والتجمل به في المجالس والمحافل. وأما الأخروية ، فمنها أن العاقل إذا تفكر في الدنيا وتقلباتها بأهاليها زهد فيها و أعرض عنها وأقبل على التزود للآخرة ولهذه الحكمة وردت القصص في القرآن الكريم: ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب، أو ألقى السميع وهو شهيد**﴾(٣)

وقال الحموي: „إنما الفائدة في التاريخ الإسلامي مع قربه من الصحة :ذكره لعلماء الأمة المحمدية(ﷺ) وذكر محاسنهم وعلومهم ومواعظهم وحكمهم وسيرهم التي يستدل العامل بها في أموره ويتدبرها ويتفكر فيها فينتفع بما قالوه وعانوه،،(٤)

غا يته:١ـ ابتغاء وجه الله عزوجل، فإنه لايُضيع أجر من أحسن عملاً والأعمال بالنيات. أو ٢ـ الاتعاظ بأحوال الإنسان والزمان وتحصيل الدروس والعبر منها

١)......الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التأريخ للسخاوي ص ٦و٧. ومحيط المحيط لبطرس البستاني. ص٦و٧..

٢)...... الإعلان بالتوبيخ ص ـ٨٣ـ٨٤.

٣)...... مقدمة الكامل لابن أثير ملخصاً، والآية ٣٧ من سورة ق.

٤)...... مقدمةمعجم البلدان مع إضافة. والعاناة: تحمل المشاكل.

لسعادة الدنيا والآخرة، كما قال اللّٰه عزوجل: ﴿ **وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبّت به فؤادك، وجاء ك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين** ﴾ (١)

حكمه: فهو ليس بمطرد (٢) في واحد، بل منه ماهو واجب: كالسيرة النبوية. ومنه ماهو حرام: كا لخرافات والخزعبلات والواهيات كالاشتغال في الإسرائيليات والمستهجنات(٣) عند أرباب العقول من حوادث ملوك الدنيا والفجار والفساق، ومنه ماهو مكروه: كصغائر الأمور التي يكون الإعراض عنها أولى من ذكرها وترك كتابتها أحرى وأعلى. ومن ذلك الاشتغال بما شجر بين الصحابة رضي اللّٰه تعالى عنهم من الاختلافات، كما وقع بين سيدنا على بن ابي طالب رضى اللّٰه تعالى عنه وسيدنا معاوية بن ابي سبفيان رضي اللّٰه تعالى عنه وسيدتنا عائشة رضى اللّٰه تعالى عنها(٤) ومنه ما هو مباح: حيث لا نفع فيه، لا دنيوي ولا أخروي، كتاريخ الأشعار والقصائد، والملوك والوزراء والدول كما صرح به حجة الإسلام الإمام الغزالي في „ إحياء العلوم،، وبالجملة علم التاريخ عدّه العلامة العز الكناني الحنبلي من فروض الكفاية، كما هو يقول: „ لا شك في جلالة علم التأريخ، وعظم موقعه من الدين، وشدة الحاجة الشرعية إليه، لأن الأحكام الاعتقادية والمسائل الفقهية مأخوذة من كلام الهادي من الضلالة والمبصر من العمى والجهالة، والنَقَلة لذلك هم الواسطة بيننا وبينه فوجب البحث عنهم والفحص عن أحوالهم وهذا أمر مُجمع عليه، والعلم المتكفل بذلك هو علم التأريخ ولهذا قيل: إنه من

١)...... الإعلان بالتوبيخ مع إضافة، وسورة يوسف، ١٢٠.

٢)......مطرد: واقع.

٣)......المستقبحات والمستكرهات.

٤)...... وإن يشئت التفصيل فراجع إلى „ العواصم من القواصم،، للشيخ ابن العربي بتعليقات من العلامة محب الدين الخطيب، رحمهما اللّٰه تعالى جميعاً.

فروض الكفاية»(١)

أقسامه:سيرة النبي(ﷺ) وقصص الأنبياء أجمعين- عليهم الصلاة والسلام، وتاريخ الصحابة- رضي الله عنهم - والدول والملوك والوزراء، وكبار الكتّاب، والموقّعين والأدباء والشعراء ، والفقهاء، والقراء، والمحدثين، وأئمة فن الرجال، والمفسرين والمؤرخين، والنحاة واللغويين والبلغاء والخطباء والعروضيين، و أهل الحساب، والعُبّاد والزهاد، والأولياء، والصوفية والنُساك والقضاة، والولاة والأمناء والمعلمين والوراقين، والقُصّاص والظرفاء والموسيقيين والندماء والمُطربين، والأشراف والأجواد، والعقلاء والأذكياء والحكماء والمجانين والبخلاء والحَمْقى والأطباء والفلاسفة والزنادقة والمهندسين، ونحو ذلك كالمتكلمين والجهمية والمعتزلة والأشعرية والكرامية والمجسمة، والشيعة والخوارج وأهل السنة والجماعة والطفيليين والثقلاء والأكَلةَ، والأضِرّاء والزمْنَى، والصُمّ والخرس والكيمياويين والنسابين، والشجعان والفرسان والشُطّار والتجار، وعجائب الأسفار والبحار وأهل الصنائع وفنون الأعمال والألعاب، وأهل التدبير والسياسة(٢)والكُهّان والمنجّمين. ويدخل فيه في هذا الزمن تأريخ العالم

---

١)...... الإعلان- فصل أقوال العلماء في التاريخ.

٢)......من المعلوم أن التأريخ إذا أُطلق، يُرادبه التأريخ سياسياً، ولأجل ذلك نريد من التأريخ الإسلامي المقرر في منظمة الوفاق تاريخ السلاطين والملوك والرؤساء والأمراء، وأنواع الرياسات والسياسات والاجتماعات المدنية وأحوالها. فلهذه المناسبة نتقدم هنا بتعريف السياسة. فهي لغةً: سَاسَ فلانٌ الدوابَّ يسوسُها سياسةً، قام عليها وراضها وأدّ بها، والسلطان والواليُّ الرعيَّةَ تولّى أمرها، ودبَّرها وأحسن النظر إليها، ومنه قوله عليه السلام: „ كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياءُ ،،(صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب ماذُكر عن بني إسرائيل: رقم الحديث:٣٤٥٥) وكما قال أحمد شوقي في ذمّ (اللورد كرومر) الحاكم الإنكليزي الإفرنجي لمصر في عهد الخديو إسماعيل باشا:

أيامكم، أم عهد إسماعيلا؟ ... أم أنت فرعونٌ يسوس النيلا؟

الإسلامي والأقليات المسلمة، والمنظمات، والأحزاب والجماعات، والحركات والمساجد والمدارس والجامعات ، والمدن والجرائد والمجلات وتاريخ الاستشراق والمستشرقين وغير ذلك(١).

مكانته ومرتبته عند أهل العلم والفضل:ولأهمية هذا العلم (علم الرجال الذي هو قسم من التأريخ) وعظيم موقعه في كشف الصحيح من الجريح، قال الإمام على بن المدينى كلمته النفيسة الغالية: „ الفقه في معاني الحديث نصف العلم، ومعرفة الرجال نصف العلم،، (٢).

وقال العلامة سليمان الندوي: „ لا مندوحة(٣) لعلم من العلوم وشأن من شئون الدنيا عن النقل والرواية (التاريخ) لأنه لا يمكن لكل إنسان أن يكون حاضراً في كل الحوادث، فإذاً لا يتصور علم الوقائع للغائبين عنها إلا بطريق الرواية شفاهاً أو تحريراً (٤) .

هل من نداك على المدارس أنها ... تذَر العلومَ وتأخذ الفتبولا؟
أوشاطِرِ الملك العظيم بلاده ... وسُسِ الممالك، عرضها والطولا

(الشوقيات ١/١٧٣-١٧٦).

واصطلاحاً: „ علم يعرف منه أنواع الرياسات والسياسات والاجتماعات المدنية وأحوالها: من أحوال السلاطين والملوك والأمراء وأهل الاحتساب والقضاة والعلماء، وزعماء الأموال ووكلاء بيت المال ومن يجري مجراهم.

وموضوعه: المراتب المدنية وأحكامها. ومنفعته: معرفة الاجتماعات المدنية الفاضلة، والمراد به: وجه استبقاء كل واحد منها، ودفع علل زوالها وجهات انتقالها. (خزانة العلوم ص ١١٩ ، ومفتاح السعادة لطاشكبرى زاده ١/٤٠٧، وإرشاد القاصد للأكفاني ص ٣٢١).

١)...... الإعلان- فصل في أقسامه مع زيادة.

٢)...... مقدمة تذهيب التهذيب، نقلاً من لمحات من تاريخ السنة والحديث للشيخ أبي غدة ص ١٩١ .

٣)...... المندوحة: سَعة.

٤)...... نفس المصدر.

وقال المسعودي في مقدمة تاريخه، : „ إنه علم يستمتع به العالم والجاهل ويستعذب موقعه الأحمق والعاقل فكل غريبة منه تُعرف، وكل أعجوبة منه تُستظرف، ومكارم الأخلاق ومعاليها منه تُقتبس، وآداب سياسة الملوك وغير ها منه تُلتمس ، يجمع لك الأول والآخر والناقص والوافر والبادي والحاضر والموجود والغابر، وعليه مدار كثير من الأحكام وبه يُتزين في كل محفل ومقام......،،(١)

وقال أبو الفرج الأصبها ني في مقدمة الأغاني: „ إن القارئ إذا تأمل مافيه من الفِقَر ونحوها لم يزل منتقلاً من فائدة إلى فائدة، ومتصرفاً منها بين جد وهزل، وآثار وأخبار، وسير وأشعار، متصلة بأيام العرب المشهورة (أي تاريخهم) وأخبارها المأثورة، وقصص الملوك في الجاهلية، والخلفاء في الإسلام، يجمل بالمتأدبين معرفتها، وتحتاج الأحداث إلى دراستها (كما نحن اليوم بأمس حاجة إلى تاريخنا الماضي لنستفيد به في أوضاعنا الموجودة للعالم الإسلامي من كيد الأعداء من داخله وخارجه)،،(٢)

وقال سفيان الثوري: „ لما استعمل الرواة الكذب استعملنالهم التأريخ،، وقال النووي في مقدمة طبقات الفقهاء من كتاب ابن الصلاح: „ إن معرفة الإنسان بأحوال العلماء رفعة وزين، وإن جهل طلبة العلم وأهله بهم كوصمة وشين،،.(٣)

وقال الخزرجي في مقدمة تاريخ اليمن: „ حداني على جمعه مارأيت من إهمال الناس لفن التأريخ مع شدة احتياجهم إليه، وتعويلهم في كثير من الأمور عليه، ولما يندرج في ضمنه من المواعظ والآداب وتفصيل شوابك الأرحام ، والأنساب، حتى قال: ولو لا معرفة التاريخ ما اتصل أحد من الخلف بشيء من أخبار السلف، ولاعُرف

١-٢-٣)..... الإعلان. ....الوصمة: العار. الشين: العيب.

فاضل من مفضول ولا امتاز معروف من مجهول»، (١).وما أحسن ما قيل فيه:

إذا علم الإنسان أخبار من مضى توهمته قدعاش من أول الدهر
وتحسبه قدعاش آخر عمره إذا كان قد أبقى الجميل من الذكر
فقد عاش كل الدهر من كان عالماً حليماً كريماء فاغتنم أطول العمر(٢)

قوا عد ه: قال العلامة السخاوي: „ وقال أبو معشر: „ التواريخ أكثر هامدخول، والفساد يعتريها من أجل أنه يأتي على سني أمة من الأمم وزمان من الأزمنة وتطول أيامه، فإذا نقلوه من كتاب إلى كتاب أو من لسان إلى لسان يقع فيه الغلط، إما بالزيادة فيه، أو النقصان منه كالغلط الذي وقع بين آدم ونوح والأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى السنين ، فإن اليهود اختلفو في ذلك اختلافاً متفاوتاً...... ثم إن الدليل على صحة ماذكره أبو معشر قوله عليه الصلاة والسلام: „لا تجاوزوا عدنان، كذب النسابون،،(٣) وقال ابن خلدون: إعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب جم الفوائد شريف الغاية إذهو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياستهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا فهو محتاج إلى مآخذ متعددة ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يُفضيان بصاحبهما إلى الحق، ويُنكّبان به عن المزلات والمغالط، لأن الأخبار إذا اعتُمد فيها على مجرد النقل ولم تُحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران و الأحوالُ في الاجتماع الإنساني، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمَن

١ ـ٢)...... الإعلان.

٣)...... نفس المصدر. والسيرة النبوية والآثار المحمدية لزيني دحلان على هامش السيرة الحلبية ١/١١ـ١٢.

فيها من العثور ومزلة القدم والحَيد عن جادة الصدق، وكثيراً ما وقع للمؤرخين، والمفسرين وأيمة النقل من المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثّاً أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة، والوقوفِ على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلّوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط ولا سيما في إحصاء الأعداد من الأموال والعساكر إذا عرضت في الحكايات، إذهي مظنة الكذب ومطية الهذر ولا بدمن ردها إلى الأصول وعرضها على القواعد......(١)

وقال علي الطنطاوي: إن رواية المؤرخين رواية عامية، والرواية العلمية هي رواية المحدثين، لذلك كان المرجع الأول لتاريخنا ما رواه المحدثون، وكان الجاهل بمصطلحهم وعلمهم، لا يعد مورخاً، وكتب التاريخ هذه، هي المواد الأولية للتاريخ، وليست هي التاريخ، لأن تاريخنا لم يُكتب، ولا بد من تنقيتها أولا، ثم ترتيبها، ثم إدخالها المصنع لتصير حينئذ تاريخاً، وإنها على ماهي عليه مخلوط فيها السم بالدسم، والقطن بالبرسيم...... ومن هنا يتبين أن الباحث الذي يذيل بحثه بذكر صفحات الطبري (الطبري. صفحة كذا)، مقر على نفسه بأنه حاطب ليل لا يدري ما يأخذ ومايدع، وأنه هو الذي يسميه علماؤنا (المقمش) الذي يجمع من ههنا وههنا...... وليس يمكن أن يكون مؤرخاً إسلامياً، أو استاذاً للتاريخ الإسلامي، إلا من كان عالماً بالرجال أو كان ممن يحقق عن أحوالهم. عارفاً بالحديث، ومظان وجوده، ومصطلح أهله. عارفاً بالعربية، ليفهم ظواهر الكلام وبواطنه، وإشاراته ومعاريضه وكان متجرداً عن العصبية

---

١)......مقدمة تاريخ ابن خلدون ١/٩ـ١٠

والهوى، مريداً ببحثه الحق ورضاء الله.

فإن لم يكن كذلك لم يكن إلا جاهلا بالتاريخ أو دجالا، ولوكان استاذ الجامعة ولو كان صاحب الشهادات الكبار، لأن الدولة تستطيع أن تجعل انرجل استاذاً بمرسوم، وتقدر أن تجعله دكتوراً بشهادة، قد تكون شهادة زور، ولكن الدولة لا تستطيع أن تجعل الجاهل عالماً، ولا العصبي نزيهاً، ولا الكاذب صادقاً.(١)

واغلم أن أهل التاريخ ربما وضعوا من أناس ، ورفعوا أناساً، إمالتعصب، أولجهل، أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به، أو لغير ذلك من الأسباب لأنهم كسائر المصنفين، في كلامهم الخمير. والعفين، والجهل في المؤرخين أكثر منه في أهل الجرح والتعديل وكذلك التعصب قلّما تجد تاريخاً خاليا عن ذلك. فينبغى أن لا يُقبل مدح ولا ذم من أهل التاريخ إلابشروط، أهمّها:

(ألف):...... ١ـ الصدق. ٢ـ نقل الألفاظ دون المعاني. ٣ـ الكتابة في مجلس السماع. ٤ـ التصريح باسم الراوي المنقول عنه. ٥ـ الوقوف والتحري عند كل كلام يتضمن غمزاً أو جرحاً أو خطأً أو طنزاً على أحد المعتبَرين من السلف لدى الأمة، لأن كل رجل ثبتت عدالته، لم يُقبل فيه تجريح أحد، ولذلك قيل: كل جرح لايتقدم على التعديل. هذا ما كان يرتبط بالنقل والرواية.

(ب):...... وأما تراجم الأعلام مع تطويل وتقصير من عند المؤرخ فيُشترط فيها: ١ـ المعرفة بحال المترجَم له علماً وديناً وفكراً وغيرها من الصفات. ٢ـ الاعتدال فى استخدام الكلمات والألقاب والمدح والذم. ٣ـ العلم بمدلولات الألفاظ في حقهم.

---

١)......مقدمة قصص من التاريخ ص١٣،١٤......... المظان: ج مظنة: مكان الشيء الذي يمكن فيه وجوده.

٤ـ العدالة أي كونه غير مغلوب الهوى في مدح من يحبه وذم من يُغضه. ٥ـ قوة الذاكرة في المؤرخ.

(ج):...... والذي يكتب تاريخاً على الحوادث فيُشترط فيه: ١ـ التثبت.٢ـ المعرفة بمدلولات الألفاظ. ٣ـ الاعتدال في التعبير. ٤ـ الجودة في العبارة (١).

(د):...... وأما إذا تعارض شيء من التأريخ بوجه من الوجوه بالقرآن أو السنة، فيؤخذ بهما ويردّ التأريخ كيفما كان، لأن التحقيقات والتدقيقات والبحوث والتفحصات التي جرت فيهما لم تجر في التأريخ. وكثير من الناس يقعون في الغلط لعدم معرفتهم بهذه النكتة.

أشهر كتبه: ١ـ كتاب المعارف لابن قتيبة الدينوري. ٢ـ تاريخ اليعقوبي لأحمد بن أبي يعقوب اليعقوبى. ٣ـ تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك) لابن جرير الطبري. ٤ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر لأبي الحسن المسعودى. ٥ـ المنتظَم في تاريخ الأمم لابن الجوزي. ٦ـ تاريخ الإسلام للذهبي. ٧ـ البداية والنهاية لابن كثير. ٨ـ تاريخ العِبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر لا بن خلدون وهناك كتب في أصناف التاريخ الأخرى منها: ٩ كتاب المغازي للواقدي. ١٠ السيرة النبوية لابن هشام . ١١ـ السيرة النبوية لابن كثير . ١٢ـ عيون الأثر لابن سيد الناس. ١٣ـ سبل الهدى والرشاد للصالحي. ١٤ـ الإصابة لابن حجر، ١٥ـ أسد الغابة لابن أثير، ١٦ـ فتوح الشام للواقدي. ١٧ـ فتوح البلدان للبلاذري. ١٨ـ الفكر الإسلامي

---

١)...... قاعدة في الجرح والتعديل وقاعدة في المؤرخين للإمام التاج السبكي مع تلخيص واختصار وإضافات بتحشية الشيخ عبدالفتاح أبي غدة.

الحديث وصلته بالاستعمار الغربي للدكتور/بهي. ١٩ـ حاضر العالم الإسلامي، للدكتور جريشة، ولأمير البيان شكيب أرسلان. ٢٠ـ أجنحة المكر الثلاثة لحبنكة الميداني. ٢١. سكّان العالم الإسلامي للأستاذ محمود شاكر. ٢٢. المسلمون في العالم اليوم لعبدالرحمن زكي. ٢٣ـ معجم البلدان للحموي. ٢٤ـ تاريخ بغداد للخطيب. ٢٥ـ الأعلام للزركلي. ٢٦ـ نزهة الخواطر لعبدالحي اللكنوي،٢٧ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟، و رجال الفكر والدعوة في الإسلام لأبي الحسن الندوي. ٢٨ـسير أعلام النبلاء للذهبي.٢٩ـتهذيب الكمال للمزي، وهناك شيء كثير تركناه للإيجازهنا.

أول من أرخ قبل الإسلام:قال ابن الجوزي من طريق عامر الشعبي: قال: لما كثر بنو آدم عليه السلام في الأرض وانتشروا، أرّخوا من هبوط آدم ـعليه السلامـ فكان التأريخ إلى الطوفان، ثم إلى نار الخليل ـعليه السلامـ ثم إلى زمن يوسف عليه السلام، ثم إلى خروج موسى ـعليه السلامـ من مصر ببني إسرائيل، ثم إلى زمن داؤد ـعليه السلامـ ثم إلى زمن سليمان عليه السلام ثم إلى زمن عيسىـ عليه السلامـ وقد رواه محمد بن اسحاق عن ابن عباسـ رضي الله عنهماـ وفيه أقوال أخر كتأريخ العرب بأيامهم المشهورة كحرب البسوس، وداحس، والغبراء وبيوم ذى قار ونحوه. (١)وعن محمد بن صالح وعن الشعبي أنهما قالا: «أرخ بنو إسماعيل من نار إبراهيم، ثم أرخوا من بنيان إبراهيم وإسماعيل البيت، ثم أرخوا من موت كعب بن لوئي، ثم أرخوا من الفيل، ثم من هجرة الرسول(ﷺ) وجعلوا أولها من محرم»(٢)

١)......الإعلان بالتوبيخ مختصراً ص ٨٢ـ٨٣.

٢)......البداية والنهاية ٢٠٧/٣.

أول من أرّخ في الإسلام، أعني التقويم الهجري:* (ونود أن نتناوله بشيء من التفصيل):

إن لكل ملة وديانة طقوس(١) ومناسبات وشعائر، كتقديس بعض الأمكنة، والقيام ببعض الأعمال الخاصة بالعبادة، وتخصيص أيام للفرحة والسرور كالأعياد، هكذا لكل ملة من ملل العالم نظام للتأريخ والتقويم، كاليهود والهنود والنصارى والروميين والإيرانيين و......و.......

والأمة الإسلامية هي أتم الأمم نظاماً ومنهجاً، وأكملها ثقافة وأدباً وتأريخاً، وكيف لا؟ وهي تتمة الملل، وخلاصة الديانات السابقة السالفة، ومن هذا المنطلق فالتقويم الهجري من شعائرها، حيث يجب على شعوبها وحكوماتها وأفرادها وجماعاتها الاهتمام بهذا التقويم، استكمالاً واستيفاءً لسائر قِيَمها وأعلام حضارتها.

فهناك كانت وقائع وأحداث حين بزوغ فجر الإسلام يمكن أن يُبدأ بها التقويم الإسلامي، كمولد الحبيب المصطفى(ﷺ) وشق صدره المبارك، وبدأ الوحي، وغزوة بدر وغيرها من الأيام المشهورة والحوادث المهمة، لكن الهجرة هي حادثة ليست كغيرها، لأنها حقاً أعظم مظهر من مظاهر هذه الأمة، فهي جاء ت بالأمة إلى أوج الرفعة والكمال.

فالمسلمون كانوا مستضعفين في مكة المكرمة، ماكانوا متمتعين بالحرية الدينية، ولا بالحرية السياسية، ولا بالحرية الاقتصادية، بل كانت جميع الوسائل بيد

---

* قد صدر هذا المقال من هنا إلى الأخيرعلى صفحات **مجلة الفاروق العربية** الصادرة من الجامعة الفاروقية العدد ـ٧٥ـ السنة ـ١٩ لشهر محرم وصفر وربيع الأول ١٤٢٤هـ

١)......احتفالات وشعائردينية.

أعداء الإسلام والمسلمين، ومن المؤسف كان الأعداء أيضاً ألدّاء متعصبين أهل الظلم والعدوان.

وأما الدور المدني فكان أزهر أدوار الإسلام، ديانةً وسياسةً واقتصاداً، فالأمة هنا تبدلت من **أقلية** مقهورة إلى دويلة صغيرة ذات الأغلبية الإسلامية، فأخذت أزمة الأمور بأسرها بأيديها، ومن أجل ذلك كانت تتغلب على أعدائها مرحلة إثر مرحلة في جميع المجالات، وانطلاقاً من هنانستطيع أن نقول: **الأمة وُلدت هنا من جديد أقوى وأغلب**؛ ولذلك تُعدّ الهجرة أكبر منعطفات(١) الأمة الإسلامية، ومن ثم هي لَجديرة أن تكون بداية تقويم خير أمةٍ من هذه الوقْعة.

وكما يقال: أنه اختُلف في أول من أرّخ بها، فقيل: أن النبى(ﷺ) هوالذي أمر بذلك عند نزوله بقباء، رواه الحاكم في الإكليل عن الزهري: „لما قدم النبى(ﷺ) المدينة أمر بالتأريخ فكُتب في ربيع الأول،،(٢).

ويذكر هذه الرواية الشيخ حسين الدياربكري هكذا : „أمر النبي(ﷺ) بالتأريخ فكتب من حين الهجرة في ربيع الأول،،(٣).

وذكرها يعقوب بن سفيان بهذه الألفاظ: „ التأريخ من يوم قدم النبي(ﷺ) المدينة مهاجراً،،(٤).

وفي (تدريب الراوي) شرح تقريب النووي للسيوطي، عن أبي طاهر الزيادي

١)......التواء ات.

٢)...... فتح الباري للعسقلاني: ٣٤١/٧.

٣)...... تاريخ الخميس ٣٨٠/١ و ٣٨١.

٤)...... سبل الهدى والرشاد: ٣٦/١٢.

أنه ذكر: „ أن رسول الله (ﷺ) أرّخ بالهجرة حين كتب الكتاب لنصارى نجران، وأمر علياً- رضي الله عنه- أن يكتب فيه (أنه كتب لخمس من الهجرة)......،، (١).

وقيل: إن الذي جعل الهجرة نقطة ثابتة لمبدأ التقويم الهجري رسمياً وحكومياً، هو أمير المؤمنين عمر الفاروق- رضي الله عنه- وهو المشهور، لأن الروايات الكثيرة تؤكد ذلك . وعن الشعبي أن أبا موسى الاشعري كتب إلى عمر: أنه „ تأتينا منك كتب ليس لها تأريخ،، فجمع عمر الناس، فقال بعضهم: أرّخ بالمبعث، وبعضهم: بالهجرة، فقال عمر: الهجرة فرّقت بين الحق والباطل، فأرّخوابها وبالمحرم، لأنه منصرف الناس من جمعهم، فاتفقوا عليه، وذلك سنة سبع عشر، فكان أعظم التواريخ،،(٢).

ويروي ابن أبي خيثمة عن ابن سيرين أن رجلاً جاء من اليمن فقال: إني رأيت أمراً جديداً يقال له: التأريخ. يكتبون فيه: „ من عام كذا وبشهر كذا،، فأحبه عمر الفاروق وابتدأ بالتقويم الهجري، ذكرها أبوداؤد الطيالسي وكذا السخاوي في كتابيهما أيضاً (٣).

وعن ميمون بن مهران أنه: رُفع لعمر صك، ،محله شعبان، فقال: أي شعبان، الماضي، أوالذي نحن فيه، أوالآتي؟؟ ضعوا للناس شيئاً، يعرفونه من التأريخ،...... فقيل: اكتبوا على تأريخ الروم، ثم قيل: إنه يطول لأنهم يكتبون من عهد ذي القرنين، فقيل:

---

١)..... تدريب الراوي:ص٢٥٦ .وسبل الهدى والرشاد: ٣٦/١٢ والطبري:٣٨٨/٢.

٢)..... الوثائق السياسية للدكتور حميدالله: ٥٢١ بيروت.

٣)..... البداية والنهاية: ٢١٧/٣ والإعلان: ١٧١، و سبل الهدى والرشاد: ٣٨.

يعرف ذلك من الفرس، فا ستحضرعمر الهرمزان وتناقش معه هذا الموضوع فأخبر هرمزان سيدنا عمر عن تجربة الإيرانيين في هذا المجال،...... فأراد عمرُ والناس: أن يجعلوا المبدأ من البعثة المحمدية...... ثم عدلوا عن ذلك...... وقالوا: من الوفاة،........... وقال علي- رضي الله عنه- منذ خرج النبي(ﷺ) من أرض الشرك (يعنى يوم هاجر) ، فاتفقوا على أن يكون المبدأ سنة الهجرة.......»(١).

وقال السهيلي: إن الصحابة بدأوا بالتاريخ من الهجرة في منظور هذه الآية الكريمة: ﴿لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه﴾(٢).

أن المراد عنده من « أول يوم»، اليوم الذي اعتز فيه الإسلام وهو يوم الهجرة......(٣).

والروايات في الباب كثيرة بطرق متعددة مختلفة.

ثم اختلف الناس في الشهر الذي ستبتدأ به السنة الهجرية، فقيل: رمضان . وقيل: رجب وقيل: المحرم. فقال سيدنا عثمان- رضي الله تعالى عنه-: أرّخوا من المحرم، فإنه شهر حرام، وهو أول السنة، ومنصرف الناس من الحج»(٤). ويروي الحافظ ابن كثير أنه -رضي اللّٰه عنه- قال « إن المحرم شهر الله، وهو رأس السنة، يُكسى فيه البيت، ويؤرخ به الناس»(٥).

---

١)......سبل الهدى والرشاد: ٣٨، والإعلان: ١٧١، وفتح الباري للعسقلاني:١/٣-٢-٢٤١.

٢)......سورة التوبة:١٠٨.

٣)......الروض الأنف للسهيلي ، دارالمعرفة، بيروت: ٢/٢٤٦.

٤)...... فتح الباري للعسقلاني:٧/٣٤٢.

٥)...... البداية والنهاية ج:٢ ص:٢١٧.

وعن عبدالله بن عباس- رضي الله عنهما- في تفسير سورة الفجر: „هو فجر المحرم، فجر السنة،،(١).

وعن قتادة „هو أول فجر المحرم، تنفجر منه السنة،،(٢).

على كل حال، فإن العرب كانوا يبدأون بسنتهم من المحرم قبل الإسلام أيضاً، فراعى الصحابة الكرام ذلك بإشارة كبارهم- رضي الله تعالى عنهم أجمعين-.

وقال الله جل شانه: ﴿**فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به، فقد اهتدوا......**﴾(٣). وقال عز من قائل: ﴿**وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ (٤). وقال جل شانه: ﴿ **يأيها الذين آمنوا، عليكم أنفسكم، لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾(٥). وقال رسول الله (ﷺ) : „عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضّوا عليها بالنواجذ،،(٦).

وقال(ﷺ): „ من أحيا سنتي عند فساد أمتي فله أجر مأة شهيد،،.(٧).

فالتقويم الهجري سواء سنه رسول الله(ﷺ) أو سنّه خليفته عمر الفاروق

---

١)...... روح المعاني للآلوسي: ١١٩/٣٠.

٢)...... تفسير المظهري للباني بتي: ٢٥٣/١٠.

٣)......البقرة:١٣٧.

٤)......الحشر:٧.

٥)...... المائدة: ١٠٥.

٦)......أخرجه الترمذي، كتاب العلم، رقم الحديث:٢٦٧٦.

٧) .... أخرجه ابوعبدالله محمد بن عبدالله في مشكاة المصابيح، باب الاعتصام بالكتاب والسنة رقم الحديث:٣٥.

ـمي الله عنه- فهي سنة من سنن الإسلام، وشعيرة من شعائره، يجب على الأمة أخذها بالنواجذ، كما أن القرآن والسنة يُشيران إليها، والاستمساك بالتقاويم الغير الإسلامية كالمسيحي الشمسي أو البوذي الهندوسي الموسمي من التشبهات بالكفار التي نهى عنها الحبيب المصطفى(ﷺ) بقوله: „ من تشبه بقوم فهو منهم،،(١).

و بناءً على هذا يجب على المسلمين، انفرادياً واجتماعياً، إدارياً وحكومياً، شخصياً وحزبياً، أن يؤرّخوا لأمورهم وشئونهم بالتقويم الهجري المسنون ، يومياً وشهرياً وسنوياً مع تذكرة الأيام والشهور والسنوات بالأسماء والأعداد الإسلامية العربية الخالصة. ليكون ذلك سبيلاً لرجوع الأمة إلى مرآة تاريخها المشرق وسجنجل(٢) ماضيها المتلألئ لترى فيهما شخصيات إسلامية خالدة في بطون الأوراق، وحكومات إسلامية عادلة، ومعارك بطولية يقل نظيرها في تاريخ الأمم، ولله درالقائل:

وأيامنا مشهورة في عدوّنا لها غُرر معلومة وحُجول
وأسيا فنافي كل غرب ومشرق بها من قراع الدارعين فلول

---

١)......أخرجه ابوداؤد، كتاب اللباس رقم الحديث:٤٠٣١.

٢)......السجنجل: هو المرآة والذهب والزعفران، والأول هو المشهور، ومنه قول امرإ القيس:

مهفهفة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

٣)......ديوان الحماسة، باب الحماسة:ص٣٢-٣٣-٣٤- من قول السموئل بن عاديا.

ومعنى الكلمات المشكلة: غرر، ج غرّة: بياض الجبهة.٢- الحجول والتحجيل: بياض مواضع الخلخال من الأرجل.٣-القراع: الضرب بالسيف.٤- الدارعين: لابسي الدروع، والدرع

معوّدة أن لا تُسل نصالها فتُغمد حتى يُستباح قبيل
سلي إن جهلتِ الناس عناوعنهمُ وليس سواءً عالم وجهول(٣)

وهذا آخر ما أردنا إيراده في هذا المقام، ونسأل الله تعالى أن يرزقنا اتباع سـ
المرسلين وصحابته المهديين ، وصلى الله عليه وعلى آله وسلم.

سليم الله خان
١٢/١٢/ ١٤٢٤هـ

سليم الله خان

رئيس الجامعة الفاروقية العالمية بكراتشي باكستان

ورئيس وفاق المدارس العربية والجامعات الإسلامية بباكستان

قميص حديدي يلبس في الحروب.٥ـ فلول ج فلّ: وهو ثلمة وإنكسارفي حد السيف.٦ـ تُسل: تُخرج. ٧ـ نصال ج نصل: حديدة السيف فوق القبضة. ٨ـ فتغمد: فتُدخل وتغلف.٩ـ قبيل: قبيلة.

خلال أربعة عشر قرنًا
منذ العهد النبوي حتى العصر الحاضر

للدكتور ابراهيم الشريقي

عضو المجامع العلمية الدولية

الهيئة الناشرة:

المكتبة الفاروقية

٤، شاه فيصل كالوني، كراتشي، باكستان

تلفون: ٤٥٧٥٧٦٣، البريد الإلكتروني: info@farooqia.com

الطبعة الرابعة

١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م

الهيئة الناشرة:

المكتبة الفاروقية

٤، شاه فيصل كالوني، كراتشي، باكستان

تلفون: ٤٥٧٣٤٣٦، البريد الإلكتروني: info@farooqia.com

مقدمة

(الطبعة الثانية)

بعونه تعالى قمنا بوضع واخراج التاريخ الاسلامي خلال أربعة عشر قرنا في عهد حضرة صاحب الجلالة الملك فيصل بن عبد العزيز المعظم ، وتشجيع صاحب المعالي الشيخ محمد سرور الصبان الأمين العام لرابطة العالم الاسلامي الموقر .

وقد صدرت الطبعة الأولى من الكتاب في العام الفائت ، فكان الاقبال عليه مشجعا مما زادنا رغبة وتصميما على اعادة طبعه بعد أن أجرينا ما اقتضاه من التنقيح والتصحيح . كما اضيفت عليه صفحات جديـدة تضمنت الشرح الدقيق المبسط لبعض الأحداث التاريخية ودور الدول التي جرت في عهدها هذه الأحداث بالاضافة إلى بيان مفصل يشمل الثروات العلمية والفكرية لمشاهير علماء وفلاسفة الحضارة الاسلامية العظيمة وأثرها في نهضة الأمم .

وبذلك نكون قد قدمنا لأبناء العروبة والمسلمين والجامعات العالمية صورة كاملة واضحة للتاريخ الاسلامي منذ العهد النبوي الكريم حتى عصرنا الحاضر مع نبذة عن أحوال العرب قبل ظهور الاسلام .

وفقنا الله جميعا الى السداد وهدانا سبيل الرشد أنه ولي التوفيق .....

ربيع أول ١٣٩١
أيار ١٩٧١

الدكتور ابراهيم الشريقي

بسم اللہ الرحمن الرحیم

مُقَـدِمَة

(الطبعة الاولى)

تستند كل أمة من الأمم الحية على مقومات روحية وثقافية وعلمية وتاريخية تشكل أسس كيانها .

ومن نظرة على تاريخ العرب نجد أن الاسلام هو مصدر مقومات الأمة العربية وجودها كأمة نشأت وسادت وارتفعت الى قمة المجد .

لقد ظهر الاسلام في مطلع القرن السابع الميلادي في جزيرة العرب مهد الجنس العربي فقضى على الوثنية وحطم أصنامها وحرر العرب من جحيمها ومن النزعة العصبية القبلية ، فتفتحت عقولهم الى النور وتحولوا الى عبادة الله وحـــده لا شريك له .

أجل ان الاسلام هو الذي أوجد للعرب كيانا ووحدهم في مجتمع يسوده الشعور بالتضامن والتسامح والاخاء والعدالة ، بعد أن كانوا مجموعة من القبائل متحاربة تتخبط في ظلام الجاهلية وخرافاتها ووثنيتها .

نذكر جميعا بفخار أنه في مهد العروبة ظهرت قبل أربعة عشر قرنا دعوة

الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، فكانت دعوة هداية للناس كافة ، وإيمانا بالخالق العظيم رب العالمين ، وتوحيد الشعوب في أمة واحدة لا تعرف شعوبية ولا اقليمية .

ولا ننسى أن الاسلام تفرد بخصائص تميز بها عن سائر الأديان الأخرى فكما نظم علاقة الانسان بربه ، نظم علاقة الانسان بأخيه الانسان ، وعلاقة الأفراد فيما بينهم وعلاقاتهم بالدولة . وهو في دعوته وتشريعه يعتبر نظاما عالميا أوجب حماية الخصائص الفردية والجماعية والقيم الروحية والأخلاقية ، والوحدة بين أبناء الأمة في الحقوق والواجبات والتضامن في المسئوليات ، واقامة العدل والمساواة بين الناس بغير تفرقة بين الأنساب والأجناس والألوان . وحسبنا على ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لا فضل لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود الا التقوى).. كما حث على الجهاد في سبيل الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن لنكر ، ونصرة المظلوم .

تلك هي المبادىء التي قامت عليها الدعوة الاسلامية . وتحت لوائها انضوت شعوب من مختلف الأجناس والقوميات وانصهرت في المجتمع الاسلامي الكبير .

وتمثلت المرحلة الأولى من التاريخ الاسلامي بانتشار الدعوة في أرجاء الجزيرة ـربية وقيام أول دولة في المدينة المنورة في عهد الرسول . وفي المرحلة الثانية حملت رسالة الاسلامية الى خارج الجزيرة حيث تم في عهد الخلفاء الراشدين فتح ـراق وبلاد الشام وفارس ومصر . وفي المرحلة الثالثة شملت الفتوحات في عهد لأمويين الذين اتخذوا دمشق عاصمة للخلافة : تركستان وبلاد المغول والسند لشمال الافريقي والأندلس . وفي هذه المرحلة التي دامت زهاء قرن من الزمن متدت الدولة الاسلامية من حدود الصين شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا .

وبدأت المرحلة الرابعة بقيام الدولة العباسية التي بلغت في عهد الخليفة هارون الرشيد أقصى اتساعها ، وأعلى درجة من القوة والثروة العلمية والثقافية . ودام حكمها خمسة قرون وربع القرن . وفي أواخر عهدها انتابها الضعف وزدادت الحركات

الانفصالية في بعض الأقاليم وبرز نفوذ الأتراك الى الوجود وأخذ يمتد حتى تمت السيطرة للدولة العثمانية على العالم العربي في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي).

وخلال هذه المراحل تعرضت الأقطار الاسلامية الى غزوات خارجية انقضت عليها من الغرب ومن الشرق . وكان أعنفها وأخطرها هي الحملات الصليبية وغزو المغول الرهيب . وقد قاوم المسلمون الغزاة و بفضل وحدتهم وايمانهم بعقديتهم انتصروا على المعتدين وطردوهم من ديارهم وأرضهم .

والذي ينبغي ادراكه هو أن المسلمين لم يدخلوا البلاد التي فتحوها كغزاة بل كجنود لنشر رسالة الاسلام الخالدة وحضارته التي لعبت دورا كبيرا في نهضة الأمم والشعوب وفي مقدمتها شعوب أوروبا التي كانت قبل دخول الحضارة الاسلامية اليها عن طريق مراكزها في الأندلس وصقلية تعيش في ظلام العصور الوسطى.

وخلاصة القول أن التاريخ الاسلامي يشكل مرآة ومدرسة ، ففيه الكثير من البطولات والأمجاد والمآثر التي نفخر بها ونعتز بتراثها ومعالمها التي تعبر بصورها الناطقة عن عظمة الحضارة الاسلامية .

نسأل الله تعالى أن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم ، آملين بأن يكون قد وفقنا في اخراج هذا الكتاب للغاية المرجوة ألا وهي الإسهام في نشر العلم والمعرفة بين أبناء أمتنا ، والله من وراء القصد وهو خير معين .

رمضان المبارك ١٣٨٩

تشرين الثاني ١٩٦٩

الدكتور ابراهيم الشريقي

كلمة ثناء وتقدير

لقد كان لتشجيع صاحب المعالي الشيخ محمد سرور الصبان الأمين العام لرابطة العالم الاسلامي الفضل الكبير في اخراج هذا الكتاب من سلسلة المعارف والعلوم التي نعدها للجيل الجديد في الوطن العربي والأقطار الاسلامية على أسس علمية شعارها النهج السليم المستمد من الروح الاسلامية مصدر الشعاع وينبوع الحضارة .

فالى معاليه أقدم وافر الشكر المقرون بالاحترام والتقدير . والله نسأل أن يوفقنا إلى الخير والسداد .

المؤلـــف
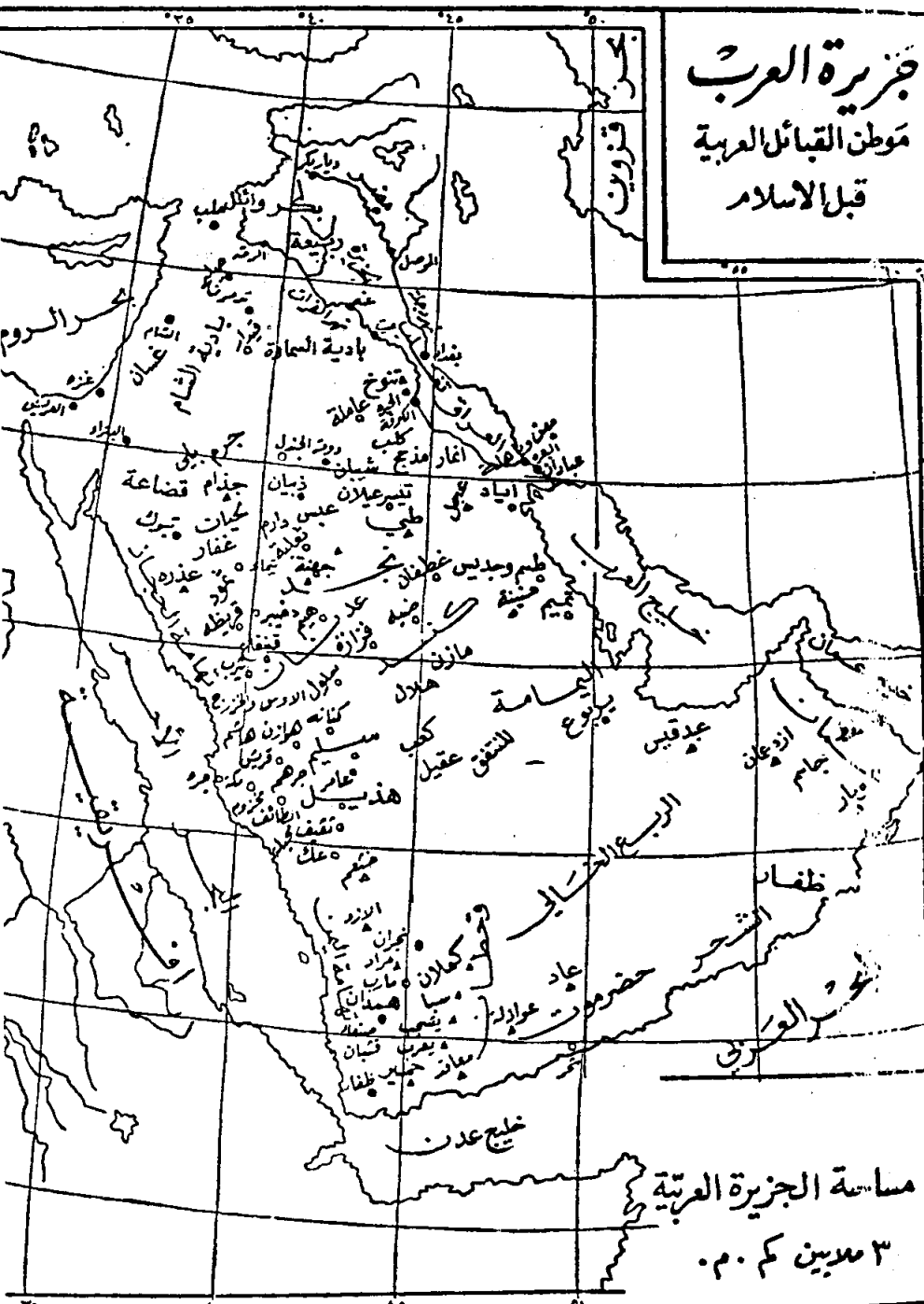
١٣٨٩هـ – ١٩٦٩م

خريطة جزيرة العرب

خلال أربعة عشر قرنًا
منذ العهد النبوي حتى العصر الحاضر

الدكتور ابراهيم الشريقي
عضو المجامع العلمية الدولية

الفصل الأول

العرب قبل ظهور الإسلام

الثابت تاريخيا أن الجزيرة العربية هي مهد الجنس العربي وموطنه الأول .تشكل منطقة واسعة مترامية الأطراف ، تحيط بها البحار من جهاتها الثلاث ، حدودها الطبيعية هي :

من الجنوب البحر العربي ومن الشمال العراق والشام ومن الشرق الخليج العربي ومن الغرب البحر الأحمر .

ويقسم المؤرخون الجنس العربي الى قسمين كبيرين هما :

١) العرب العاربة

هم أبناء قحطان وموطنهم الأول بلاد اليمن والعرب القحطانيون تفرعوا جميعهم من فرعين وهما : كهلان ، وحمير أبناء سبأ وتسموا بالعرب العاربة لأنهم أول من تكلم اللغة العربية من شعوب الجزيرة .

٢) العرب المستعربة

هم أبناء عدنان الذين يعود نسبهم الى النبي اسماعيل . وأطلق عليهم اسم

المستعربة لأن اسماعيل كان يتكلم اللغة السريانية لغة أبيه ابراهيم . ثم لما جاء به أبوه إلى مكة وجاوره الجرهميون من القحطانيين في الحرم وتزوج منهم تعلم وأبناؤه العربية من أصهاره فسموا بالعرب المستعربة .

وتقع منازل العرب العدنانيين الأولى في الحجاز ونجد وتمتد حتى بادية الشام ، ثم امتزج بهم بعد ذلك القحطانيون بعد انهيار سد مأرب حيث هاجروا إلى الشمال واستوطنوا نجد والحجاز وخاصة يثرب .

العرب البائدة

كان هناك قبل العدنانيين والقحطانيين جيل كبير من العرب انقرضوا انقراضاً كاملاً ولم يبق لهم من عقب حيث بادوا عن آخرهم .. ولذلك قيل لهم العرب البائدة .. ومن هؤلاء عاد ، وثمود ، وطسم ، وجديس . وأهم مواطنهم (حضرموت واليمامة ويثرب وعمان وتيماء ووادي القرى).

ديانة العرب :

كان العرب يدينون بدين الحنيفية (دين ابراهيم عليه السلام) وهو دين التوحيد ثم أدخل التحريف عليه رجل اسمه عمرو بن لحي إذ كان أول من علمهم عبادة الاصنام . وظل العرب يعبدونها قرونا طويلة حتى جاء الله بالاسلام فأزال النبي ﷺ هذا الانحراف الوثني الخطير وعاد بالعرب الى جادة التوحيد الذي هو افراد الله تعالى وحده بالعبادة .

وكان في جزيرة العرب أديان غير الوثنية العربية .. فهناك اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة .

فاليهودية في العصر الجاهلي كانت منتشرة في يثرب وخيبر واليمن ووادي القرى وتيماء . وليس هناك من العرب من دان بها الا أفراد قلائل ، لا يكادون

يذكرون . غير أنه في اليمن دان باليهودية أحد ملوك حمير وتبعه جماعته .ويظهر أن ذلك حدث قبل أن يدخل اليهود التحريف على دين موسى عليه السلام .

أما النصرانية فقد كانت منتشرة في اليمن ونجران ومنطقة الجندل في الشمال وبين عرب الغساسنة في الشام والجذاميين في الحيرة من العراق .

والصابئة (عِبَادَةُ النجوم والكواكب) فقد كان وجودها في جنوب الجزيرة ضئيل جدا بحيث لا يكادُ يذكر . وكان يدين بها بعض القبائل في حران وأعالي العراق واليمن .

وكذلك المجوسية القائمة على أن هناك إله للخير وإله للشر كانت منتشرة في شرق الجزيرة العربية واليمن ولكن على نِطاق ضيق جداً . ويظهر أن وجود المجوسية كان بحكم وجود الحكام من الفرس مع العلم أنها تنتسب إلى زرادشت الفارسي .

وقد كانت هناك أديان أخرى غير أنها تلاشت بعد أن جاء الاسلام فمحى آثار كل هذه الأديان من جزيرة العرب عندما أشرقت شمسه عليه وأقام لتوحيد الخالص .

ولم يكن العرب قبل الاسلام ينكرون وجود الله تعالى ، بل كانوا مع شركهم يؤمنون به خالقا كما جاء ذلك في القرآن الكريم «وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون» (١٠٦ — يوسف)؟ « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله» (٢٥ — لقمان).

وفي ذلك العصر المظلم كانت جزيرة العرب تعج بآلاف الآلهة من الأصنام فكان لكل قبيلة صنم خاص ، وكان لقبائل قريش وحدها ثلاثمائة وستين صنماً نصبت كلّها حول الكعبة . وقد حطمها النبي ﷺ جميعاً يوم فتح مكة .

مقام الكعبة والحج :

لقد ظلت الكعبة منذ أن بناها ابراهيم الخليل ، محل تقديس وتعظيم عندالعرب

يطوفون حولها ويعتبرونها بيت الله المعظم . وظلوا على هذا الحال حتى جاء الله بالاسلام فزاد من تعظيمها وأقرّ الطواف بها في كل وقت .

أما الحج فكان مشروعاً منذ عهد النبي ابراهيم . وظل العرب طيلة عهود الوثنية يحجون إلى البيت العتيق ويؤدون كل شعائر الحج الا أنهم أدخلوا عليه بدعاً جاهلية وأهمها التلبية الشركية وهي قولهم في الحج (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريكاً تملكه وما ملك) [1] وقد أقر الاسلام الحج وجعله أحد أركان الاسلام بعد أن أزال عنه البدع .

تعظيم الحرم :

ومن التقاليد الابراهيمية التي ظلت مرعية عند العرب قبل الاسلام تعظيم منطقة الحرم الواقعة حول الكعبة ، فقد كانوا مجمعين على تحريم سفك الدم في هذه المنطقة لذا كانوا يعتبرون كلَ من دخلها آمناً حتى يخرج منها .

كما كان للعرب في الجاهلية تقليد حميد أجمعوا على الالتزام به ، وأقره الاسلام فيما بعد ، وهو أنهم اتفقوا على أن تكون أربعة أشهر من كل سنة سنة (حرماً) لا يجوز القتال فيها مطلقاً وهي : (رجب وذو القعدة ، وذو الحجة والمحرم) وقد ساهم الالتزام بهذا القانون غيرِ المكتوب في جعل القبائل تنعم بالأمن الشامل في فترة تمكنهم من أداء شعائرهم وانعاش أسواقهم التجارية ومواسمهم الأدبية بعيدين عن فوضى التخاصم والاقتتال التي هي الحاكم المتحكم في شئونهم .

الحالة الاجتماعية :

كانت البداوة هي الطابع الرئيسي المميز لجميع سكان الجزيرة وحتى سكان المدن كمكة ويثرب وصنعاء ونجران . وكان هذا الطابع هو المتحكم في شئونهم

(١) أما تلبية الاسلام فهي : (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك، ان الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك) .

والمسيطر على تصرفاتهم من حيث روح القبلية والعصبية الجاهلية . وكانت حدة الطبع التي أذكتها الجاهلية العمياء في نفوسهم تجعلهم في حالة حرب دائمة مع بعضهم البعض . وأسباب هذه الحروب القبلية متنوعة ، وكثيرا ما يخوضونها لأسباب تافهة كالحرب التي استمرت أربعين سنة بين بكر وتغلب من أجل ناقة قتلها كليب شيخ وائل في نجد .

أما الغزو للسلب والنهب فقد كان شرعة جاهلية تسير عليها كل القبائل العربية آنذاك وبموجبها تقوم كل قبيلة بغزو الأخرى كلما سنحت لها الفرصة ورأت أنها قادرة على ذلك .

الولاء ونظام الحكم :

مما لا جدال فيه أن ارتباط العربي بقبيلته هو ارتباط وثيق وولاؤه لها هو فوق كل ولاء ، ولهذا فهو مستعد لأن يخوض حرباً لمجرد أن يتعرض أي فرد من أفراد قبيلته لأية اهانة .. بل أن المتبع عندهم (بحكم البيئة الجاهلية) أن تنصر القبيلة المنتسبين اليها حتى ولو كانوا هم الظالمين والبادئين بالعدوان . والى هذا أشار شاعرهم بقوله :

لا يسألون أخـــاهم حين يندبهم * في النائبات على مـــا قال برهانا

لم يكن في المجتمع العربي قبل الاسلام نظام حكم بالمعنى المعروف ، وكل ما في الأمر أن البدوي مجبول على الولاء لقبيلته ثم لشيخها أو رئيسها الذي تختاره وتمنحه (حسب العرف القبلي) بعض السلطات في فض النزاعات والتكلم باسمها في المفاوضات مع غيرها وليقودها في الحروب التي تنشب بينها وبين أية قبيلة معادية أخرى . وبقاء رئيس القبيلة في منصبه يتوقف على رجاحة عقله وسعة صدره وشجاعته وقوة شخصيته وكرمه .

ويمكن القول أن أقرب القبائل للاستقرار وعدم الاختلاف هي قبيلة قريش

في مكة التي عرفت وحدها شيئاً من الشورى وذلك بانشائها دار الندوة التي كانت بمثابة برلمان مصغر .

حب الحرية :

ان البدوي بحكم الانطلاق الكامل الذي ألفه في جزيرته عبر التاريخ ، صار يحب الحرية المطلقة الى حد الافراط . ويعتبر عدوه الاكبر هو الذي يقيد حريته . ولا يتورع عن سفك دم أي انسان اعتقد أنه مس حريته أو كرامته حتى ولو كان أكبر رأس في قبيلته نفسها .

الأسرة والقومية :

الأسرة في المجتمع العربي موجودة منذ وجد الانسان العربي . وكان تكوين الأسرة يبدأ بعقد الزواج بين الرجل والمرأة عن طريق وليها ثم يتسع نطاق الأسرة بالتناسل ، والولد ذكراً كان أم أنثى يكون تابعاً لأبيه وليس لأمه، وكانت حالة المرأة سيئة للغاية في المجتمع الجاهلي ، وبلغت الاستهانة بها الى أنها تورث ولا ولا ترث .. وظللت المرأة في حالة استعباد حتى جاء الاسلام فحررها وكفل لها كامل الحقوق .

ولعل من أبرز التقاليد الاجتماعية قبل الاسلام هي الاعتزاز والتفاخر بالأحساب والأنساب إلى حد المغالاة ، الأمر الذي جعلهم يقيمون مواسم ليفخر فيها بعضهم على بعض . وقد شجب الاسلام هذه العادات السيئة وفرض المساواة ، قال تعالى : ان أكرمكم عند الله أتقاكم .

شرب الخمر :

أما شرب الخمر فقد كان شيئاً شائعاً بينهم ، وكان شربها من أهم ما يفخرون بتعاطيه من المشروبات ، ولا أدل على ولعهم بها من كثرة أشعارهم في وصفها والترنم بأوصافها . وقد جاء الاسلام فحرمها لكثرة ما فيها من الضرر .

الصدق :

لقد طفحت كتب التاريخ بالحديث عن أن صدق اللهجة والصراحة في القول والتنزه عن الكذب هي من الخصائص التي يمتاز بها الانسان العربي ، ولنفور العرب من الكذب اذا كذب أحدهم كذبة حفظوها عليه وتحادثوا بها في أنديتهم وأسمارهم كأمر مستنكر معيب .

الجود :

أما سخاء النفس والكرم فهما من أسمى الصفات الحميدة التي فطروا عليها .. بل أصبح الكرم شرعتهم الاجتماعية المحببة يتبارون في ساحاتها ويحاول كل منهم أن يكون أطول باعاً فيها . اذ ليس هناك من يختلف في أن الكرم هو خلق العربي الذي يحرص على أن يكون ملازماً له ملازمته لروحه . والعربي اذا نزل الضيف بداره يبالغ في اكرامه واذا لم يجد ما يكرم به ضيفه الا راحلته أو فرس حربه ذبحها له فرحاً مسروراً .

ولتأصل هذا الخلق النبيل في نفوسهم صاروا ينظرون الى البخل كأحط صفة يأنف كل منهم أن يتصف بها . وقد بلغ مستوى البذل والكرم بينهم حدا لم تبلغه أمة من الامم ، وكان بينهم أعلام مشاهير في الكرم مثل حاتم طي .

عزة النفس والشجاعة :

كما أن مزاياهم عزة النفس والتعفف ، والى هذه الصفة الحميدة أشار عنترة بن شداد بقوله :

ولقد أبيت على الطوى وأظله • حتى أنال به كريم المأكل

أما الشجاعة فهي من أهم الخصال التي يحرص العربي على أن يتحلى بها ، وكثيراً ما يركبون المخاطر ويبذلون أرواحهم بسخاء متناه لاغاثة ملهوف أو انجاد

مكروب التجأ اليهم .. أما شجعانهم المشاهير فأكثر من أن يحصيهم عدد .. وعلى سبيل المثال نذكر : عنترة بن شداد ، وربيعة بن المكدم وعمرو ابن معدي كرب.

صيانة الأعراض :

العفة والحرص على صيانة العرض من أبرز الخصائص التي امتاز بها العرب على جميع الأجناس . ولقد نشأوا على هذا الخلق وتوارثوه عبر الأجيال وبالغوا في التمسك به وتنشئة بناتهم عليه حتى صرن لا يتصورون أن الحرة تفرط في عرضها مهما كانت الظروف والأحوال .. ولعل أكبر شاهد على ذلك قول هند بنت عتبة (عندما بايع النبي ﷺ نساء مكة على ألا يزنين فقالت مستغربة : « أو تزني الحرة يا رسول الله؟».

حماية الجار :

وحماية الجار خلق متأصل فيهم ، بل وقانون معمول به في طول البلاد وعرضها لا يجرؤ أي فرد على خرق هذا القانون غير المكتوب الا الذي يرغب في أن يعرض قبيلته لخوض حرب طاحنة .

فأية قبيلة ملزمة بحماية أي انسان يعلن فرد منها أنه قد أجاره . أي أعطاه الحماية .. واذا ما اعتدى أي انسان على هذا المستجير فان القبيلة بأجمعها تهب للانتقام للمعتدي عليه حتى ولو أدى ذلك الى بذل مئات الأرواح .

الوفاء بالعهد :

أما الوفاء بالعهد فهو أمر مقدس لا يمكن التهاون بشأنه . وان نقضه عندهم يعتبر جريمة لا تغتفر . ولذلك فانهم اذا أعطوا عهداً يسترخصون كل غال في سبيل الوفاء به . وكم خاضوا حروباً وبذلوا دماءا غالية من أجل الوفاء بعهد أعطوه كما تشهد بذلك كتب التاريخ .

ثقافة العرب

يعتبر المجتمع العربي عبر عصور الجاهلية من أغنى المجتمعات بعناصر الثقافة الأدبية من حيث قوة التصور وحسن التعبير والقدرة على الوصف ورقة الأسلوب وحلاوة المنطق وحفظ الأحداث واستيعاب الأقوال ورسوخ المعاني في الأذهان .

وكان العرب يعتمدون في الاحتفاظ بانتاجهم الثقافي والأدبي على ذكائهم الخارق وقدرتهم المذهلة على الحفظ اذ هما الأوعية التي ظلت عبر القرون تحتفظ بانتاجهم الثقافي بصورة تدعو الى الدهشة .

فقد كان أحدهم يسمع (ولمرة واحدة) قصيدة من الشعر أو خطبة من الكلام الجزل فيحفظها في الحال وتظل ذاكرته تختزنها ويتحدث بها كلما أراد دون أن ينسى منها حرفاً واحداً ، وهذا ما أنعش الأدب وساعد على نشر الثقافة .

اللغة :

كانت اللغة الحميرية منذ أقدم العصور هي لغة الثقافة والحضارة . وكان الحميريون أول من كتب لغتهم من العرب ، والخط الحميري لا تزال آثاره باقية في اليمن على الصخور واللوحات الأثرية . وقد ازدهرت الثقافة والحضارة الحميرية في اليمن وخاصة في عهد ملوك التبابعة ، فكانت في عهودهم أكثر بلاد العرب تحضراً وثقافة وتمدناً ، الا أن تعرضها للغزو الخارجي ووقوعها تحت الاحتلال الحبشي ثم الفارسي وتعرضها أيضاً لكوارث الطبيعة كانهيار سد مأرب فخر حضارتها ومصدر انتعاشها الاقتصادي — أوقف تقدمها في أكثر المجالات . كما أصاب اللغة الضعف فتوقفت عن التطور بسبب تطعيمها بألفاظ غريبة من لغات المحتلين مما أفقدها ميزتها الى درجة الانحطاط والتلاشي .

وبينما اللغة الحميرية تضعف ويأخذ نجم ازدهارها في الأفول كانت لغة

العدنانيين تنمو وتزدهر في أواسط الجزيرة وشمالها وخاصة في الحجاز ومكة (موطن القرشيين) الذين انتعشت لغتهم وأخذت تسمو وتتطور حتى احتلت مكان الصدارة في عذوبة اللفظ وسهولة التعبير ومتانة الأسلوب والاستيعاب لكل معاني البلاغة .

وعندما أزف ميعاد بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم كانت لغة قريش قد بلغت الكمال بين جميع لهجات الجزيرة . ثم نزل بها القرآن الكريم فرفع شأنها وعزز مكانتها . وكان ذلك سبباً في انصراف العرب عن اللهجات العربيةالأخرى حتى تلاشت نهائياً .

الشعر والأسواق العربية :

والدليل على تفوق لغة قريش هو أن الأسواق العربية التي يقيمها العرب خلال كل عام كانت تقام بالقرب من الحرم حيث يفد إليها الناس من جميع أنحاء الجزيرة . وأهم هذه الأسواق : عكاظ . ومجنة . وذو مجاز .

وقد كانت هذه الأسواق بالاضافة الى التبادل التجاري تعتبر في الدرجة الأولى مواسم ثقافية على أعلى المستويات الأدبية . تقام فيها مباريات شعرية بين أبرز فحول الشعراء . وكان يجلس فيها محكمون أكفاء منصفون يعلنون فوز الشاعر الأفضل وتعلق قصيدته على الكعبة بمثابة جائزة تعتبر مفخرة عظيمة للشاعر لا يدانيها شيء . وكانت هذه القصائد تسمى المعلقات .

وكان الشعر من أهم وسائل التعبير والاعلام وتسجيل الأحداث الهامة لدى العرب ، ولذلك كان له المنزلة الأولى في هذه الأسواق الثقافية التقليدية .

وبالاضافة الى الشعر كانت الحكم البليغة والكلام الجزل يتحدث به الحكماء والبلغاء في خطب تاريخية فريدة مثل : أكثم بن صيفي وقس بن ساعدة الأيادي الذي ألقى في سوق عكاظ خطبته المشهورة وفيها انتقد مذهب الوثنية وبشر بدين الاسلام .

ولقد كان لهذه الأسواق التي تقام فيها المواسم الأدبية عدة مرات في السنة أكبر الأثر في نشر الثقافة بين القبائل ، وتشجيع التنافس بين الشعراء والحكماء والبلغاء لاختيار أجمل الألفاظ وأرصن التعبيرات وأرق الأساليب ، فساعد ذلك على الوصول باللغة العربية الى ما وصلت اليه من مستوى عال رفيع عند بزوغ شمس الاسلام حيث جاء والجزيرة العربية التي سادتها لغة قريش تزخر بالشعراء والفصحاء والخطباء .

العلوم :

بالرغم من طابع البداوة السائد بين القبائل الذي لا يترك مجالا لشمس العلوم أن تظهر بحكم انشغال البدوي بالانتقال من منطقة الى أخرى بحثاً عن الرعي لاشباع ماشيته التي هي عماد حياته ، فان هناك مناطق من بلاد العرب قد شهدت حركات عمرانية زراعية تشهد للعرب بحذاقتهم في علوم الهندسة والتخطيط ، ولا أدل على ذلك من سد مأرب في اليمن الذي يعتبر آية في الهندسة والتصميم.

وللبدو معرفة خارقة بتقلبات الأجواء ، والاستدلال على قرب نزول المطر وتأخره وذلك بتقدير اتجاهات الرياح الى درجة أن الحاذقين منهم يأمرون ذويهم في أوقات معينة بعدم البقاء في بطون الوديان لأن سيولاً كبيرةً ستأتي في أوقات معينة .

أما الطب فان الرقية والتعاويذ من الأمور الشائعة بينهم . وهناك العقاقير التي يجمعونها من الأعشاب وعرفوا فيها بالتجارب لمعالجة كثير من الأمراض . كما أن لهم براعة في تجبير الكسور التي تصاب بها العظام ، والكي بالنار الذي يحتل الصدارة عندهم في المعالجة . وكان بينهم أطباء لهم شهرة في معرفة الأمراض ووصف الأدوية لها مثل الحارث بن كلدة ولقمان بن عاد .

التجارة :

لقد عرف العرب التجارة من أقدم الأزمان وكانوا على بداوتهم مهرة فيها إلى حد

بعيد . وزاد من ازدهار تجارتهم موقع جزيرتهم الذي يشكل حلقة اتصال بين الشرق والغرب . وكانت تأتي اليها السلع من الهند والشرق الأقصى عن طريق موانئها الجنوبية لينقل الكثير منها الى موانيء البحر الأبيض المتوسط ومختلف الأقطار الأوروبية الغربية . يضاف الى ذلك أن مناطق عديدة في جزيرتهم تصدر الى الخارج منتوجاتها المحلية وسلعاً كثيرة تدر على أهلها أرباحاً طائلة .

الفصل الثاني

بزوغ فجر الإسلام

سيرة الرسول :

ولد النبي محمد صلى الله عليه وسلم بمكة يوم ١٢ ربيع الأول من عام الفيل الموافق سنة ٥٧١م .

نسبه الشريف من جهة والده : هو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب ابن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر ابن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

أما نسبه من جهة أمه فهو ابن آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة ابن كلاب ، ويلتقي نسب أمه مع نسب أبيه في جده كلاب بن مرة ..

وكان بنو هاشم (اسرة النبي صلى الله عليه وسلم) في الذروة من الشرف بين قريش ، وقد اتصفوا بكرم الأخلاق والجود لذلك كانت لهم سقاية الحجيج ورفادتهم . وكان عبدالله أصغر أبناء عبد المطلب العشرة من الذكور وأحب أبنائه إليه ، وكانت أم عبدالله من الأوس من بني النجار في يثرب . وامتاز عبدالله بحسن السلوك ودماثة الخلق وحسن المعاشرة . وعندما تخطى السابعة والعشرين اختار له أبوه

زوجة من أشرف وأكرم بيوت يثرب وهي آمنة بنت وهب الزهرية ، فكانت مثال المرأة العفيفة الكريمة .. وقد سعد عبدالله بزواجها لما وجد فيها من كريم الصفات وشريف الخصال ، الا أن عشرته لها لم تدم طويلاً ، فبعد مرور ما يقرب من أربعين يوماً على زواجه منها ذهب الى الشام في رحلة تجارية ، وفي هذه الرحلة توفي بالمدينة عند أخواله بني النجار على أثر مرض ألم به وهو عائد من الشام . وكانت زوجته السيدة آمنة حامل بالرسول . وعندما ولدته فرح به جده عبد المطلب فرحاً عظيماً .

نشـــأته :

وقد أرضعته أمه لمدة سبعة أيام ، ثم أرضعته ثويبة مولاة عمه أبي لهب وأرضعت قبله عمه حمزة (ر) وكما هي عادة أهل مكة أسلمته أمه لمرضعة بدوية هي حليمة السعدية من قبيلة هوزان ، فأخذته معها الى البادية حيث أرضعته لمدة سنتين ثم فطمته . وأقام في ديار بني سعد مع مرضعته واخوته بالرضاعة نحو أربع سنين ، ثم عادت به حليمة إلى مكة .

وفي السادسة من عمره ماتت أمه السيدة آمنة بنت وهب في الطريق وهي عائدة من المدينة الى مكة بعد أن زارت به أخواله بني النجار . وقد دفنت في الأبواء بين مكة والمدينة . ثم كفله جده عبد المطلب وازدادت عنايته به وتضاعف حبه له ؛ إلا أن جده لم يطل به العمر فتوفي والرسول عليه الصلاة والسلام في الثامنة من عمره .

وبعد وفاة جده عبد المطلب كفله عمه أبو طالب الذي لم يكن أقل حباً له وعطفاً عليه وبراً من جده. وقد رعى الغنم بعد أن تخطى الثانية عشرة من عمره ليساعد عمه بما يكسبه في تحمل أعباء المعيشة لأن أبا طالب كان شديد الفقر وكثير العيال.

وظل محل رعاية وعناية وحماية عمه الرجل الوقور حتى بلغ رشده وبعث نبياً مرسلاً . وكانت أول حرب يشهدها في الرابعة عشرة من عمره هي حرب الفجار

(سميت بحرب «الفجار» لأنها وقعت في الأشهر الحرم التي نشبت بين قريش وحلفائها من جهة وبين قيس من جهة أخرى . وقد اشترك فيها فكان يساعد أعمامه بتجهيز النبل .

خارج الجزيرة :

كانت أول رحلة قام بها خارج الجزيرة هي رحلته الى الشام وهو في الثانية عشرة من عمره .. ولم يكن في رحلته متاجراً وانما ليصحب عمه أبا طالب الذي بشره في هذه الرحلة بحيرا الراهب أن ابن اخيه محمداً هو النبي المنتظر كما هو مبين في التوراة .

كان محمد ﷺ منذ نشأته مشهوراً بالصدق والأمانة والوفاء لذلك أوكلت إليه السيدة خديجة بنت خويلد القيام بشئون تجارتها .. وكان أول عمل تجاري قام به لخديجة أن ذهب ومعه غلامها ميسرة الى سوق حباشة في اليمن فربح ربحاً حسناً . ثم ازدادت ثقتها به فبعثت به إلى الشام بتجارة لها فربح أرباحاً كبيرة وكان عمره خمساً وعشرين سنة .

وقد توسمت السيدة خديجة فيه من الخصال الحميدة والأخلاق العالية ماجعلها ترغب في أن يكون زوجاً لها . وكانت من أشراف قريش كريمة الأصل والنسب مثال المرأة المخلصة الصالحة — وقد خطبها له عمه أبو طالب فتزوجها وهي في الأربعين بينما كان هو في السادسة والعشرين .

وكانت السيدة خديجة (ر) خير معين للنبي ﷺ طيلة حياتها معه ، فقد كانت تشد أزره أيام محنته في مكة حينما اشتد أذى قريش له . وفي حديثه عنها قال : لقد آمنت بي حين كفر بي الناس ، وصدقتني حين كذبني الناس ، وأعطتني مالها حين حرمني الناس . ومنها أنجب جميع أولاده ما عدا ابراهيم فانه من زوجته مارية القبطية (ر).

سيرته قبل البعثة :

كان صلى الله عليه وسلم منذ نعومة أظفاره بعيداً عن دَنَس الجاهلية وفسادها الذي غرق القوم في جحيمها . وفي سيرته قبل البعثة الدليل الذي لا يقبل الجدل أنه خلق ليؤدي رسالة عظيمة . فميزه الله بأخلاق وصفات لم يتحل بها غيره من عفة اللسان وطهارة الجنان وصدق الحديث وقوة الأمانة . وكان لهذه الصفات الحميدة الاحترام والاجلال من قومه على اختلاف طبقاتهم حتى أنهم سموه بالأمين .

لقد عرف قبل البعثة بعمق التفكير ورجاحة العقل وسمو الخُلق ما لم يتوفر لغيره ، فشاعت سجاياه بين قومه في أوساط قريش الذين حكموه في حل مشكلة الحجر الأسود ، وقصتها هي :

حينما جُددَ بناء الكعبة اختلف زعماء قبائل قريش على وضع الحجر الأسود .. الكل منهم يريد أن يحظى لنفسه بشرف حمله ووضعه في مكانهبالكعبة ، وكادت الحرب الأهلية أن تنشب بينهم ولكن أحد زعمائهم هو (أبو أمية حذيفة ابن المغيرة المخزومي)اقترح حلاً للمشكلة أن يحكّموا أول من يدخل المسجد فقبلوا. وكان محمد صلى الله عليه وسلم أول من دخل ، ففرحوا قائلين : هذا الأمين قد رَضينا به ، فأوجد حلاً للمشكلة بأسلوب يدل على رجاحة العقل وسداد التفكير ، فقد أمر بفرش رداء ثم وضع فيه الحَجر بيده وهنا أمر زعماء القبائل بأن يمسك كل واحد منهم بطرف من الرداء فيرفعوا الحجر ، حتى اذا ما حاذى المكان المعد له بالكعبة أخذه بيده الكريمة فوضعه فيه . وبهذا التصرف الحكيم قطع دابر النزاع وجنب قريشاً حرباً أهلية طاحنة ، فرفع ذلك من منزلته بين القوم .

ومما شهده الرسول هو حِلف الفضول الذي دُعي عقلاء قريش إلى عقده بينهم على أن لا يجدوا بمكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم ، الا رفعوا عنه الظلم وردعوا الظالم .. وعُقِد هذا الحلف في دار عبدالله بن جدعان ، ولإعجابه وتقديره للحلف كان يقول بعد أن بعثه الله : (لو دُعيتُ إلى مثله لأجبت).

وعندما اقترب ميعاد بعثته حبب الله إليه الخلوة بنفسه ، بعد أن صار يضيق

مما يرى ويسمع في مجتمع قومه من تصرفات تنافي الفطر السليمة ، وكان مكانه المفضل للخلوة والتعبد (غار حراء) في ضواحي مكة .

البعثـــة :

بعد أن اكتمل الأربعين من عمره ، وبينما كان مختلياً بنفسه في غار حراء يتعبد نزل عليه جبريل (ع) بالوحي وكان ذلك في شهر رمضان عام ٦٠٩ميلادية . وبدون مقدمات أمره جبريل أن يقرأ ففزع وقال : ما أنا بقارىء فكرر الأمر ثلاث مرات وفي المرة الرابعة قال له : (اقرأ باسم ربك الذي خلق ۝ خلق الانسان من علق ۝ اقرأ وربـــك الأكرم ۝ الذي علم بالقلم ۝ علم الإنسان ما لم يعلم [1] .

قال ﷺ فقرأتها ثم انتهى وانصرف عني ، فكأنما كتب لي في قلبي كتاباً . ثم غادر الغار الى زوجته يرجف فؤاده من هول المفاجأة فأخبرها بما حدث له فقالت : ابشر يا ابن العم فوالذي نفس خديجة بيـــده اني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة .

وكان للسيدة خديجة من رجاحة العقل وصفاء البصيرة ما جعلها تستبعد أن يكون ما حدث لزوجها في الغار من تلبيسات الشياطين ، لذلك لم نتجه للاستفسار الى الكهان والعرافين ، بل اتجهت الى رجل وقور ذي ثقافة متينة اعتزل الأصنام وقرأ التوراة والانجيل وهو ابن عمها ورقة بن نوفل ، ولما أخبرته خبر زوجها قال لها مبشراً : ان صدقت يا خديجة لقد جاء الوحي الذي ينزل على الرسل ، وانه لنبي هذه الأمة فقولي له فليثبت .

الدعوة إلى الله :

ثم نزل عليه الوحي من جديد ، وبدأت مرحلة جديدة ، وهي الدعوة الى

---

(١) سورة العلق آية (١) ، (٢) ، (٣) ، (٤) ، (٥) .

الاسلام بغير طريق المجابهة والصدع ، بل بطريق أقرب ما يكون الى السرية .. وظل ﷺ طيلة ثلاث سنوات يعرض الاسلام (سراً) على من يتوسم فيهم الخير فآمن به نفر قليل من كبار النفوس كان في مقدمتهم ، زوجه خديجة ، وعلي ابن أبي طالب ، وأبو بكر الصديق ، ومولاه زيد بن حارثة ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام وأبو عبيدة عامر بن الجراح وسعد بن أبي وقاص وطلحة ابن عبيدالله وعبد الرحمن بن عوف والأرقم بن أبي الأرقم ، وغيرهم .

وبالرغم من علم قريش بظهور الدين الجديد ، إلا أنهم لم يهتموا به خلال السنوات الثلاث . كما أن الرسول ، لم يتعرض لآلهتهم في تلك المدة . ولكن معارضة قريش كانت عنيفة عندما أعلن دعوته جهراً كما أمره الله أن يجهر بها ويبدأ بأقاربه فيدعوهم إلى دين الاسلام ، فقال تعالى : وانذر عشيرتك الأقربين . وكان أول من دعاهم بني عبد المطلب فلم يستجب له أحد منهم الا ابن عمه (علي بن أبي طالب) كما لم يسمعه أحد منهم ما يكره الا عمه أبو لهب الذي رد عليه رداً قبيحاً . .

الاسراء والمعراج :

قال تعالى في كتابه الكريم : سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير . (سورة الاسراء ١) . أجل لقد أسرى بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلا من مكة الى بيت المقدس على (البراق) وكان من أمر الله سبحانه وتعالى فأسرى به كيف شاء ليريه من آياته ما أراد .

مقاومة قريش للدعوة :

هبت قريش لمقاومة الدعوة لأنهم رأوا فيها هدماً لكيانهم الذي أقيم على الوثنية . ولما رأوا أن الرسول ﷺ متمسكاً بدعوته غير عابىء بما يفعلون أو يقولون ، بعثوا وفداً من زعمائهم الى عمه أبي طالب ليأمره بالكف عن التنديد بدينهم وتحقير

أصنامهم ، فاستدعاه أبو طالب وقال له ناصحاً : ابق علي وعلى نفسك يا ابن أخي ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق ، فقال : والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما فعلت حتى يظهره الله أو أهلك دونه .

وكانت هذه الكلمات النبوية الحازمة كافية لأن تجعل أبا طالب ينسى قريشاً وإنذارهم فيؤكد للنبي ﷺ أنه لن يتخلى عنه قائلاً : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت وحدث ما شئت .

الهجرة إلى الحبشة :

وتمادت قريش في غيها وبذلت قصارى جهدها لاخماد صوت دعوة التوحيد . وكان من أشدهم مقاومة للدعوة أبو لهب وأبو جهل وأبو سفيان . ولما لم تستطع قريش أن تنال بغيتها ازدادت كفراً وعتواً وايذاء للمسلمين ، وصبت جام غضبها على المستضعفين ، وعندها أذن النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة الى الحبشة لينجوا من بلاء قريش قائلاً لو خرجتم الى الحبشة فان بها ملكاً لايظلم عنده أحد ، فهاجر جمع منهم اليها وذلك في السنة الخامسة من البعثة . ثم تلتها هجرة أخرى.

وقد بعثت قريش بوفد الى النجاشي ليعيد إليهم المهاجرين أو يطردهم ، وحاولوا اغراءه بهم فاتهموهم بأنهم يطعنون بعيسى عليه السلام ولكن النجاشي رفض طلبهم وأحسن الى المسلمين — بعد أن تلا أحدهم سورة مريم أمامه . وبقي المسلمون في الحبشة الى أن عادوا مع جعفر ابن أبي طالب في السنة السابعة من الهجرة . وقد وصلوا والرسول في خيبر بعد اتمام فتحها فكان سروره مزدوجاً بوصول صحابته من الحبشة سالمين وبفتح خيبر .

جحود قريش وتهديدها :

اشتد القرشيون في مقاومتهم لدعوة الاسلام ، ومع ذلك فقد تزايد عددالمسلمين

وقوي جانبهم بدخول رجلين في الاسلام كان لهما وزنهما الثقيل في المجتمع القرشي ، وهما حمزة بن عبد المطلب وعمر ابن الخطاب ، بعد ذلك لجأوا إلى سياسة المقاطعة والتجويع فتعاهدوا فيما بينهم على مقاطعة بني هاشم وبني عبد المطلب وكل المسلمين اقتصادياً واجتماعياً . وعانى الجميع من هذا الحصار أشد أنواع التجويع والحرمان ولكن بعض النبلاء من القرشيين استنكروا هذه المقاطعة ، فعملوا على انهائها بعد أن استمرت ثلاث سنوات .

واستمر الرسول يدعو إلى ربه كل من يلقاه من أهل مكة وغيرهم فكانت دعوته تلقى تجاوباً ملموساً . وفي السنة العاشرة من البعثة أصيب بمصيبتين كبيرتين في آن واحد كان لهما أكبر الأثر على نفسه هما وفاة زوجته خديجة التي كانت تشد أزره وتواسيه . وبعد مضي أربعين يوماً على وفاتها مات عمه أبو طالب الذي كان يحميه ويناصره .

وتجرأت قريش على النبي ﷺ وصار سفهاؤهم يمدون اليه أيديهم بالأذى . وقد أفصح عن ذلك فقال : (ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب) .

ومع ما لحق به من أذى فكان يقول : « اللهم اهد قومي فانهم لا يعلمون».

ولما اشتد عليه الأذى من قومه في مكة ذهب الى الطائف فعرض الاسلام على اشرافها ودعاهم الى نصرته فلم يكتفوا بتكذيبه ورفضهم لنصرته بل أغروا به سفهاؤهم فقذفوه بالحجارة .

بيعة العقبة :

عاد الرسول من الطائف ودخل مكة في حماية المطعم بن عدي ، واستمر قومه في ايذائه والتضييق عليه وعلى أصحابه ، ولكنه لم يأبه لهم بل بقي راسخاً كالطود العظيم لا تزعزعه الشدائد ولا توهن من عزيمته المصائب ، بل تزيده تصميماً وإقداماً ، واستمر في دعوته . ثم خرج أيام الحج كعادته يدعو الحجاج الى الاسلام ، فالتقى
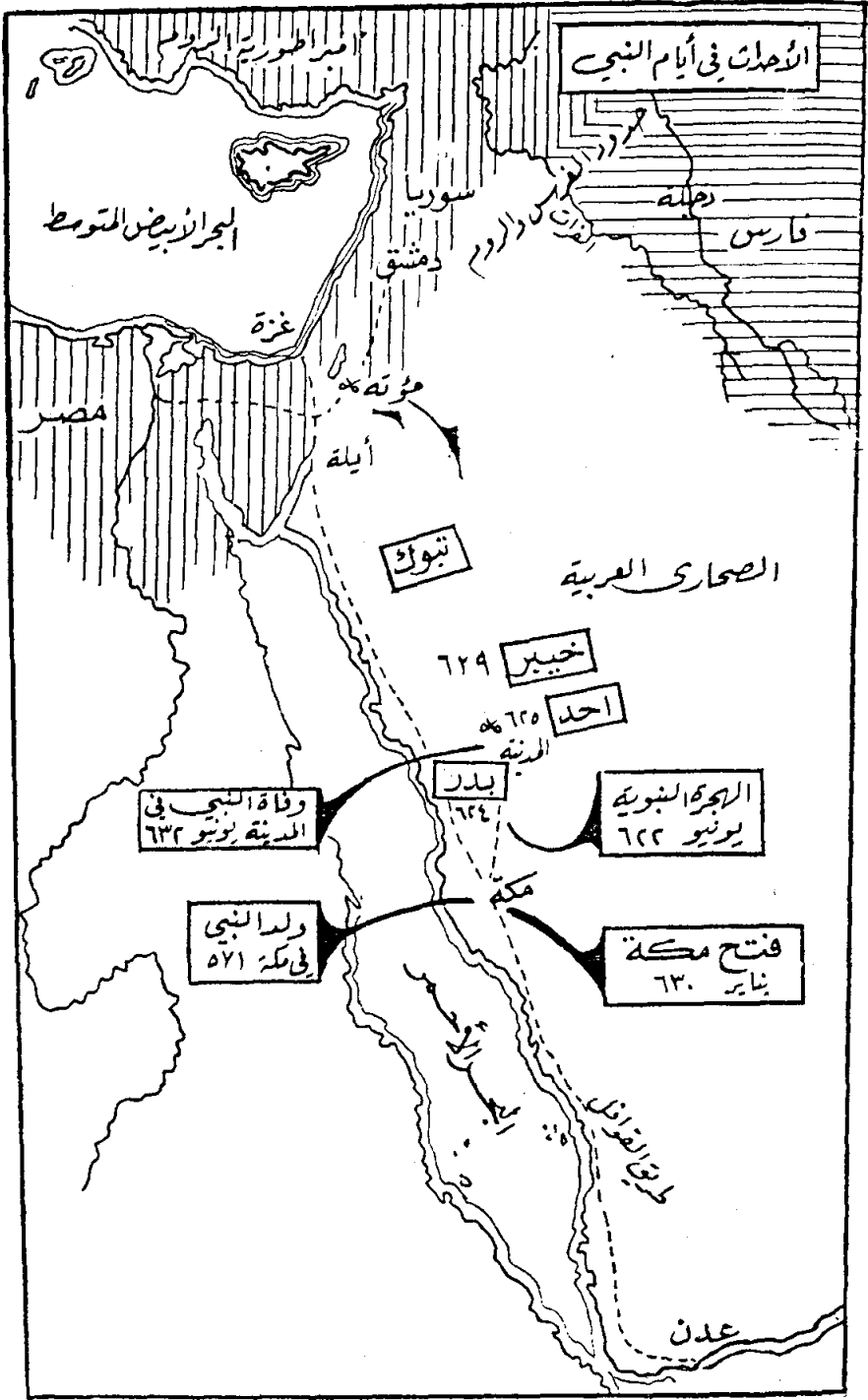
خريطة الاحداث في أيام النبي

بنفر من أهل المدينة المنورة ، من الأوس والخزرج . فآمنوا به وتعاهدوا معه على حمايته ان هو جاء الى المدينة . وكان ذلك في منى بمكان يقال له «العقبة».

انتداب مصعب بن عمير :

بعد أن بايعت الرسول صلى الله عليه وسلم جماعة من أهل يثرب بالعقبة سنة ٦٢١ م (بيعة العقبة الأولى) بعث معهم مصعب بن عمير ابن هاشم بن عبد مناف ليعلمهم الأسلام ويفقههم في الدين . وكان مصعب من خيرة الصحابة هاجر الى الحبشة في أول من هاجر اليها . ثم شهد بدرا .

بيعة العقبة الثانية :

وفي السنة التالية أى بعد بيعة العقبة الأولى جاء في موسم الحج خمسة وسبعون رجلا وامرأتان من الانصار وتجمعوا في الشعب عند العقبة حيث بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على أن يضمنوا له الأمن والحماية أذا هاجر اليهم الى المدينة . وتسمى هذه ــ بيعة العقبة الثانية سنة ٦٢٢ م .

الهجرة إلى المدينة المنورة :

بعد بيعة العقبة أمر الرسول ﷺ أصحابه بالهجرة إلى يثرب فهاجر الصحابة سراً إلا عمر بن الخطاب (ر) فأنه بعد أن طاف بالكعبة خرج علناً وهدد من يتبعه من المشركين.

وقررت قريش قتل النبي . فاجتمعت في دار الندوة واتفقوا على أن تشترك جميع قبائل قريش في قتله . فيختار من كل قبيلة شابٌ فيضرب محمد ضربة رجل واحد . فيتفرق دمه بين جميع القبائل فيعجز بنو هاشم عن المحاربة فيرضون بالديّة . ولكن الرسول أفسد عليهم هذه الخطة فقرر الهجرة الى يثرب ، وغادر مكة ومعه أبو بكر الصديق في الليلة التي اتفقت قريش على تنفيذ الجريمة فيها . وترك ابن عمه على ابن أبي طالب في فراشه .

وجدّت قريش في مطاردة النبي ﷺ وجعل زعماؤها مائة ناقة جائزة لمن يعيد إليهم محمداً حياً أو ميتاً ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل ، فقد تمكن وصاحبه من الافلات واتجها نحو يثرب بعد أن اختفيا في غار (ثور) جنوبي مكة حيث مكثا ثلاث ليال .

وبعد رحلة شاقة استمرت أحد عشر يوماً وصلا قرية قباء في ضواحي يثرب وفيها مكثا أربعة أيام حيث أقام خلالها النبي أول مسجد أسس في الاسلام .

وفي يوم الجمعة ١٧ ربيع الأول (سنة ٦٢٢)م خرج أهل يثرب للترحيب بالرسول العظيم ، فكان ذلك اليوم يوماً تاريخياً لم تشهد المدينة مثله . ونزل في دار (أبو أيوب الأنصاري).

ومنذ ذلك التاريخ أطلق على يثرب اسم (دار الهجرة) أو المدينة وأطلق على الذين هاجروا إليها اسم المهاجرين وعلى الأوس والخزرج الذين آووا ونصروا النبي اسم الأنصار.

بناء مسجد المدينة :

بعد أن وصل الرسول صلى الله عليه وسلم الى يثرب (المدينة) شرع ببناء المسجد وقد عاونه المسلمون — المهاجرون والانصار—في بنائه. وبعد أن تم البناء وضع الرسول قالبا من الحجر والطين ملاصقا للحائط الشمالي عين به القبلة الأولى وكانت بيت المقدس ، ولكنه أمر من ربه أن يولي وجهه شطر المسجد الحرام بمكة المكرمة وذلك بعد مقدمه للمدينة بثمانية عشر شهرا ومنذ ذلك الحين والكعبة المشرفة هي القبلة الثابتة لجميع المسلمين .

بناء الدولة الاسلامية

وكانت أولى المسائل التي اهتم بها النبي ﷺ بناء المجتمع الجديد على قواعد الاسلام ، وأول ما واجهه من مشاكل هو العداء المستحكم بين قبائل الأوس والخزرج الذي هو من مخلفات الوثنية المظلمة .. وقد تغلب على تلك المشكلة بحكمته ورجاحة عقله . ثم شرع في بناء المسجد لتظهر فيه شعائر الدين الجديد ، ويكون ملتقى لمختلف العناصر القبلية فتتآلف فيه قلوبها في ظل وحدة التوحيد .

وقد لجأ إلى وسيلة حكيمة اجتث بها جذور الفرقة والبغضاء التي كانت تذكيها الحروب القبلية الجاهلية فعقد مؤتمراً عاماً في المدينة آخى فيه بين المسلمين جميعاً . وبهذه المؤاخاة لم يعد أي وجود للشحناء في المجتمع الاسلامي ، وأصبح أول مجتمع مثالي في جزيرة العرب يسوده الهدوء والنظام وتسيطر عليه روح الاخاء والمحبة والتسامح .

وفي الوقت الذي تم فيه التآخي بين المسلمين منح يهود المدينة كافة الحقوق ، وتعهدوا له بالاشتراك مع المسلمين في الدفاع عن المدينة ضد أي عدوان خارجي ، ولكن اليهود نقضوا العهد ..

مجلس استشاري

قبيل موقعة بدر الكبرى عقد الرسول صلى الله عليه وسلم مجلسا أستشاريا من كبار الصحابة لبحث الامور المستجدة ووضع الخطة الفعالة لمجابهة قريش فسألهم الرأى ليطمئن الى حسن استعدادهم ، فتكلموا وقالوا : أمض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحق لوسرت بنا هذا البحر لخضناه معك ولو سرت الى برك الغماد (موضع باليمن) ما تخلف عنك رجل واحد .

تلك كانت حكمة الرسول السامية في تصريف الأمور على أساس الشورى التي جعلها قاعدة من القواعد الاساسية لنظام الحكم العادل الديموقراطي الذى قامت عليه الدولة الاسلامية في جزيرة العرب .

غزوة بدر الكبرى

(سنة ٢ هـ – ٦٢٤ م)

كان القتال قبل الهجرة غير مأذون به للمسلمين ثم نزل به الاذن في آيات منها قوله تعالى «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله». (٣٩ ، ٤٠ الحج).

قبل معركة بدر الكبرى بحوالي تسعة عشر شهراً لم يحدث أي عِراك دموي بين المسلمين والمشركين سوى الحادثة التي استولت فيها سرية عبدالله بن جحش على قافلة لقريش بين مكة والطائف وقتلت منهم رجلاً كان أول قتيل من المشركين .

وفي مكان يقال له بدر يقع على بعد ١٦٠ ميلا جنوب غرب المدينة المنورة كان بمثابة محطة رئيسية لقوافل قريش المتنقلة بين مكة والشام نشبت معركة بين المسلمين وقريش في السنة الثانية من الهجرة وسببها أن المسلمين خرجوا للاستيلاء على قافلة تجارية لقريش التي استولت على أموالهم وصادرتها في مكة .

أفلتت القافلة من المسلمين والتقوا بدلاً منها بألف مقاتل من المشركين فاضطروا الى الاشتباك معهم في بدر وذلك ما عناه الله تعالى بقوله «واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . (الانفال ٧) وقد كتب الله النصر للمسلمين في هذه المعركة رغم قلة عددهم بعد أن قتلوا سبعين من المشركين وأسروا أعداداً كبيرة . وقد أطلق الرسول سراح بعضهم دون مقابل ، وبعضهم دفع عن نفسه الفدية ، والبعض الآخر أطلق سراحهم مقابل أن يعلم كل واحد منهم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة .

أما الغنائم فقد جرى توزيعها حسب الآية الكريمة : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولـذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » (الأنفال ٤١) .

معاملة الأسرى :

لقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بمعاملة الاسرى معاملة حسنة قوامها الرأفة والرحمة وعدم التنكيل والتمثيل بهم . كما أوصى بأن يعفى عمن لا يقدر على أداء الفدية منهم . وهذا مبدأ في الحقوق الانسانية والمعاملات الدولية التي وضع أصولها التشريع الاسلامي الذى اوجب حسن المعاملة والرفق والعطف بالأسرى .

غزوة أحد

(سنة ٣ هـ — ٦٢٥ م)

بعد الهزيمة الساحقة التي أنزلها المسلمون بقريش في معركة بدر قرر قادتها أن يغسلوا عار تلك الهزيمة ويثأروا لقتلاهم في بدر . ففي السنة الثالثة للهجرة جهزوا جيشا قوامه ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة أبي سفيان صخر بن حرب لمهاجمة المسلمين في يثرب وكانت قوات المسلمين تقدر بسبعمائة مقاتل .

وصل جيش قريش فعسكر بالقرب من جبل أحد الواقع شمالي المدينة ، وكان المسلمون قد خرجوا من المدينة وعسكروا في موقع فم الشعب وجعلوا جبل أحد وراء ظهورهم . ودارت المعركة فكان النصر للمسلمين في المرحلة الأولى ولكنهم أصيبوا بنكبة حولت نصرهم الى هزيمة فقدوا فيها سبعين شهيداً بينهم حمزة ابن عبد المطلب ، كما جرح الرسول ﷺ وأشيع أنه قتل ، وكان سبب الهزيمة خروج الرماة على أوامر الرسول بتركهم أماكنهم في الجبل الذي وضعهم فيه لحماية مؤخرة الجيش . فقد اغتنم قائد سلاح فرسان قريش فرصة انسحاب الرماة من مواقعهم فكر على المسلمين من الخلف وأوقع الاضطراب والفوضى في صفوفهم حتى تمزقت ، وقد اكتفت قريش بما حدث فعاد جيشها الى مكة بعد أن خسر أربعة وعشرين قتيلاً . وفي معركة أحد كشف الله المنافقين حيث تمرد منهم ثلاثمائة تركوا صفوف الجيش والنبي في منتصف الطريق إلى أحد . وقد كانت الانتكاسة درساً وعاه المسلمون في الانضباط العسكري والتقيد بأوامر الرسول القائد .

غزوة الاحزاب

(سنة ٤ هـ – ٦٢٦ م)

دبر يهود بني النضير مؤامرة لاغتيال الرسول . فأمر بمحاصرتهم . وحين عجزوا عن مقاومة المسلمين طلبوا من الرسول أن يجليهم من ارضهم ويحقن دماءهم ويعفو عنهم .

لم يكد يستقر المقام لهؤلاء اليهود في خيبر حتى اتفقوا مع زعماء قريش لمهاجمة المدينة والقضاء على المسلمين فيها . ولتحقيق مخططهم جمعوا مع قريش عشرة آلاف مقاتل من القبائل الوثنية في نجد والحجاز . وقد بلغ النبي ﷺ أنباء هذا الحشد فجمع أعوانه وحفروا خندقاً شمالي المدينة كخط دفاع حسب مشورة سلمان الفارسي (ر). وهاجمت جيوش قريش وحلفائها المدينة وانضم اليها يهود بني قريظة الموجودين داخل المدينة بعد أن نقضوا العهد الذي بينهم وبين المسلمين .

شدد الغزاة الخناق على المسلمين والحصار على المدينة الصامدة كالطود . واستمر ذلك حوالي شهرين . ثم أرسل الله عليهم ريحاً شديدة ففكوا حصارهم عن المدينة دون أن يحققوا شيئاً من الأهداف التي جاءوا من أجلها . وكان فشل الاحزاب في احتلال المدينة الاسلامية أكبر اندحار عسكري للمشركين واليهود وأعظم انتصار يحققه المسلمون في العهد النبوي الأمر الذي أدى إلى رفع سمعتهم في جزيرة العرب .

غزوة بني قريظة :

تعتبر غزوة بني قريظة امتداداً لغزوة الأحزاب التي ارتكب فيها اليهود جريمة الخيانة العظمى التي تمثلت بنقضهم للمعاهدة التي التزموا بموجبها بالإسهام مع المسلمين في الدفاع عن المدينة .

ان يهود بني قريظة لم ينفذوا التزاماتهم . وبدلا من الوقوف الى جانب المسلمين

ضد الغزاة المعتدين فقد نقضوا العهد والمعاهدة وانضموا الى جيوش الاحزاب التي احاطت بالمدينة وفشلت في اقتحامها .

وبعد أن هزم الاحزاب ورجعوا خائبين تحرك الجيش الاسلامي نحو معاقل بني قريظة لتصفية الحساب مع هؤلاء اليهود الذين تآمروا وخانوا العهد . وقد حاصرهم الجيش وشدد عليهم الحصار حتى انهارت قواهم واستسلموا .

وفوض الرسول صلى الله عليه وسلم الى سيد الأوس سعد بن معاذ أمر محاكمة اليهود فحكم على الرجال بالإعدام جزاء غدرهم وخيانتهم . وبذلك بتر الداء وطهرت المدينة من يهود بني قريظة .

غزوات ثلاث :

خلال العام الرابع الهجرى خرج الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة في ثلاث غزوات الأولى غزوة ذات الرقاع والثانية غزوة بدر الآخرة والثالثة غزوة دومة الجندل .

فالأولى قيل لها غزوة ذات الرقاع لأنهم رقعوا فيها راياتهم ، وقيل ان الارض التي نزلوا فيها بنجد ذات بقع سود وبقع بيض ولذلك سميت ذات الرقاع ، وقيل ايضا ان الحجارة اوهنت اقدامهم فشدوا عليها رقاعا . فقيل لها ذات الرقاع . في ذلك المكان من أرض غطفان تقارب الناس ولم يكن بينهم حرب ، وقد خاف بعضهم بعضا فصلى رسول الله بالناس صلاة الخوف . ثم انصرف بهم عائدا الى المدينة .

وفي شهر شعبان خرج الرسول صلى الله عليه وسلم الى بدر لميعاد ابي سفيان. وقد أقام رسول الله على بدر ثماني ليال ينتظر أبا سفيان الذى خرج مع رجاله من مكة حتى بلغ مجنة ثم قفل راجعا . فقال الرسول : يا معشر قريش ، انه لا يصلحكم الا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن ، وان عامكم هذا عام جدب ، واني راجع ، فارجعوا فرجع الناس . وقد سميت هذه بغزوة بدر الثانية .

وبعد أن عاد رسول الله الى المدينة أقام بها أشهرا حتى مضى ذو الحجة ثم غزا دومة الجندل من اعمال المدينة ولكن لم يصل اليها ، ولم يلق كيدا ، فرجع وأقام بقية العام بالمدينة .

صلح الحديبية .

بعد انتصار المسلمين على الأحزاب بادر النبي ﷺ الى تعميق جذور الدعوة وترسيخ قواعد الدولة الجديدة . وفي السنة السادسة للهجرة أمر أصحابه بالتهيؤ للعمرة فخرج ومعه ألف وأربعمائة من المسلمين . وبالرغم من أنه لم يخرج للحرب فقد اعترض القرشيون سبيله ، فعسكر بأصحابه وهم بلباس الاحرام في الحديبية على مقربة من مكة . ثم جرت المفاوضة بينه وبين القرشيين الذين طلبوا في النهاية عقد صلح بينهم وبين المسلمين فأجابهم الى ذلك ، وكان من أهم بنود الاتفاق ما يلي :

١) على المسلمين أن يرجعوا ولا يدخلوا مكة ذلك العام .

٢) من حق المسلمين أن يدخلوا مكة معتمرين في عامهم القادم ويقيمون فيها ثلاثة أيام .

٣) على المسلمين عند دخولهم الى مكة ألا يحملوا من السلاح الا السيوف في أغمادها .

٤) انهاء حالة الحرب بين المسلمين وقريش لمدة عشر سنوات .

٥) يلتزم الرسول بأن يعيد إلى قريش من أبنائهم من جاء إليه بغير اذن وليه ، وليس على قريش أن تعيد من جاء اليها من المسلمين .

٦) تعطى الحرية المطلقة للقبائل المجاورة لقريش لتنضم الى أي الفريقين شاءت على أن تكون في عهد الفريق الذي تنضم اليه وتطبق عليها أحكام والتزامات هذا الصلح .

مكاسب الصلح :

وقد كان صلح الحديبية نصراً عظيماً للرسول ودعوته . وخلاصة مكاسبه هي :

أ) اتاحة الفرصة للمسلمين والمشركين بأن يختلط بعضهم ببعض في حرية وأمان ، الأمر الذي جعل القرشيين يتفهمون حقيقة الاسلام فيدخلون فيه عن فهم واقتناع .

ب) أوقف مقاومة قريش فساعد ذلك المسلمين على التفرغ لوضع حد لشغب اليهود في خيبر ووادي القرى وفدك وتيماء .

ج) تفرغ الرسول ﷺ لنشر الدعوة على نطاق واسع وأوفد رسله الى ملوك وأمراء الشرق يدعوهم الى الاسلام .

د) فر كثير من شباب قريش المسلمين من مكة وأرادوا الاقامة في المدينة ، فلم يسمح لهم النبي ﷺ بذلك وفاء بالعهد الذي أعطاه لقريش في الحديبية ، فقطعوا الطريق بين مكة والشام ، وصاروا يهاجمون قوافل قريش التجارية . فلجأت قريش الى النبي وأبلغته تنازلها عن الشرط المتعلق بعدم ايوائه من يريد من أهل مكة لتأمن على تجارتها فوافق على طلبها .

الرسول يدعو الملوك إلى الإسلام :

أثناء الهدنة بين المسلمين وقريش دعا النبي ﷺ الملوك والرؤساء إلى الاسلام وفي مقدمتهم : هرقل امبراطور الروم ، وكسرى ملك الفرس . والمقوقس عامل الرومان على مصر ، وباذان نائب كسرى على اليمن . فبعث كل من هؤلاء رسولا خاصا بكتاب منه ، وقد كان رد الفعل لدى هؤلاء مختلفا فبينما غضب كسرى ومزق رسالة النبي قبل أن يقرأها ، تفهم هرقل الرسالة وأكرم حاملها وأيضاً المقوقس أجاب اجابة حسنة ، أما باذان فقد اعتنق الاسلام ومن معه من الفرس في اليمن .

فتح خيبر

(سنة ٨ هـ ـ ٦٢٩ م)

كان أول عمل قام به النبي ﷺ بعد صلح الحديبية هو وضع حد لشغب اليهود ودسائسهم وانهاء سيطرتهم على منطقة خيبر التي اتخذوها مركزاً للحركات ضد المسلمين . مع العلم أنهم كانوا وراء غزوة الأحزاب التي خططوا لها مع قريش واشتركوا في تنفيذها للقضاء على الدعوة الاسلامية وتصفية أنصارها . وقد تمت السيطرة للمسلمين على خيبر بعد قتال شديد استمر شهرين ، وبسقوطها استسلمت باقي جيوب المقاومة اليهودية في فدك ووادي القرى وتيماء . وبذلك تم نهائياً القضاء على الوجود اليهودي وخطره .

عمرة القضاء :

بعد عودته من خيبر خرج الرسول في ذى القعدة من السنة السابعة يصحبه المسلمون واتجه بهم الى مكة وهم في ملابس الاحرام . ولما عامت قريش بمقدم الرسول نفذت الشروط الواردة في معاهدة الحديبية، فانسحبت خارج مكة . ودخل رسول الله والمسلمون وطافوا بالحرم وهم يرددون : (لا اله الا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الاحر ب وحده) . وفي اليوم الرابع أمر الرسول رجاله المؤمنين بالانصراف ورجعوا معه الى المدينة بعد أن أقاموا بمكة ثلاثة أيام .

غزوة مؤتة :

بعث الرسول صلى الله عليه وسلم رسالة الى الحارث بن ابي شمر حاكم الشام يدعوه فيها الى الاسلام ، فرفض الدعوة وقتل رجاله مبعوث النبي . وعلى أثر ذلك جهز الرسول الكريم حملة عسكرية بقيادة زيد بن حارثة ، وقال : ان أصيب زيد فالقائد جعفر بن ابي طالب ، وان اصيب جعفر فالقائد عبدالله بن رواحة ، ثم

ترك أمر القيادة بعد ذلك شورى بين المسلمين . وفي جمادى الاولى من السنة الثامنة الهجرية تحرك الجيش الى البلقاء حيث التقى عند قرية مؤتة جنوب البحر الميت بقوات الروم المؤلفة من عدة فيالق واشتبك معها في معركة حامية الوطيس استبسل فيها الجيش الاسلامي وقاتل ببطولة . وقد استشهد في المعركة القائد الشجاع زيد ابن حارثة ، وقبل أن تسقط الراية من يده على الارض تلقاها جعفر بن ابي طالب وظل يقاتل العدو بشجاعة منقطعة النظير حتّى قتل شهيدا ، فتقدم عبدالله بن رواحة وأخذ الراية وقاتل حتّى استشهد . وعلى الفور اختار المسلمون البطل خالد بن الوليد فنظم جيشه ، وفي الصباح انتهز فرصة انسحاب الروم ليعدوا هجوما جديدا فرجع الى المدينة مع قواته . ويعتبر انسحاب خالد الذى تم بانتظام عملا رائعا من الناحية العسكرية والسيكولوجية . فقد حافظ بانسحابه على أرواح الرجال ومكانة الجيش أمام جحافل الروم التي كان تعدادها عشرات أضعاف الجيش الاسلامي .

فتح مكة

(سنة ٨ هـ – ٦٣٠ م)

اعتدى بنو بكر حلفاء قريش على خزاعة حلفاء النبي ﷺ فاعتبر النبي مساعدة قريش لبني بكر بالسلاح والرجال نقضاً صريحاً لصلح الحديبية ، فقرر الزحف على مكة لأنهاء الوجود الوثني فيها .

وقد أمر الرسول ﷺ بالتعبئة العامة بين المسلمين فاجتمع لديه عشرة آلاف مقاتل خرج بهم من المدينة في شهر رمضان السنة الثامنة للهجرة ، وكان قد التزم الكتمان في زحفه حتّى أن المسلمين لم يعلموا أنه يقصد مكة .

وكان أبو سفيان قد جاء إلى المدينة بغية تجديد الصلح ولكنه فشل فعاد إلى مكة .. وعندما وصل الجيش الاسلامي إلى ضواحيها خرج أبو سفيان يلتقط الأخبار فالتقى به العباس بن عبد المطلب فذهب به إلى الرسول فأعطاه الأمان ، ثم أسلم .
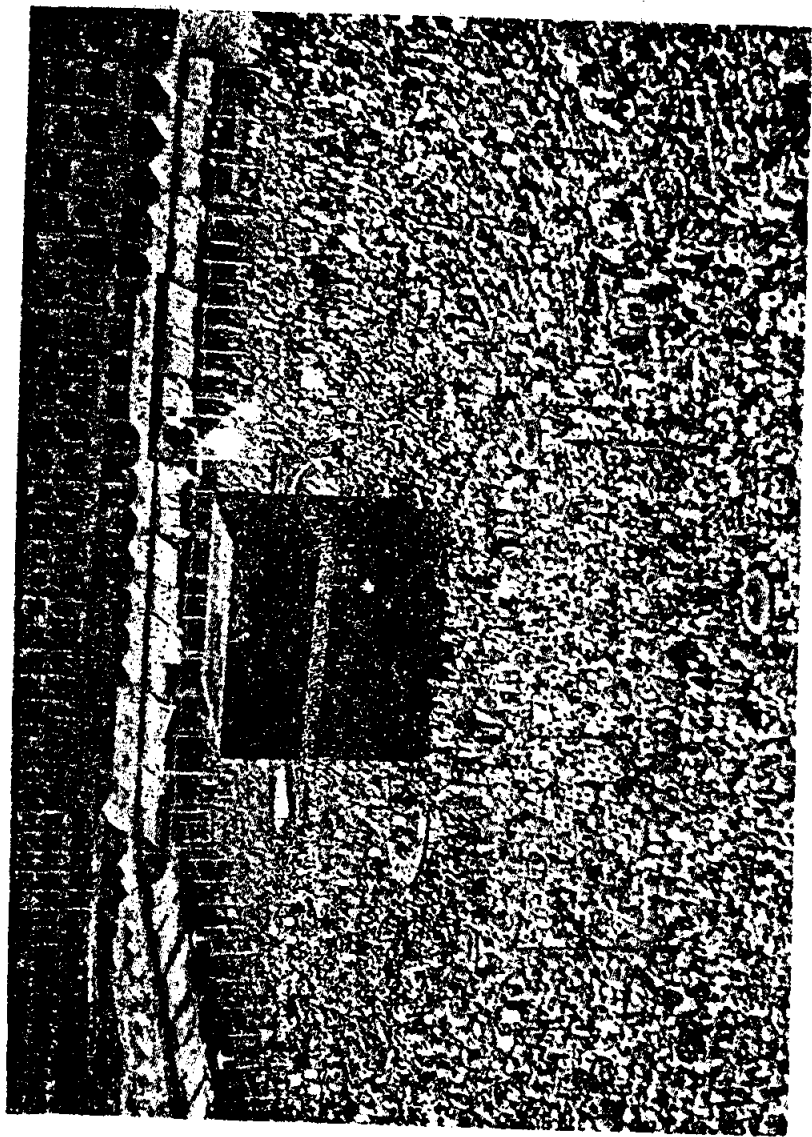
قبلة الاسلام الاولى وكعبتهم المشرفة

ودخل المسلمون مكة من جهاتها الأربع ، ولم يحدث عند فتحها الا بعض المناوشات في الناحية التي دخلها خالد بن الوليد حيث اعترضه بعض المشركين فاضطر لقتالهم .

وعند دخول مكة أعلن الرسول ﷺ : من دخل الحرم فهو آمن ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن حتى تمت السيطرة للمسلمين عليها .

تحطيم الأصنام :

بعد أن طاف الرسول بالكعبة سبعاً وخلفه أصحابه أمر بتحطيم جميع الأصنام وهو يقول (وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً) « الاسراء ٨١ » ، ثم أذن بلال على سطح الكعبة ، وصلى المسلمون وخطب النبي ﷺ خطبة تجلى فيها التسامح في أعلى مظاهره فقال : (لا إله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده) ، ثم خاطب قريشاً قائلاً : (يا معشر قريش ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعاظمها بالآباء . الناس من آدم وآدم من تراب (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم) « الحجرات ١٣ » . يا معشر قريش ما تظنون أني فاعل بكم قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم قال : (اذهبوا فأنتم الطلقاء) .

غزوة حنين

(سنة ٨ هـ — ٦٣٠ م)

علمت قبائل هوازن باستيلاء المسلمين على مكة ، فساءها ذلك وقرر زعيمها مالك بن عوف النضري أن يزحف على المسلمين لاخراجهم من مكة ، وبلغ النبي ﷺ ذلك فخرج في اثني عشر ألفاً من المسلمين . وفي وادي حنين — بين

مكة والطائف – التقى بقبائل هوازن البالغ عدد رجالها آلاف المقاتلين . وفي بداية تلك الغزوة كادت قبائل هوازن ان تهزم المسلمين لولا شجاعة الرسول صلى‌الله عليه وسلم وثباته البطولي الفائق ، وبذلك تم النصر للمسلمين .

ومع طلوع الفجر انقض المسلمون بقوة وايمان لا يغلب ، على هوازن وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة مزقتهم شر ممزق ، وغنموا في هذه المعركة ما لم يغنموا مثله في أية معركة حدثت في العهد النبوي .

عام الوفود :

اطلق عليه اسم عام الوفود وكان ذلك في العام التاسع الهجرى وفيه جاء ت وفود العرب من انحاء الجزيرة تعلن الطاعة والولاء لرسول الله واعتناق الاسلام . قال تعالى (اذا جاء نصر الله والفتح . ورايت الناس يدخلون في دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره انه كان توابا .

حجة الوداع :

مما قال جابر [1] في وصفه لحجة الوداع .. ان الرسول صلى الله عليه وسلم قصد مكة حاجاً في السنة العاشرة فخرجنا معه من المدينة حتى أتينا ذا الحليفة .. إلى أن قال : ثم ركب القصواء [2] حتى اذا استوت ناقته على البيداء نظرت إلى مد بصري بين يديه من راكب وماش وعن يمينه مثل ذلك وعن يساره مثل ذلك ومن خلفه مثل ذلك .. إلى أن قال : حتى إذا زاغت الشمس خطب في الناس ومما قال : ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا . كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع .

---

١) صحيح مسلم – الجزء الرابع .

١) الرسول صلى الله عليه وسلم ركب ناقته واسمها القصواء .

فاتقوا الله في النساء فانكم أخذتموهن بأمان الله . إلى أن قال : ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ان اعتصمتم به كتاب الله .

ولقد ذكر ان عدد الذين حجوا مع رسول الله في ذلك العام مائة ألف . وفي حجة الوداع نزل على النبي آية من القرآن الكريم : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام ديناً . » ولقد قيل ان هذه الآية دلت على انقطاع الوحي وان الرسول صلى الله عليه وسلم سوف يلتحق بالرفيق الأعلى . وبعد حجة الوداع بثلاثة أشهر مرض بالحمى ، ولما اشتد به المرض أمر أبا بكر أن يصلي بالناس ، ولما بلغه أن الأنصار يبكون خرج إلى المسجد معصوب الرأس متكئاً على علي بن أبي طالب حتى جلس على أسفل مرقاة من المنبر وخطب فقال : (أيها الناس بلغني أنكم تخافون من موت نبيكم هل خلد نبي قبلي ممن بعثه الله ؟ فأخلد فيكم ، ألا اني لاحق بربي ، وإنكم لاحقون بي ، فأوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً ، وأوصي المهاجرين فيما بينهم بخير فان الله يقول : والعصر ، ان الانسان لفي خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر . وأوصيكم بالأنصار خيراً فانهم تبوءوا الدار والإيمان من قبلكم أن تحسنوا اليهم) .

وفاة الرسول :

لما اشتد المرض عليه ﷺ لم يخرج من البيت حتى لقي ربه وذلك ضحى يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة (الموافق ٨ حزيران — يونيه عام ٦٣٢م) فحزن المسلمون حزناً عظيماً لهذا الخبر المؤلم ، ومنهم من مرض وبعضهم أنكر وفاته مثل عمر بن الخطاب الذي شهر سيفه قائلاً : من قال أن محمداً قد مات قطعت رأسه بسيفي هذا . وكان عمر يرى ان الرسول لم يمت — بل يرى أنه وعد مثلما وعد موسى وسوف يرجع (قال تعالي : وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة ، وقال موسى لأخيه

هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين) « ١٤٢ — الأعراف » .

عندما سمع أبو بكر الصديق ما قاله عمر بن الخطاب ورأى ما آل اليه أمر المسلمين وقف فيهم خطيباً وقال (أيها الناس ، من كان يعبد محمداً ، فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ثم تلا الآية : « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل إفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين » .

وفي ليلة الأربعاء في اليوم الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ١١هـ دفن عليه الصلاة والسلام في مكان فراشه في بيت عائشة (ر) ..

مزاياه وصفاته

اذا أردنا هنا أن نعد ونحصى مزايا الرسول ﷺ وصفاته وأفعاله الحميدة فلن نتمكن ، ولن نستطيع أن نزفيه حقه فمزاياه كلها حسنة ، وأفعاله كلها رشيدة ، وصفاته في غاية الكمال والجمال . وكفاه فخراً أن امتدحه الرب جل جلاله في كتابه . فقال تبارك وتعالى : « وانك لعلى خلق عظيم » وقال تعالى « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . » ١٢٨ التوبة ، وقال تعالى « يا أيها النبي انا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله باذنه وسراجاً منيراً . » — ٤٥,٤٦ الأحزاب . وقوله تعالى في سورة النجم : والنجم اذا هوى • ماضل صاحبكم وماغوى • وما ينطق عن الهوى • إن هو إلا وحي يوحى .

لقد لاقى رسول الله في سبيل دعوته من العنت والأذى والمشقة والضرر ما ينوء عن حمله أشداء الرجال وعظماؤهم. وبالرغم من ذلك استمر يدعو إلى الله دون ضعف أو كلل . ودون تعبٍ أو ملل . وقد صبر وتحمل فوق ما يحمل البشر ، وماذا كان يقول عندما يلحقه الأذى من كفار قريش ؟ كان يدعو لهم فيقول : اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون .

وكان الرسول أذكى الناس وأصدقهم لهجة . عرف بالعدل والشجاعة والبلاغة والحكمة . وقد اتصف بالتواضع والصبر والثبات ورجاحة العقل ورحابة الصدر والتسامح. وكان يعود المساكين ويجالس الفقراء ويحث على مكارم الأخلاق وعمل الخير . ورفع شأن الفضيلة . وبنى المجتمع الاسلامي على أسس متينة .

مآثر الاسلام :

كان للاسلام أثره العظيم في نهضة العرب . فأوجد لهم كياناً ونظاماً شمل جميع نواحي الحياة . وهذه هي بعض مآثره :

١ — قضى على الوثنية وحول الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

٢ — أنقذ العرب من براثن الجهل الذي كان متفشياً في أوساطهم فتفتحت عيونهم إلى النور وتحرروا من الخرافات .

٣ — قضى على العادات الضارة وفسادها : (السلب والنهب وشرب الخمر والربا والزنا الخ ..) وأعاد إلى المرأة كرامتها وحقوقها في المجتمع .

٤ — أزال الفوارق بين الأجناس . ونهى عن التواكل والتخاذل . وحث على الانفاق في أوجه البر والخير .

٥ — امر الصغير بأن يحترم الكبير . وأمر كل فرد باطاعة رئيسه ما لم يأمر بمعصية الله . كما أمر ببر الوالدين . وأوصى بالجار . وحث على مكارم الأخلاق .

٦ — وحد العرب وجمع شملهم وكون لهم ذاتية ومجتمعاً له نظامه المستمد من القرآن الكريم .

لقد جاء الاسلام دين الهدى والحق للناس كافة . جاء برسالة تجمع الشعوب في أمة واحدة لا تعرف شعوبية ولا اقليمية . رابطتها العقيدة الدينية والايمان الراسخ والاخوة الصادقة .

أركان الاسلام

اركان الاسلام خمسة هي :

١ ـ **الشهادة** : يؤديها المسلم بإيمان فيقول : أشهد أن لا الله الا الله واشهد محمدا رسول الله ، وهذا الركن العظيم ينفي جميع ما يعبد من دون الله ويثبت بادة له وحده سبحانه وتعالى كما يقر لمحمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة .

٢ ـ **الصلاة** : هي عماد الدين ، تنهى عن الفحشاء والمنكر والمسلم يؤديها ى أنها عبادة ويجب عليه أن يكون في حالة الطهارة وأن يخلص قلبه لله ويستلهم نه الرشد والصواب ، فيفتتحها المصلي بالتكبير ، الله اكبر ثم يقرأ سورة الفاتحة يتلو بعدها ما تيسر من القرآن وفي ركوعه وسجوده يسبح الله ويذكر عظمته تبارك وتعالى .. وعلى المسلم أن يؤدى الصلاة باتجاه القبلة موليا وجهه شطر لبيت العتيق بمكة المكرمة وذلك خمس مرات في اليوم : الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء .

٣ ـ **الزكاة** : أوجبها الاسلام في تشريعه الاجتماعي والاقتصادى . والزكاة تعتبر عملا اصلاحيا يقضي على الشح ويقوى في الناس الرحمة والرأفة والاخاء . وهذا ما يهدف اليه الاسلام في فرض الزكاة لأسداء الخير والاحسان للفقراء والمعوزين ، وقد جعل الاسلام للفقراء حقا في أموال الاغنياء .

٤ ـ **الصوم** : (صوم رمضان) يتحتم في هذا الشهر من كل عام الامتناع عن الطعام وخلافه من الفجر حتى غروب الشمس ويرخص للمسافر والمريض والمجاهد والنفساء والحائض وكبير السن الذى لا يقدرعلى الصوم رجلا كان أو مرأة ويجب على هؤلاء القضاء ـ أى صيام ما فاتهم من أيام رمضان فيما بعد ، ما المسن الذى لا يقدر على الصوم فتجب عليه الفدية .

والصوم عميق في معانية الانسانية والاخوية ، فيذكر الانسان بأخيه الانسان الذى يتحكم فيه الجوع والعطش . وفي الصوم الذى فرضه الاسلام حكمة ، ومنه

تلد مشاعر الرأفة والرحمة بالفقراء والجياع . وهو يعلم الصبر وقوة الارادة ويخلع عن الانسان رداء الطغيان والغرور .

٥ ـ **الحج** : فرض على كل فرد من المسلمين أن يحج الى بيت الله الحرام مرة واحدة في العمر اذا استطاع الى ذلك سبيلا . ومن انحاء المعمورة في المشارق والمغارب يأتي المسلمون لتأدية فريضة الحج الذى فيه تجرد المظاهرة والمكابرة والاستعلاء ويتساوى الجميع حين تضمهم المشاعر في رداء واحد . ومن فوائد الحج أنه وسيلة لتعارف المسلمين وتعاونهم في دينهم ودنياهم .

الجهاد في الاسلام

ينبثق من العقيدة، قوامه بذل الجهد في سبيل دين الله وأعلاء كلمته سواء أكان ذلك الجهد علما أو مالا أو قوة أو غير ذلك . قال تعالى : يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب اليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . (سورة الصف ١٠ ـ ١١) .

وقد حث كتاب الله الكريم على مقاتلة المعتدين ومكافحة الظالمين ، قال تعا « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . » (سو البقرة ١٩٠) .

أجل لقد أقر القتال وهدف الاسلام من القتال هو الدفاع عن العقيد والحرية والوطن ومنع الفتنة واضطهاد الناس ، ذلك هو حكم الجهاد واهدا النبيلة السامية .

الفصل الثالث

الفتوح في عهد الخلفاء الراشدين

قيام الخلافة :

لم يعهد الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بالخلافة لأحد بل ترك الأمر شورى بين المسلمين . وبعد وفاته كان لا بد من اختيار خليفة يتولى شؤون المسلمين ودولتهم الناشئة . وقد حصل في بادىء الأمر خلاف بين المهاجرين والأنصار . فادعى المهاجرون المكيون أنهم أولى الناس بالخلافة لانتسابهم إلى قبيلة النبي ﷺ ولكونهم أول من صدق بدعوته ، ومن جهة أخرى ادعى الأنصار المدنيون أنهم أحق بالخلافة لأنهم قاموا بنصرة الرسول وحمايته ، ورشحوا من جماعتهم سعد بن عبادة سيد الخزرج للخلافة . وأسرع كل من أبي بكر وعمر ابن الخطاب إلى مكان الاجتماع في سقيفة بني ساعدة حيث دارت مناقشات انتهت بمبايعة أبي بكر . وسميت تلك البيعة بالبيعة الخاصة ، وأما البيعة العامة فكانت في المسجد في اليوم التالي حيث بايعه عامة الناس .

أبو بكر الصديق

هو عبدالله أبو بكر بن عثمان الذي عرف باسم أبي قحافة ، يجتمع نسبه مع نسب الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ستة آباء لقب بالصديق لأنه كان

يبادر في تصديق الرسول في كل ما يقول . وهو أول من أسلم من الرجال ، وخديجة (ر) أول من أسلم من النساء . وعلي (ر) أول من أسلم من الصبيان .

وكان أبو بكر صديقاً للرسول . ورفيقه في الجهاد لنشر الدعوة الاسلامية التي أنفق في سبيلها ما كان يملكه . وعندما ولي الخلافة خطب بالمسلمين فقال : أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم . فإن أحسنت فأعينوني . وان أسأت فقوموني .. الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له . والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه . —

حملة أسامة إلى البلقاء :

أرسل أبو بكر الصديق جيشاً قوامه خمسة آلاف مقاتل بقيادة أسامة ابن زيد لمحاربة الروم . وكان هذا الجيش قد عقد لواءه الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته لتأديب الغساسنة الذين قتلوا والد أسامة زيد بن حارثة . وسار الجيش إلى بلاد الشام واشتبك مع الروم في معارك دارت رحاها بالبلقـــاء قرب مؤتة فانتصر عليها وعاد بغنائم ثمينة بعد أربعين يوماً . وكان ذلك الانتصار فاتحة خير وتمهيداً للفتوحات الكبرى .

حروب الردة :

قاوم أبو بكر الصديق حركة المرتدين والمتنبئين والقبائل التي رفضت دفع الزكاة بحزم . فأرسل جيوشاً إلى المرتدين في اليمامة والبحرين وعمان واليمن ، فقضت على حركتهم وزعمائها أمثال مسيلمة الكذاب في اليمامة الذي كان استفحل خطره بعد أن تزوج بامرأة من بني تميم اسمها سجاج ادعت النبوة كزوجها . وكان من أشهر قادة المسلمين في حروب الردة خالد بن الوليد ، وعكرمة ابن أبي جهل ، وعمرو بن العاص . ومن بين الذين استشهدوا أربعة من البواسل الذين اشتركوا في غزوة بدر الكبرى وهم : عمار ابن ياسر ، أبو حذيفة

ابن عتبة ، سالم بن سالم ، وعبدالله بن سهل .

وبذلك تم القضاء على المرتدين وأعيدت الوحدة إلى الجزيرة العربية تحت لواء الاسلام .

فتح الحيرة والأنبار :

جهز الخليفةأبو بكر الصديق جيشاً بقيادة خالد بن الوليد وجعل تحت امرته المثنى بن حارثة الشيباني شيخ قبيلة بكر للاستيلاء على الحيرة والانبار – (سنة ١٢هـ) وبعد عدة معارك انتصر الجيش الاسلامي على الفرس واستولى على الحيرة وشاطىء الفرات الغربي وبادية الشام وعلى عدة مدن في العراق . ثم ترك القيادة خالد إلى المثنى بن حارثة وتوجه بناءً على أمر من الخليفة أبو بكر إلى الشام لنجدة المسلمين .

فتح الشام :

أرسل أبو بكر لفتحها أربعة جيوش تحت قيادة كل من أبي عبيدة عامر ابن الجراح وجعل وجهته حمص ، وشرحبيل بن حسنة وجعل وجهته الأردن ، عمرو بن العاص وجعل وجهته فلسطين ، ويزيد بن أبي سفيان ووجهته دمشق . وكانت مجموع تلك الجيوش (٣٦ ألف) وعلى الفور أرسل هرقل امبراطور الروم جيوشه لقتالهم بقيادة ماهان الأرمني ، وكان عددها ٨٠ ألفاً . ولما اشتدت المعارك توالت على الروم الامدادات حتى بلغ عددها ٢٤٠ ألفاً في الوقت الذي لم يزد فيه عدد المسلمين عن ٤٠ ألفاً مما اضطر القواد المسلمين إلى طلب المدد من الخليفة أبو بكر ، فأرسل لهم خالد بن الوليد مع قواته من الحيرة وولاه قيادة جيوش المسلمين في اليرموك . وكان خالد قائداً فذاً . فنظم الجيوش تنظيماً حسناً وجعل لها قلباً ومقدمة وميسرة . وقد قاتلت جيوشه ببسالة منقطعة النظير . وبينما كان القتال مستمراً عند اليرموك توفي أبو بكر الصديق ، وتولى الخلافة عمر بن الخطاب .

جمع القرآن في عهد أبي بكر :

في عهد أبي بكر جمع القرآن على اثر استشهاد فئة كبيرة في الحروب من الذين يحفظون القرآن ، وعهد إلى زيد بن ثابت أن يقوم بجمعه ليكون في مصحف واحد .

وقد جمع القرآن من الرقاع وألواح اللخاف وصدور الرجال في صحف تجمع سوره كلها ، تم ذلك في عهد أبي بكر الصديق الذي حرص قبل وفاته على جمع صحف كتاب الله الكريم ليظل واحداً لا لبس فيه ولا تحريف .

وكان أبو بكر تقياً حريصاً على تنفيذ تعاليم الدين الاسلامي . وهو أصغر من الرسول بسنتين ، توفي سنة ١٣هـ – ٦٣٤م عن عمر يناهز ٦٣ عاماً . وكانت مدة خلافته سنتين وثلاثة أشهر . ودفن في حجرة عائشة بجوار رسول الله .

عمر بن الخطاب

هو عمر بن الخطاب بن نيفل وكنيته أبو حفص ، يجتمع مع الرسول صلى الله عليه وسلم في الجد السابع من جهة أبيه وفي الجد السادس من جهة أمه ، وهو اصغر من النبي بثلاث عشرة سنة .

وكان عمر (ر) حازماً وعادلاً . شهد مع الرسول جميع غزواته . وقد عهد أبو بكر اليه بالخلافة وهو على فراش مرضه بعد أن استشار كبار الصحابة .. رأى ذلك حرصاً على وحدة المسلمين أن يعهد بالخلافة إلى شخصية تتوفر فيها العدالة والكفاءة والشجاعة تجمع كلمتهم لكي لا يقع الخلاف وتنشب الفتنة فتجلب عليهم الوبال وتحل بالجيوش الاسلامية التي تحارب الروم في الشام الهزيمة .

ودعا أبو بكر الصديق عثمان بن عفان وأملى عليه كتاب العهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب جاء فيه :
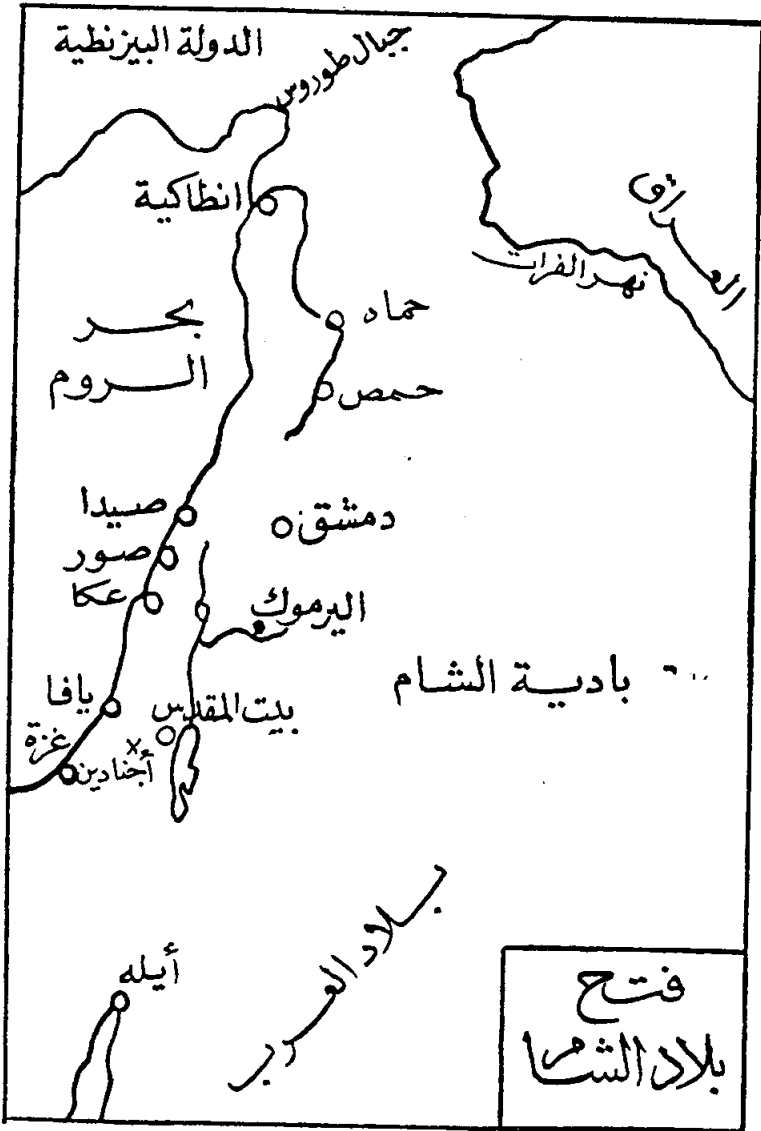
خريطة فتحِ بلاد الشام

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد به أبو بكر بن أبي قحافة إلى المسلمين . أما بعد فإني قد استخلفت عليكم عمر بن الخطاب .. فإن صبر وعدل فذلك علمي به ، وان جار وبدل فلا علم لي بالغيب . ثم أشرف على جموع المسلمين في المسجد وقال لهم : أترضون بمن استخلف عليكم ؟ قالوا سمعنا وأطعنا .

وبناء على هذا العهد تولى عمر الخلافة بعد وفاة أبي بكر . وقد بايعه جميع الصحابة ، ولقب بأمير المؤمنين .

سير مراحل الفتوحات الاسلامية

كانت معركة اليرموك على أشدها عندما تولى الخلافة عمر بن الخطاب . وبقيادة البطل خالد بن الوليد حققت الجيوش الاسلامية انتصارات رائعة أكسبت الدولة الاسلامية الفتية هيبة ومكانة . وكان خالد قائداً شجاعاً حاذقاً بفنون الحروب وأساليبها ، خاض الكثير من المعارك فأكسبته خبرة واسعة . وخشية من افتتان المسلمين به أرسل الخليفة عمر كتاباً إلى خالد يأمره بتسليم قيادة الجيوش إلى عبيدة بن الجراح ، ولما وصله خاف اظهاره حتّى لا تهن عزائم الجنود ، فأبقاه حتّى تم النصر في معركة اليرموك الحاسمة سنة ١٥ هـ — ٦٣٦م ثم سلم القيادة إلى أبي عبيدة وبقي معه يعمل جندياً في سبيل واجبه الديني والوطني .

انتهاء سيطرة الروم :

وبعد هزيمة جيوش الروم وابادة القسم الأكبر من كتائبها على ضفاف اليرموك وفي المرتفعات الجبلية وقرب درعا زحفت القوات الاسلامية بقيادة أبي عبيدة إلى دمشق فاحتلتها ومنها تابعت الزحف إلى المدن الأخرى فسقطت ، واستمرت في ملاحقة فلول جيوش هرقل امبراطور بيزنطية (الروم) حتّى بلغت جبال طورس . وبذلك انتهت سيطرتها على سوريا وفلسطين .

الخليفة عمر يدخل القدس

وفي الوقت الذي كان الجيش الاسلامي بقيادة أبي عبيدة بن الجراح يطارد قوات الروم المدحورة كان عمرو بن العاص يواصل سيره باتجاه بيت المقدس بعد أن انتصر على الروم في موقعة أجنادين . وعندما بلغت قواته المدينة المحصنة حاصرتها وطال حصارها ، عندئذ طلب البطريرك منغوريوس تسليمها على أن يحضر الخليفة عمر بنفسه فحضر عمر من المدينة المنورة وفي طريقه مر بالشام وتفقد أحوالها ثم واصل السفر إلى بيت المقدس عام ١٦هـ (٦٣٧م) حيث استقبله البطريرك بالترحيب وسلمه المدينة ، فأمن المسيحيين على حياتهم وممتلكاتهم وكنائسهم وأطلق لهم حرية العبادة . وقد دهش البطريرك منغوريوس بما لمسه وانحنى أمام الخليفة وقال : حقاً يا أمير المؤمنين ان رسالتكم تمثل أسمى معاني التسامح والعدالة والحرية . تلك هي رسالة الاسلام العظيمة التي حملها عمر ابن الخطاب من المدينة المنورة إلى القدس . وفي اليوم التالي طاف عمر بالمدينة وشاهد معالمها التاريخية ، وفي موضع هيكل سليمان الذي دمره نبوخذ نصر (نبوكد) ملك بابل عام ٥٨٧ ق.م. رأى قمامة فأمر بازالتها وبناء المسجد في ذلك المكان .

فتح العراق وفارس

أعد الخليفة عمر الجيوش لفتح فارس ، وقد ولى سعد بن أبي وقاص قيادتها ، فنزل بها في القادسية عام ١٧هـ الموافق ٢٠ آب ٦٣٧م ، وكانت جيوش الفرس التي يقودها رستم تزيد على جيوش المسلمين بأربعة أضعاف . واصطدم الفريقان في قتال دام أربعة أيام وانتهى بالنصر المبين للمسلمين . وقد استشهد منهم ٧ــ٨ آلاف مقاتل ، وقتل من الفرس ثلاثين ألفاً من بينهم القائد رستم . وبعد شهرين واصل الجيش سيره إلى المدائن ودخل القائد المسلم سعد بن أبي وقاص قصر كسرى الابيض وهو يقرأ قوله تعالى « كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة كانوا فيها فاكهين »[1] وأعد الفرس من جديد جيشاً قوامه

---

(١) الدخان آية ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .

١٥٠ ألف مقاتل ، فأرسل لهم عمر بن الخطاب جيشاً بقيادة النعمان بن مقرن قوامه ٣٠ ألف . وعند نهاوند دارت بينهما المعركة الحاسمة التي كتب الله النصر فيها للمسلمين وسميت (بفتح الفتوح) لأن امبراطورية الفرس بعدها لم تقم لها قائمة ، كان ذلك سنة ٢١هـ (٦٤٢م) . ثم تابعت الجيوش الاسلامية سيرها واستولت على بلاد فارس .

فتح مصر :

في أواخر عام ٦٣٩م توجه عمرو بن العاص إلى مصر لفتحها بعد أن استأذن الخليفة عمر بن الخطاب . وكان جيشه قوامه أربعة آلاف مقاتل سار بهم من فلسطين بمحاذاة الساحل . وتمكن من الاستيلاء على بلبيس . ثم زحف على حصن بابليون حيث تقيم الحامية الرومانية فحاصرها ، وطلب من الخليفة عمر مدداً فأرسل اليه ثمانية آلاف مقاتل يقودهم الزبير بن العوام . وتم الاستيلاء على بابليون بعد أن ألحق بالروم هزيمة شنعاء .

وتابعت الجيوش الاسلامية تقدمها حتى بلغت الاسكندرية فحاصرتها وطال حصارها لأن المدد إلى حاميتها كانت تصلها عن طريق البحر التي يسيطر عليه الأسطول البيزنطي. وأخيراً استسلمت المدينة بعد أن عقد المقوقس بطريرك الأقباط حاكم مصر من قبل الروم صلحاً مع عمرو بن العاص سنة ٢١هـ — ٦٤٢م ، وكانت أهم شروطه : يسمح للحامية الرومانية بالانسحاب ، يمنح للمسيحيين حريتهم الدينية ويحافظ على أرواحهم وأموالهم .

وقد رحب شعب مصر بالعرب وقائدهم عمرو بن العاص لما لمسه من العدل والشهامة والتسامح . وبقرب حصن بابليون أسس عمرو عاصمته الجديدة وأطلق عليها اسم الفسطاط ، وفيها بني مسجد سمي باسمه لا يزال باقياً حتى اليوم . ولقد أدخل الكثير من الاصلاحات كما اهتم بالزراعة والري ، وجدد حفر القناة وسماها خليج أمير المؤمنين .

الفتح الاسلاميّ لمصر

البحر المتوسط (بحر الروم)
الاسكندرية
بحيرة مريوط
دمنهور
فرع رشيد
بحيرة البرلس
سخا
سمنود
دمسيس
فرع دمياط
دمياط
بحيرة المنزلة
الفرما (بلوز)
من العريش
منوف
اتريب
بلبيس
قناة تراجان (خليج أمير المؤمنين)
بحيرة التمساح
البحيرات المرة
عين شمس
أم دنين
الفسطاط
حصن بابليون
الى الفيوم
بحر القلزم
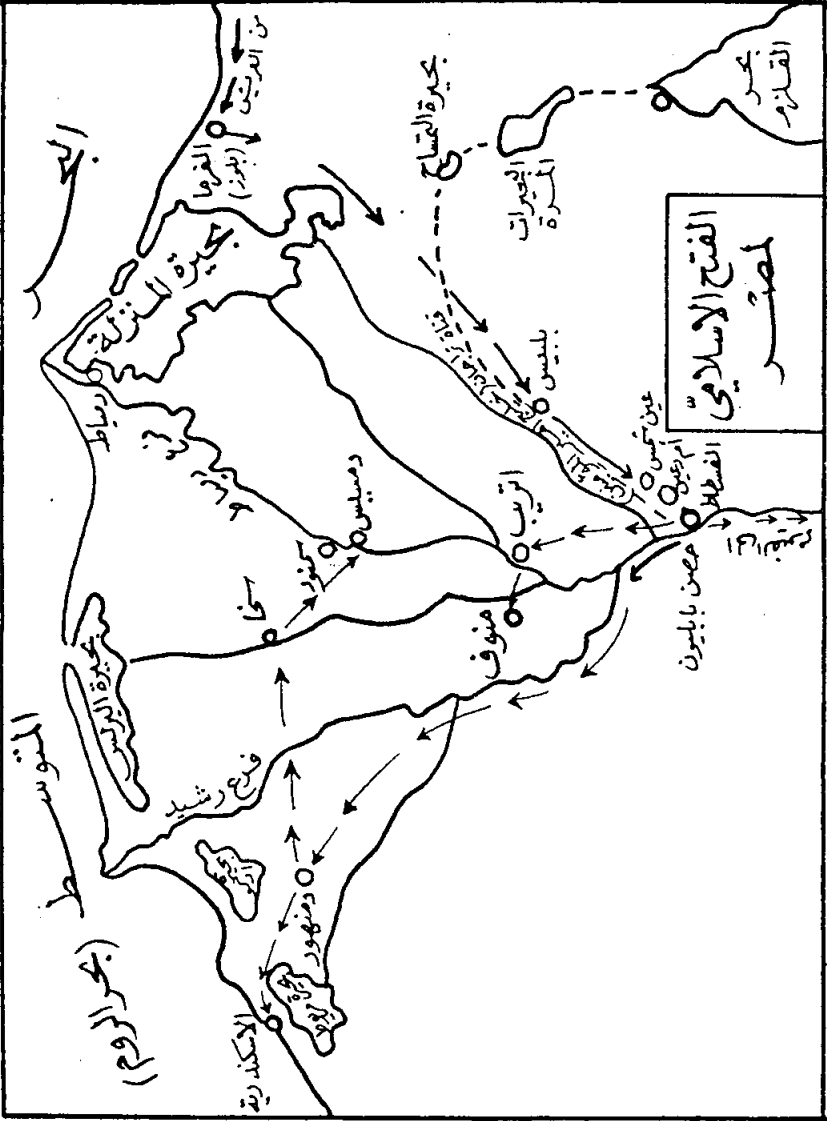
خريطة الفتح الاسلامي لمصر

شخصية عمر بن الخطاب واصلاحاته

عرف الخليفة عمر بالعدل والتقوى والتواضع الذي ظهر في ملبسه ومظهره وفراشه من سعف النخل الذي كان ينام عليه . وكان يطوف الاسواق ويتفقد بنفسه الرعية ويسهر على مصالحها . ولم يكن يهمه من حياة الدنيا سوى اعلاء كلمة الله والدفاع عن الاسلام والحرص على كرامة المسلمين وأموالهم .

وقد جعل عمر بداية التاريخ العربي من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وجعل رأس السنة يبدأ من أول المحرم . ونظم الدولة وقسمها إلى ولايات ، وعين لادارتها الرجال الاكفاء النزهاء . ولضمان العدالة جعل القضاة مستقلين عن الولاة . كما أنشأ ديوان الجند لتسجيل أسماء الجنود ورتبهم وخدماتهم للدولة . وأسس البريد ، وأنشأ أيضاً ديوان بيت المال لاحصاء أموال الدولة ومصروفاتها ، وأيضاً دار الحسبة — لمراقبة المكاييل والموازين والنظافة وقمع الغش الخ . كما أرسل العلماء والفقهاء للأمصار لتعليم المسلمين أمر دينهم .

وقتل عمر (ر) غدراً في سنة ٢٣هـ — ٦٤٤م على يد أبو لؤلؤة المجوسي غلام المغيرة بن شعبة ، ولما علم عمر أن قاتله مجوسي ، حمد الله الذي جعل قاتله من الذين لم يسجدوا لله سجدة واحدة . ودفن عمر في حجرة عائشة مع النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر .

عثمان بن عفان

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ، يلتقي نسبه مع نسب الرسول صلى الله عليه وسلم في جده عبد مناف .

وقد شهد عثمان الغزوات كلها مع النبي الا غزوة بدر وذلك لانشغاله بتمريض زوجته رقية بنت رسول الله . ولما توفيت زَوَّجَهُ النبي أختها أم كلثوم ولذلك لقب (بذي النورين) . وكان من كتاب الوحي ، فقيهاً في الدين ، سخياً ومتواضعاً .

بيعة عثمان

بعد أن طعن الخليفة عمر بن الخطاب لم يعهد بأمر الخلافة لواحد معين من بعده كما فعل أبو بكر عندما أحس بدنو أجله ، بل جعلها شورى بين المسلمين ، وأمرهم بأن يختاروا واحداً من كبار الصحابة وهم : عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة ابن عبد الله والزبير بن العوام . وقد انتخب عثمان بن عفان للخلافة من بين هؤلاء الستة .

استمرار الفتوحات الاسلامية

واستمرت الفتوحات في عهد الخليفة عثمان بن عفان ، ففتح كل من : خراسان ، أذربيجان ، وطبرستان ، وطرابلس الغرب التي كانت لا تزال تحت حكم الروم . كما أخمد الثورة التي نشبت في بلاد فارس . وكان من أبرز الانتصارات هو تدمير الأسطول الاسلامي للأسطول الروماني في موقعة ذات الصواري سنة ٣٤هـ — ٦٥٥م .

نشوب الفتنة ووبالها :

في المرحلة الأولى لحكم الخليفة عثمان بن عفان ازدهرت الولايات الاسلامية وسادها الاستقرار ، وانتشر العرب في شمال افريقيا ، وجمع القرآن في مصحف واحد ووزعت منه عدة نسخ على الولايات .

وفي المرحلة الثانية من حكم عثمان الذي كان بلغ عمره ٧٦ سنة استعان بنفر من ذوي قرباه لتسيير أمور الدولة ، وسرح بعض الولاة الذين ولاهم سلفه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وولى آخرين بدلاً منهم استبدوا بالأهالي وعظم خطرهم ، فضج الناس من كثرة ما لاقوه من هؤلاء الولاة ، وأقبلت جماعة ثائرة من أهالي الكوفة والبصرة ومصر إلى المدينة المنورة . ولما علم بهم الخليفة عثمان أرسل يستفسر عن سبب مجيئهم فعلم أنهم قادمون لعزله أو لقتله . فأشار عليه
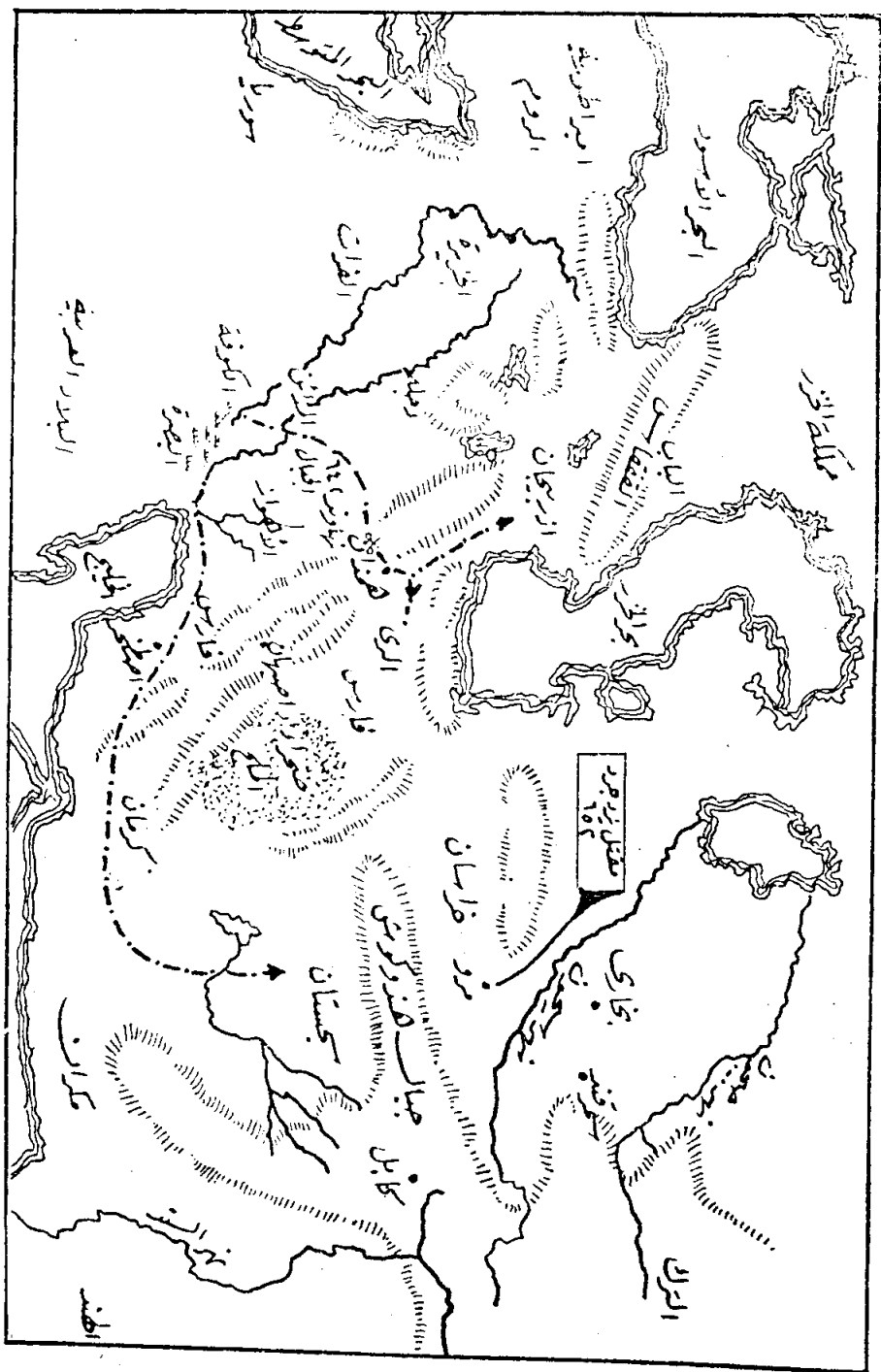
كبار أهل المدينة المنورة بضرورة مواجهة هؤلاء الثوار وقتالهم الا أن عثمان (ر) لم يرغب في سفك دماء المسلمين ، ورفض مشورتهم وقال لهم (بل نعفو) . وعندما قابلهم وشرحوا له ما جاءوا من أجله ، دافع عن نفسه حتى أقنعهم ثم أجابهم إلى بعض مطالبهم فرجعوا من حيث أتوا وفي الطريق تغلب عليهم شيطان النفس والهوى فعادوا ثانية إلى المدينة المنورة زاعمين أن الخليفة كتب إلى عماله بقتلهم .. وحاصروا عثمان في راده ٤٠ يوماً ، ومنعوا عنه الماء وهو شيخ يزيد عمره على ثمانين سنة .. ثم تسلقوا داره فوجدوه يقرأ القرآن ، فقتلوه ونهبوا بيت المال ، ومات شهيداً سنة ٣٥هـ (٦٥٦م)

وقد أدى مقتل الخليفة عثمان إلى مأساة كبرى كان لها أثرها الكبير ،وأخطارها القريبة والبعيدة ، فجرت في أعقابها سلسلة من المآسي الدامية على المسلمين.

علي بن أبي طالب

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ، ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته فاطمة . اشتهر بالبلاغة والشجاعة والبراعة في القضاء .

وبعد مقتل عثمان بن عفان عرض بعض الصحابة الخلافة على الامام علي فرفض . ولما ألحوا عليه اضطر إلى اجابتهم وتمت البيعة في مسجد المدينة . وقد بدأ بازالة الخلافات ، فعزل جميع ولاة سلفه الخليفة الشهيد عثمان بن عفان لأنهم كانوا السبب في تذمر الناس بل وفي الفتنة التي أدت إلى مقتل عثمان . فأذعنوا جميعهم ما عدا معاوية بن أبي سفيان الذي رفض الامتثال لأمر الخليفة علي وأصر على البقاء في ولايته بالشام حيث علق على المنبر قميص عثمان وأخذ يطلب بثأر الخليفة المقتول بحجة أنه قريبه وولي دمه .

موقعة الجمل

واتخذ الامام علي كرم الله وجهه الكوفة في العراق عاصمة له وبينما كان يستعد لقمع حركة التمرد بالشام واخضاع معاوية للطاعة ظهرت حركة في مكة بزعامة الزبير بن العوام وطلحة بن عبد الله ، وتوجه الثوار إلى العراق وكان بصحبتهم أم المؤمنين عائشة . فجهز الامام علي جيشاً قاده بنفسه وسار إلى البصرة لملاقاة الثوار ، وكان أن يقنعهم ببراهينه الساطعة وحججه البليغة لولا أن ابن سبأ اليهودي وأعوانه ممن اشتركوا في مقتل عثمان خافوا على أنفسهم من القصاص فبادروا باشعال نار الحرب . وكان النصر فيها للامام علي وأتباعه . وقد قتل في تلك المعركة طلحة وابنه والزبير . حدث ذلك في سنة ٣٦هـ (٦٥٦م) وقد سميت بموقعة الجمل لأن أم المؤمنين عائشة كانت تركب جملاً . وبعد انتهاء المعركة أعاد علي أم المؤمنين إلى المدينة المنورة معززة مكرمة وأرسل معها ابنيه الحسن والحسين لحراستها .

موقعة صفين :

حاول الامام علي بالطرق السلمية حسم النزاع ولكن معاوية لم يستجب ، وعندئذ جهز جيشاً لقتال معاوية وأتباعه من المتمردين فتقابل الجيشان في (صفين) غرب الفرات سنة ٣٧هـ (٦٥٧م) ، واستمرت الحرب بينهما ثلاثة أيام رجحت فيها كفة الامام علي ، وكاد يهرب جيش معاوية لولا أن أشار عمرو بن العاص على معاوية أن يرفع المصاحف على أسنة الرماح بقصد التحكيم إلى كتاب الله . وكان ذلك بنظر علي خدعة ولكن قادة الجيش أشاروا عليه بقبول التحكيم فعمل بمشورتهم . واتفق الفريقان على اختيار حكمين ، فاختار الامام علي أبو موسى الأشعري لعلمه وفقهه وورعه . واختار معاوية عمرو بن العاص لدهائه . وقد اتفقا على خلع كل من الامام علي ومعاوية وأن يختاروا من بين المسلمين خليفة وذلك ليقضوا على الفتن وحقناً لدماء المسلمين. وعند اعلان نتيجة التحكيم طلب عمرو بن العاص من أبي موسى الأشعري بأن يتقدم فيعلن النتيجة امام الجميع

لأنه أكبر منه سناً ، فتقدم أبو موسى قائلاً : « أيها الناس انا قد نظرنا في أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها من أن نخلع علياً ومعاوية ونرد الأمر شورى فالتمسوا من هو أهل للخلافة » وبعد انتهائه تقدم عمرو بن العاص وقال : ان هذا قد خلع صاحبه ، وأنا أخلعه وأثبت صاحبي معاوية فانه ولي عثمان وأحق الناس بمقامه . وعندئذ وقعت الفتنة وانقسم جيش الامام على نفسه قسمين ، قسم أيده (الشيعة) وقسم آخر تمرد ، عرف باسم الخوارج فناصبوه العداء واتخذوا من بينهم خليفة يدعى عبد الله بن وهب .

وعندما رأى الامام علي أن الخوارج يشكلون خطراً ويرفضون الانصياع إلى الطريق المستقيم ، خرج عليهم وقضى على قسم كبير منهم في موقعة النهروان سنة ٣٨هـ ، وهرب الباقون .

وبعد تصفية الخوارج استتب الأمر لعلي في العراق واستقر في عاصمته الكوفة . أما معاوية فقد ظل في الشام يعد العدة ويجهز القوات ليأخذ الخلافة .

وخلاصة القول أن التحكيم لم يحسم النزاع بين الامام علي ابن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان الذي استقل بولايته (الشام) بل وسع شقة الخلاف وادى إلى انقسام المسلمين .

شخصية الامام علي ومميزاته :

لقد أضيف لاسم الامام علي لقب (كرم الله وجهه) لأنه لم يسجد لصنم ، ولم يعبد سوى الله وحده . وهو الذي قدم نفسه فداء للرسول صلى الله عليه وسلم وذلك بمبيته في فراشه ليلة الهجرة . وقد تزوج من فاطمة الزهراء بنت رسول الله فولدت له الحسن والحسين . واشتهر الامام علي بن أبي طالب بالشجاعة والبطولة والفصاحة ، فلم يفر من معركة ، وما بارز أحداً الا غلبه . وكان أول المبارزين يوم بدر . وأحد الثابتين يوم أحد ويوم حنين مع رسول الله . وكان يرجع اليه الصحابة في الكثير من أمور الدين ، وقال عنه النبي (أقضاكم علي) . وهو أحد الستة الذين قال عنهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب – توفي الرسول وهو عنهم راض .

مؤامرة الخوارج وعاقبتها :

اتفق ثلاث رجال من الخوارج على قتل الامام علي وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان . وقد تعاهدوا في الكعبة فيما بينهم بأن ينفذوا خطتهم في يوم واحد ، وحددوا يوم ١٧ رمضان لتنفيذ المؤامرة . واختار كل واحد منهم رجلاً يقتله ؛ فالامام علي تعهد بقتله عبد الرحمن بن ملجم ، ومعاوية تعهد بقتله البرك بن عبدالله التميمي ، وعمرو بن العاص تعهد بقتله عمرو بن بكر التميمي . وخرج ثلاثتهم كل واحد يقصد الرجل الذي تعهد بقتله .. وطعن ابن ملجم الامام علي وهو متوجه لصلاة الصبح فقتل . أما عمرو بن العاص فلم يخرج للصلاة يوم ١٧ رمضان لسبب مرضه ، فخرج نائبه وهو (خارجة بن أبي حبيبة) فقتله عمرو بن بكر التميمي ظناً منه أنه عمرو بن العاص . وأما معاوية فان الذي تعهد بقتله ضربه بالسيف فأصابه على وركه وجرح جرحاً بليغاً . لكنه عولج حتى شفي .

وهكذا كان فقد نفذ الخوارج مؤامراتهم الاجرامية .. ومات الامام علي شهيداً في ١٧ رمضان عام ٤٠هـ (٦٦١م) ودفن في الكوفة .

بيعة الحسن وتنازله :

بعد يومين من وفاة علي بن أبي طالب بايع الناس ابنه الحسن (ر) . وأول من تقدم هو قيس بن سعد بن عبادة الذي كان على امرة أذربيجان فبايعه على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . ثم بايعه كبار القوم في المسجد بالكوفة .

وحاول بعض قادة الجيش اقناع الحسن بن علي لقتال معاوية الذي كان بالاضافة إلى ولاية الشام التي استقل بها ضم اليه « مصر» ولكن الحسن لم يكن في نيته أن يقاتل أحداً ، ورأى أن إنقسام المسلمين على أنفسهم يشكل خطراً على أمتهم وبلادهم ، والأفضل هو ايجاد الجو الملائم للوصول إلى صلح ينهي النزاع ويحقن دماء الأمة الاسلامية .

وقد جرت اتصالات ومفاوضات دامت عدة أشهر انتهت إلى عقد صلح بين الحسن بن علي ومعاوية ، أهم شروطه هي :(١) يتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية . (٢) يطبق معاوية الشريعة الاسلامية ، ويجعل الخلافة من بعده على أساس (شورى) أي انتخاب بين المسلمين ، ويحافظ على آل البيت وأمنهم وسلامتهم ، ويسمح إلى الحسن بأن يأخذ خمسة آلاف درهم من بيت مال الكوفة .

وبعد أن تم الاتفاق حضر معاوية إلى الكوفة ومعه صديقه عمرو بن العاص عام ٤١هـ ، فبايعه الحسن بن علي وتبعه أنصاره . وأطلق على هذه السنة التي تمت فيها وحدة الكلمة اسم (عام الجماعة) . وبذلك استتبت الأمور ، وأعيد للدولة الاسلامية وحدتها وهيبتها .

ثم رحل الحسن بن علي ومعه أخوه الحسين وعمهم عبدالله بن جعفر إلى المدينة المنورة وفيها توفي عام ٤٩هـ (٦٦٩م) ودفن بالبقيع قريباً من قبر أمه فاطمة الزهراء .

نتائج الفتوح

في عهد الخلفاء الراشدين

خلال عهد الخلفاء الراشدين الذي امتد منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم سنة ١١هـ حتى سنة ٤٠هـ اتسعت أرجاء الدولة الاسلامية فشملت الجزيرة العربية وسوريا وفلسطين ومصر والعراق وفارس وبلاد القفقاس وبرقة وطرابلس الغرب وقبرص ورودس . وتم تصفية الامبراطورية الفارسية ، واقتلاع جذور الامبراطورية البيزنطية (دولة الروم) من الشرق حيث كان الصراع فيه محتدماً بين الدولتين .

وقد انتشر الاسلام خلال عهد الخلفاء الراشدين انتشاراً واسعاً بدخول كثير من سكان البلاد التي فتحها العرب فيه تحت لواء الرسالة الاسلامية . وفي هذه البلاد اتخذوا مبادىء الاسلام أساساً لتوطيد حكمهم ، قوامها الحرية ، والعدل ، والمساواة ، والتسامح . والحفاظ على ممتلكات السكان ومصالحهم .

وبالاضافة إلى بناء المساجد والعناية بتثقيف المسلمين فقد تأسست عدة مدن في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، ونظمت الدولة والادارة في الولايات ، وانتشرت اللغة العربية في البلاد المفتوحة حيث أقبلت شعوبها على تعلمها فساعد ذلك على توطيد العلاقات والاختلاط بين العرب الذين خرجوا من الجزيرة العربية لنشر الدعوة الاسلامية والاقوام الاخرى .

الفصل الرابع

الدولــة الأمويّــة

ينتسب الأمويون إلى أمية بن عبد شمس الذي كان في الجاهلية سيداً من سادات قريش ، وكان في الشرف والرفعة يعادل عمه هاشم بن عبد مناف ، ولذا فقد تنافس كلاهما على رئاسة قريش في الجاهلية ، واستمر التنافس بين الاسرتين في الاسلام .

معاوية ابن ابي سفيان

يعتبر معاوية مؤسس الدولة الأموية ، وهو أول خليفة من الأمويين في الاسلام ، ولد بمكة قبل الهجرة بخمسة عشر سنة وأسلم يوم فتح مكة هو وأبوه وأخوه وأمه هند وباقي الأمويين الذين لم يتساووا مع البيت الهاشمي في شرف السبق إلى الدخول في الاسلام ومناصرة الرسول . وقد اشترك معاوية في فتح فلسطين ، وولاه الخليفة عمر الأردن ودمشق ، ولما تولى عثمان الخلافة ولاه الشام كلها . وبعد مقتل عثمان استقل ونقل خلافته بعد أن استتب له الأمر إلى دمشـــق .

الفتوحات في عهده :

وجه معاوية اهتمامه إلى الامور الداخلية والتوسع في الفتوحات فأمر القائد المهلب بن أبي صفرة بغزو بلاد السند . فزحف على أفغانستان واستولى على كابول سنة ٤٤هـ (٦٦٥م) ومنها استمر حتى وصل إلى مدينة لاهور بإقليم البنجاب. وفي خراسان تمكنت الجيوش الاسلامية من الاستيلاء على بخاري وسمرقند.

وعمل معاوية على تقوية الأسطول الاسلامي حتى بلغ عدد سفنه ١٧٠٠ سفينة . ففتح رودس وقبرص وبعض جزر اليونان في البحر الأبيض المتوسط . وفي سنة ٤٩هـ حاصرت الجيوش الاسلامية القسطنطينية براً وبحراً ولم تتمكن من الاستيلاء عليها لمتانة أسوارها ومناعة موقعها . واستخدام الروم النار الاغريقية التي أحرقت مجموعة من سفن العرب فعادوا إلى الشام .

وامتدت الفتوحات الاسلامية إلى افريقيا بقيادة عقبة بن نافع ففتح طنجة سنة ٦٧٠م ثم ذهب إلى تونس وأسس مدينة القيروان وجعلها قاعدة حربية له عام ٥٥هـ (٦٧٥م) .

أعمال معاوية :

كان معاوية رجلاً حازماً وسياسياً محنكاً . نجح في تنظيم الدولة في الداخل . وأسس ديوان التسجيل . وأنشأ مصلحة البريد التي عمت جميع الولايات، وجعل الخلافة سلالية ترتكز على مبدأ وراثي بعد أن كانت الخلافة شورى بين المسلمين .

وتقرب معاوية لرؤساء العرب ، واختار الولاة الأكفاء لادارة الأقاليم . ولم يكن يستعمل الشدة الا متى رأى استعمالها محتماً ، وكان بطيء الغضب ضابطاً لثورات النفس ، ومن أقواله الدالة على تصرفاته : « لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت ، اذا شدوها خليتها واذا خلوها شددتها » .
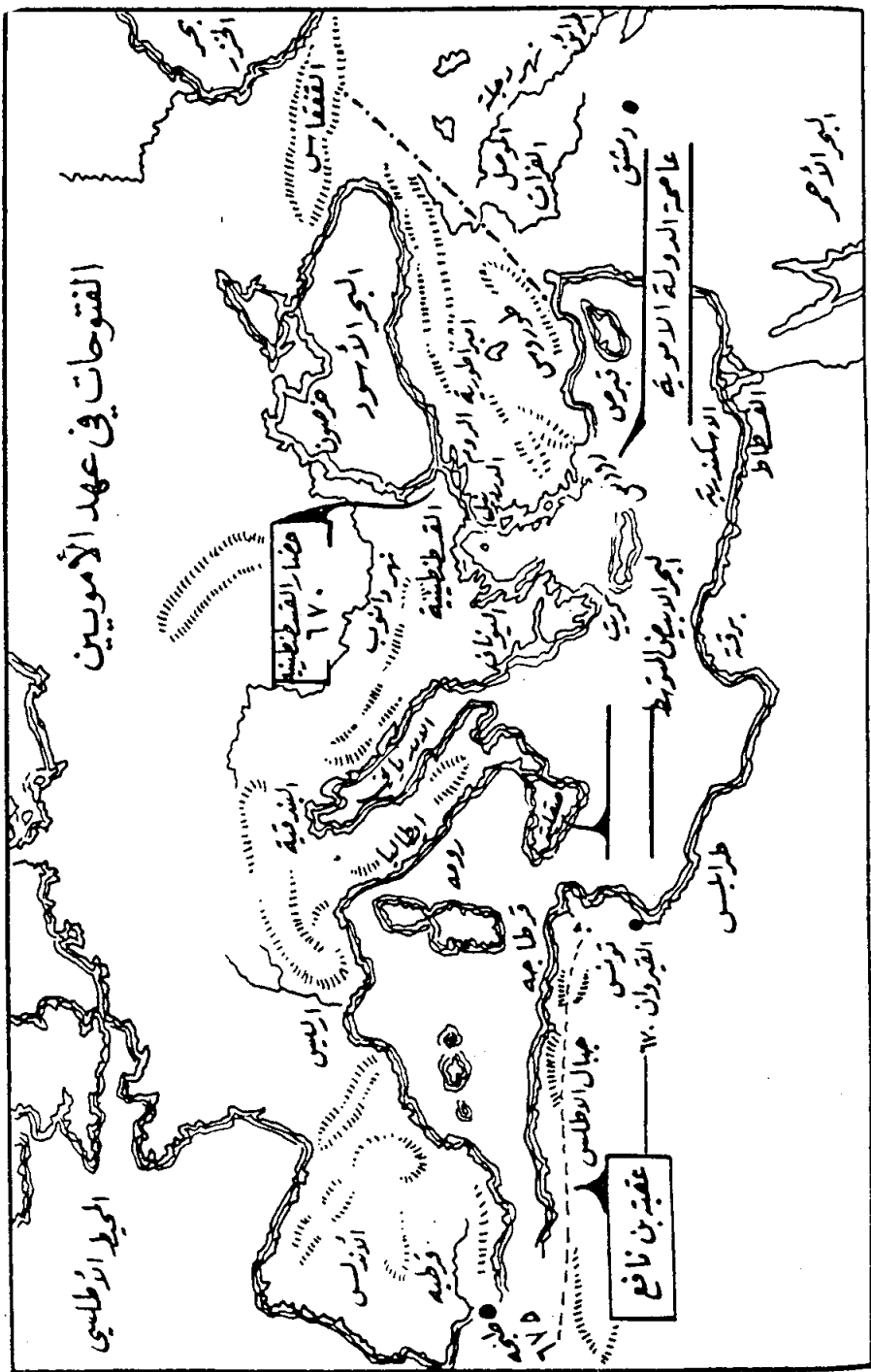
خريطة الفتوحات في عهد الامويين

لقد رأى معاوية أن يحصر الخلافة في نسله ، فعهد إلى رجاله المخلصين بترويج الدعوة لقبول الناس البيعة لابنه يزيد بولاية العهد . وقد جرت البيعة في دمشق في اجتماع عام ضم العلماء والوفود التي جاءت من الولايات . وهكذا ضمن الخلافة من بعده لابنه يزيد .

وقبل وفاة معاوية ترك وصية ليزيد أوصاه بإكرام أهل الحجاز ومسايرة أهل العراق ، والتعاون مع أهل الشام .

وفي عام ٦٠هـ (٦٨٠م) توفي معاوية بدمشق ودفن فيها بعد خلافة دامت عشرين سنة .

خلافة يزيد بن معاوية

بعد موت معاوية بويع يزيد بالخلافة من قبل المسلمين ما عدا بعض الشخصيات في الحجاز من أبناء الصحابة وأبناء الخلفاء وغيرهم . وعندما علم يزيد بالخبر كتب إلى عامله على المدينة الوليد بن عتبة أن يأخذ له البيعة من الذين تمنعوا ، فتمكن من أخذ البيعة للخليفة يزيد من عبدالله بن عباس وعبدالله بن عمر أما عبدالله بن الزبير فقد رفض وتوجه إلى مكة .

ورفض أيضاً الحسين بن الامام علي مبايعة يزيد وقال لعامله الوليد : ان مثلي لا يبايع سراً ، فاذا خرجت إلى الناس ودعوتهم إلى البيعة ودعوتنا معهم كان الأمر واحداً . ثم ترك المدينة المنورة وذهب إلى مكة .

مأساة كربلاء وذيولها :

وردت على الحسين بن الامام علي الرسائل من الشيعة بالعراق ملحين طالبين

أن يأتي لمبايعته . فتوجه الحسين [1] اليهم مع أهل بيته على رأس عدد قليل من أتباعه لم يتجاوز ٨٠ رجلاً ، وعندما وصل إلى كربلاء قدم عليه جيش بقيادة عمر بن سعد سيره عبدالله بن زياد والي يزيد على الكوفة ، وأخذ يشدد الحصار على الحسين وجماعته ومنعهم من الوصول إلى الماء لاملاء القرب للقافلة ، وعندئذ طلب الحسين من قائدهم الموافقة على أحد الشروط التالية حقناً لدماء المسلمين وهي : اما أن يسمح له بالذهاب إلى الحدود الشرقية ليجاهد في سبيل الله لمقاتلة الكفار ، واما أن يسمح له بأن يعود إلى المدينة المنورة ، أو يأخذه إلى الخليفة يزيد بن معاوية ، فرفض القائد عمر بن سعد وأمر فرسانه بالانقضاض عليه ، وكان عددهم أربعة آلاف ، فقاتل الحسين ومن معه قتال الأبطال إلى أن استشهدوا جميعاً ولم يبق سوى النساء وطفل صغير هو علي زين العابدين ابن الحسين ، ومن الذين قتلوا ١٦ رجلاً من أهل بيته و ٦٤ من أنصاره . واحتز رأس الحسين وحمل إلى يزيد بدمشق فأمر برده إلى أخت الحسين زينب فدفن مع الجسد في كربلاء . وسميت تلك الموقعة بموقعة كربلاء ، فكانت كرباً وبلاء . حدث ذلك في العاشر من شهر محرم عام ٦١هـ الموافق عام٦٨٠م

الاعتداء على المدينة وحصار مكة :

أثارت مذبحة كربلاء موجة من السخط والاستياء والنقمة على يزيد بن معاوية في جميع الولايات الاسلامية ، فأثر ذلك على مركزه ونفوذه وبالأخص في الحجاز التي لم تبايعه فئة من وجوهها بالخلافة بعد وفاة أبيه معاوية .

وحاول يزيد استرضاء أهل المدينة المنورة ، فكتب إلى عامله أن يرسل وفداً من أشرافها ، فاتصل بوجهاء البلد وذهب وفد برئاسة عبدالله بن حنظلة إلى دمشق .

---

(١) أوفد الحسين قبل سفره إلى الكوفة ابن عمه مسلم ابن عقيل فرحب به أهلها ، ثم ما لبثوا أن تفرقوا عنه خوفا من بطش الوالي عبد الله بن زياد الصارم الذي لاحق مسلم وقتله ولم يعرف الحسين بخبر مقتله الا بعد أن وصل إلى العراق .

لزيارة يزيد ، وعاد غير راض مما شاهده ولمسه .

وثار أهل المدينة وأعلنوا خلع يزيد ، وطردوا عامله ، فأرسل اليهم جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل بقيادة مسلم بن عقبة المري . ووصل الجيش إلى المدينة وحاصرها من جهة الحرة ، وأمهل السكان ثلاثة أيام ليعودوا إلى طاعة الخليفة فرفضوا واعتبروا الحصار امتهاناً لمدينة الرسول . وقد انقض جيش يزيد على المدينة وسكانها الذين دافعوا ببسالة ، وتمكن من احتلالها واخضاع أهلها بالسيف بعد أن قتل منهم زهرة شبابهم وكبار قادتهم ثم أباح القائد مسلم بن عقبة المدينة لجنوده ثلاثة أيام فعاثوا فيها نهباً وقتلاً وفساداً . وسميت تلك الوقعة بوقعة الحرة ، حدثت في سنة ٦٣هـ (٦٨٣م) .

وبعد أن قام الجيش الأموي بتخريب المدينة المنورة توجه إلى مكة المكرمة لاخضاع عبدالله بن الزبير ، الذي صار يدعو لنفسه بالخلافة بعد مقتل الحسين بن علي . وبينما كان الجيش سائراً في طريقه أدركت قائده المنية فخلفه الحصين بن نمير ، واستمر يواصل تقدمه حتى وصل إلى مكة فحاصرها وأخذ يقذفها بالمنجنيق ، فأصابت قذائفه الكعبة المشرفة واشتعلت فيها النيران وتهدم القسم الأكبر منها . وقد دافع ابن الزبير وأهل مكة وقاوموا الجيش الأموي . وفي تلك الأثناء توفي الخليفة يزيد بن معاوية ، فلما علم قائده الحصين بن نمير بموته انسحب بعد أن كان مضى على حصار مكة شهرين وعاد إلى الشام .

التنافس على الخلافة

بعد وفاة يزيد عام ٦٤هـ (٦٣٨م) اشتدت حملة التنافس على الخلافة بين الأمويين وعبد الله بن الزبير الذي نجح بكسب ولاء أهل الحجاز .

وقد خلف يزيد ابنه معاوية الثاني ، وكان شاباً تقياً ورعاً محباً لبني هاشم ، ولكن خلافته لم تطل سوى أربعين يوماً ، فمرض واعتكف في داره ، ولم يختار

واحداً من بني أمية أو غيرهم ليتولى الخلافة بعده ، بل ترك امر الخلافة شورى بين المسلمين . وبقى معتكفاً في منزله حيث توفي بعد عشرة أيام .

الحجاز تبايع عبدالله بن الزبير :

ينحدر عبدالله بن الزبير من أسرة عريقة ، فأبوه الزبير بن العوام من كبار الصحابة وأمه أسماء بنت أبي بكر الصديق . وكان تقياً عالماً وشجاعاً ، أحبه الجميع ومالوا إليه وبايعه بالخلافة أهل الحجاز بعد أن توفي يزيد . وقد عظم نفوذه ، وبايعه أهل العراق ومصر واليمن وفارس ولم يبق سوى بلاد الشام التي كان لعبد الله فيها أتباع وأنصار تؤيده . وكان بوده الذهاب إلى الشام للحصول على البيعة ولكنه خشي من عدم الحصول على البيعة الجماعية والاصطدام بمقاومة مسلحة يغذيها الأمويون بالمال والسلاح ، فظل في الحجاز واتخذها مركزاً لخلافته التي استمرت تسع سنين (حتى عام ٧٣هـ) .

الشام تبايع مروان بن الحكم :

في نفس الوقت الذي بايع فيه الحجاز عبدالله بن الزبير بالخلافة ، استغل الأمويون عدم قدومه إلى الشام فالتفوا حول مروان بن الحكم [1] واختاروه خليفة (عام ٦٤هـ — ٦٨٤م) .

واتفق مروان مع القحطانيين في الأردن وحوران الذين ظلوا موالين للامويين ومنهم جهز جيشاً قوامه ستة آلاف رجل وزحف به لقتال أنصار عبد الله بن الزبير الذين كانوا بقيادة الضحاك بن قيس الفهري . واشتبك الفريقان في موقع مرج راهط شرق دمشق ، وكان النصر في تلك المعركة التي استمرت عشرين يوماً لمروان بن الحكم الأموي . وبذلك تثبت مركز مروان واصبح المعترف به

---

(١) مروان بن الحكم بن أبي العاصي بن أمية بن شمس بن عبد مناف .

خليفة في بلاد الشام. ثم جهز جيشاً وانتزع مصر من سلطة عبدالله بن الزبير وعزل عامله عبد الرحمن بن حجدم .

وهكذا أعاد مروان بن الحكم إلى الأمويين شيبتهم ونفوذهم في الشام ومصر . وعندما دنت منيته عهد بالخلافة من بعده لولديه عبد الملك ومن بعده إلى عبد العزيز ، وأخذ لهما البيعة من مؤيديه . وبعد أيام متعددةمن وصيته توفي بدمشق عام ٦٥هـ (٦٨٥م) .

عبد الملك بن مروان

ولد عبد الملك بن مروان بالمدينة المنورة سنة ٢٦هـ ، وأخذ الفقه عن علماء الدين ، وحفظ القرآن الكريم ، وبرع في الأدب والشعر ..

وعندما تولى الخلافة بعد وفاة أبيه كان شقيقه عبد العزيز والياً على مصر ، فنعمت في عهده بالأمن والرخاء . وقد أدخل الكثير من الاصلاحات منها بناء مقياس النيل وتوسيع جامع عمرو بن العاص في الفسطاط . كما جعل من مدينة حلوان عاصمة له .

ووجه الخليفة عبد الملك بن مروان اهتمامه إلى الناحية الداخلية ، وتمكن بدهائه ورجاحة عقله وحكمته من القضاء على الفتن والفوضى . ولقد لقي من الصعوبات في بادىء الأمر الشيء الكثير ، الا أنه مالبث أن تغلب عليها ووطد دعائم الدولة ، فلقب بالمؤسس الثاني للدولة الأموية .

اخضاع الكوفة :

تفرغ عبد الملك بن مروان بعد أن نظم الأوضاع في بلاد الشام ومصر لتجهيز الجيش واعداده لاخضاع الولايات التي يحكمها عبد الله بن الزبير ، واخضاع البربر في افريقيا ، واخماد ثورة الخوارج والعلويين في العراق . وكان آنذاك

في العراق المختار ابن أبي عبيد الثقفي في صراع مع جماعة الزبير على السلطة ، وبالوقت ذاته كان يلاحق قتلة الحسين بن علي وأتباع الأمويين . وتغلب في باديء الأمر على جميع أعدائه ، وعلى الجيش الأموي بقيادة عبد الله بن زياد قرب الموصل عام ٦٧هـ وقتل عبد الله في تلك المعركة على يدي ابراهيم بن الأشتر النخعي قائد جيش المختار . وكان عبد الله في عهد يزيد والي الكوفة عندما قتل الحسين بن علي ، وهو نفسه الذي أمر بحز رأسه وأرسله إلى يزيد .

وخشي عبد الله بن الزبير أن يفقد سلطته على الكوفة فأرسل جيشاً بقيادة أخيه مصعب وانضم اليه عندما وصل إلى البصرة المهلب بن أبي صفرة . وقد التحم مع جيش المختار في معركة قرب الكوفة انتهت بهزيمة المختار وفراره إلى داخل المدينة ، فلاحقوه وقتلوه مع عدد من جماعته .

وما كاد مصعب ابن الزبير ينتهي من اعادة النظام إلى الكوفة حتى تحرك عبد الملك بن مروان على رأس جيش زحف به من الشام إلى العراق ، ودخل الكوفة بعد أن تغلب على أنصار مصعب الذي أبى الاستسلام ، فقاتل هو وابنه عيسى وابراهيم بن الأشير وبعض أنصاره حتى قتلوا. وبذلك انتهى حكم بن الزبير في الكوفة عام٧١هـ.وتم للخليفة عبد الملك بيعة أهلها وانضم اليه القائد الشهير المهلب ابن أبي صفرة ، فأوفده لقتال الخوارج الذين استفحل خطرهم فحاربهم وانتصر عليهم في سلسلة من المعارك .

انتزاع الحجاز من ابن الزبير :

لم يبق أمام عبد الملك بن مروان من الخصوم الا الخليفة في مكة عبد الله ابن الزبير ، فأرسل له جيشاً بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي . فحاصر مكة وقام بقصفها بالمجانيق التي نصبت على الجبال المحيطة بها لارغام أهلها على طلب الأمان والطاعة لعبد الملك . وأصابت قذائف المنجنيق الكعبة الكريمة وقتل خلق كثير . وقاوم عبد الله بن الزبير الجيش الأموي خمسة أشهر . ورغم انضمام

بعض اتباعه واستسلام ولديه إلى الحجاج فقد ظل يقاوم ويقاتل حتى قتل ومات شهيداً في شهر جمادي الأولى عام ٧٣هـ (٦٩٢م) وبموته استتب الأمر لعبد الملك بن مروان حيث دانت له جميع البلاد الاسلامية دون منازع . ولقد كافأ عبد الملك قائده الحجاج فولاه على العراق سنة ٧٥هـ وكان الحجاج حازماً وعنيفاً . وقد تمكن من القضاء على سائر الفتن والثورات في العراق .[1]

ثورة بن الاشعث والقضاء عليها :

لم يكد الوالي الحجاج بن يوسف ينتهي من اخماد الفتن والثورات التي أوقدها الخوارج في العراق حتى فوجىء بتمرد عبد الرحمن بن الأشعث الذي أرسله الحجاج على رأس جيش لاخضاع كابول وحاكمها رتيبل الذي رفض دفع الجزية . ويظهر كما يقول الطبري وغيره من المؤرخين العرب ان الاشعث لم يوغل في أرض رتيبل ويفرض عليه الخضوع بل اكتفى بالحصول على بعض الغنائم فاعتبر ذلك الحجاج ضعفاً وتهاوناً وهدد الأشعث بعزله اذا لم ينفذ ما أمره به ، فتمرد ورجع مع جيشه واحتل البصرة ثم الكوفة فبايعه الناس وخلعوا الحجاج بن يوسف الذي لم يتمكن من مقاومة الثوار ، فاضطر إلى الانسحاب وسار حتى (دير تري)حيث ظل ينتظر مجيء النجدات من الشام.وعلى الفور أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان جيشاً اشتبك في شهر جمادي الثانية عام ٨٣هـ (٧٠٢م) مع جيش عبد الرحمن الأشعث في دير الجماجم ، واستمرت المعارك بينهما مائة يوم انتهو بانتصار الجيش الأموي وفرار ابن الاشعث إلى رتيبل في كابول مستغيثاً به ، فكتب الحجاج إلى رتيبل يأمره أن يرسله اليه مقيداً . فأذعن للأمر خوفاً وقتله وأرسل برأسه إلى الحجاج .

اخضاع البربر واستئناف الفتوح :

استأنف الخليفة عبد الملك بن مروان سير الفتوحات التي كانت توقفت منذ

(١) اشتهر الحجاج بن يوسف بخطبته التي ألقاها في الكوفة عندما دخل المسجد وهو متلثم بعمامة خز حمراء.

وفاة عُقْبة بن نافع الذي قتل في كمين نصبوه له البربر في جبال جبال الأوراس وهو عائد من طنجة عام ٦٣ هـ (٦٨٣م) وذلك في عهد يزيد بن معاوية . وبعد مقتله استولى البربر على القيروان التي كان أسسها عام ٥٠هـ واتخذها قاعدة لفتوحه .

وأرسل عبد الملك جيشاً كبيراً بقيادة حسان بن النعمان لمحاربة الروم واسترجاع المناطق التي كان استولى عليها عقبة بن نافع ، واخضاع البربر . وزحف الجيش من قواعده في برقة حتى وصل إلى قرطاجنة [1] واستولى عليها بعد معركة مع الحامية البيزنطية عام ٦٩٥م ، وعاد الروم واحتلوها بمساعدة أسطولهم البحري ، ثم عاد حسان بن النعمان وطردهم منها عام ٦٩٨م .

وواصل القائد حسان بن النعمان الزحف عبر جبال الأطلس حيث اشتبكت قواته مع قبائل البربر في عدة معارك كان أعنفها مع القبائل التي تتزعمها (الكاهنة) صاحبة الفكرة القائلة : أحرقوا الزروع واجعلوا الأرض قفراً لكي لا يجد العرب شيئاً يستفيدوا منه .

وفي طبرجة التي تبعد عن قرطاجنة ١٢٨ كيلو متراً دارت رحى أكبر وأعنف معركة بين جيش ابن النعمان وقبائل الكاهنة ، فهزم فيها البربر وقتلت زعيمتهم وذلك عام ٨٧هـ (٧٠٢م) .

وبعد ذلك النصر العظيم أقبل البربر على اعتناق الاسلام عن ايمان . وبفضل الاسلام تحولوا إلى عبادة الله وتحسنت أحوالهم وساد الأمن بلادهم .

---

(١) مدينة تاريخية تقع على بعد عشرة أميال غرب تونس ، أسسها الفينيقيون عام ٨١٤ قبل الميلاد .

الاصلاحات الكبرى

(بناء مسجد الصخرة والقبة)

من أهم الاصلاحات التي قام بها عبد الملك خلال خلافته التي دامت منذ عام ٦٥ ـ ٨٦هـ هي :

أولا ـ نقل الدواوين إلى اللغة العربية بدلا من اللغات الفارسية واليونانية والقبطية التي كانت تستخدم في الولايات الاسلامية .

ثانياً ـ وضع أساساً للنقد في الولايات وذلك بتعميم التعامل بنقود عربية [1] هي الدينار والدرهم والفلس ، والدينار كان من الذهب ضرب في عهد عبد الملك . أما الدرهم فكان من الفضة ، والفلس من النحاس .

٣ ـ بناء مسجد الصخرة والقبة في بيت المقدس . وقد اكتمل عام ٧٣هـ بأيدي صناع ماهرين اختيروا من الولايات الاسلامية ، ووكل رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام مولاه بالاشراف على العمل الذي استغرق حوالي سبع سنوات . وجاء بناء القبة من أحسن وأروع البناء ، فزينت جدرانها وسقفها بالفسيفساء والجواهر ، وصبت صفائح من الذهب على أبواب المسجد والقبة ، وفي الداخل وضع العود القماري المغلف بالمسك ، وقناديل الذهب والفضة . ولم يكن عهدئذ أروع وأجمل من بناء قبة الصخرة في العالم . ويعتبر مسجد الصخرة أقدم بناء اسلامي بقي حتى الآن .

• وهناك أعمال واصلاحات أخرى قام بها عبد الملك بن مروان في الولايات مثل اصلاح نظام البريد ، وتنظيم الدواوين . وفي آخر عهده طلب البيعة لابنه الوليد ومن بعده سليمان . وتوفي في دمشق عام ٨٦هـ (٧٠٥م) .

---

(١) قبل الاسلام لم يكن للعرب نقود خاصة بهم . وأول من ضرب النقود العربية هو الخليفة عمر بن الخطاب .
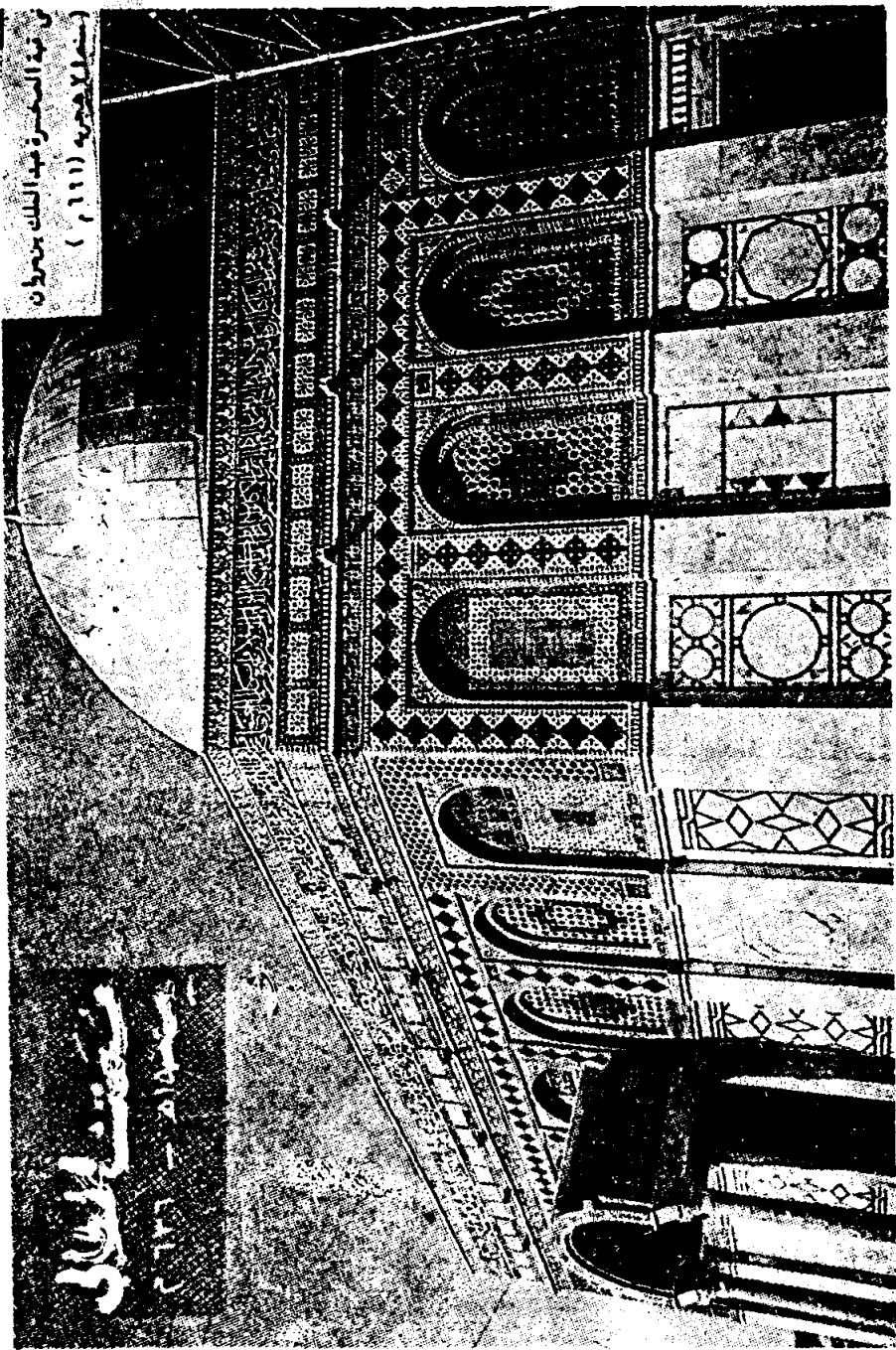
مسجد قبة الصخرة

اتساع الدولة الاسلامية

(في عهد الوليد بن عبد الملك)

تولى الخلافة الوليد بعد وفاة والده عام ٨٦هـ ، وفي عهده اتسعت الدولة الاسلامية وأصبحت حدودها من نهر السند وتخوم الصين شرقاً إلى المحيط لأطلسي غرباً . وكان عهده عهد رخاء واصلاحات عمرانية وفتوحات .

فتح تركستان والسند :

أمر الخليفة الوليد الوالي الحجاج بن يوسف بأن يرسل جيشاً لاخضاع تركستان وبلاد السند. وبقيادة قتيبة بن مسلم الباهلي أحد زعماء القيسيين الذي عينه الحجاج على ولاية خراسان بدلا من المفضل بن المهلب عام ٨٦هـ (٧٠٥م) ، خرج الجيش من مدينة ترو التي اتخذها مركزاً لحركاته الحربية إلى تركستان واشتبك في معارك ضارية مع قبائلها العديدة المتمرسة على القتال . وتمكن القائد البطل قتيبة المشهور في تاريخ العرب من دحر جيش خاقان الترك ملك بخاري والاستيلاء على مدن تركستان ، ثم دخل بلاد خوارزم وفتح سمرقند عام ٩٣هـ (٧١٢ م) .

وحطم قتيبة الأصنام التي كان يعبدها سكان تلك البلاد ، ونشر الاسلام ، وبانتشاره دخلت المدنية إلى بلاد تركستان .

وبينما كان قتيبة يفتح بلاد ما وراء النهر ، كان محمد بن القاسم الثقفي يزحف بجيش لفتح الهند عام ٨٩هـ (٧٠٨م) ، فعبر الساحل الغربي وفتح الديبل (كراتشي حالياً) وبنى فيها مسجداً ثم تابع سيره إلى بيرون واستولى عليها . ومنها تقدم عبر نهر السند واشتبك مع الملك داهر في معارك ضارية قتل فيها ملك السند وهزم جيشه عام ٧١٢م ، وبإيمان وعزيمة واصل الجيش المسلم زحفه فاتحاً بلاد ما وراء نهر السند حتى وصل إلى مدينة (الملتان) الواقعة جنوب البنجاب
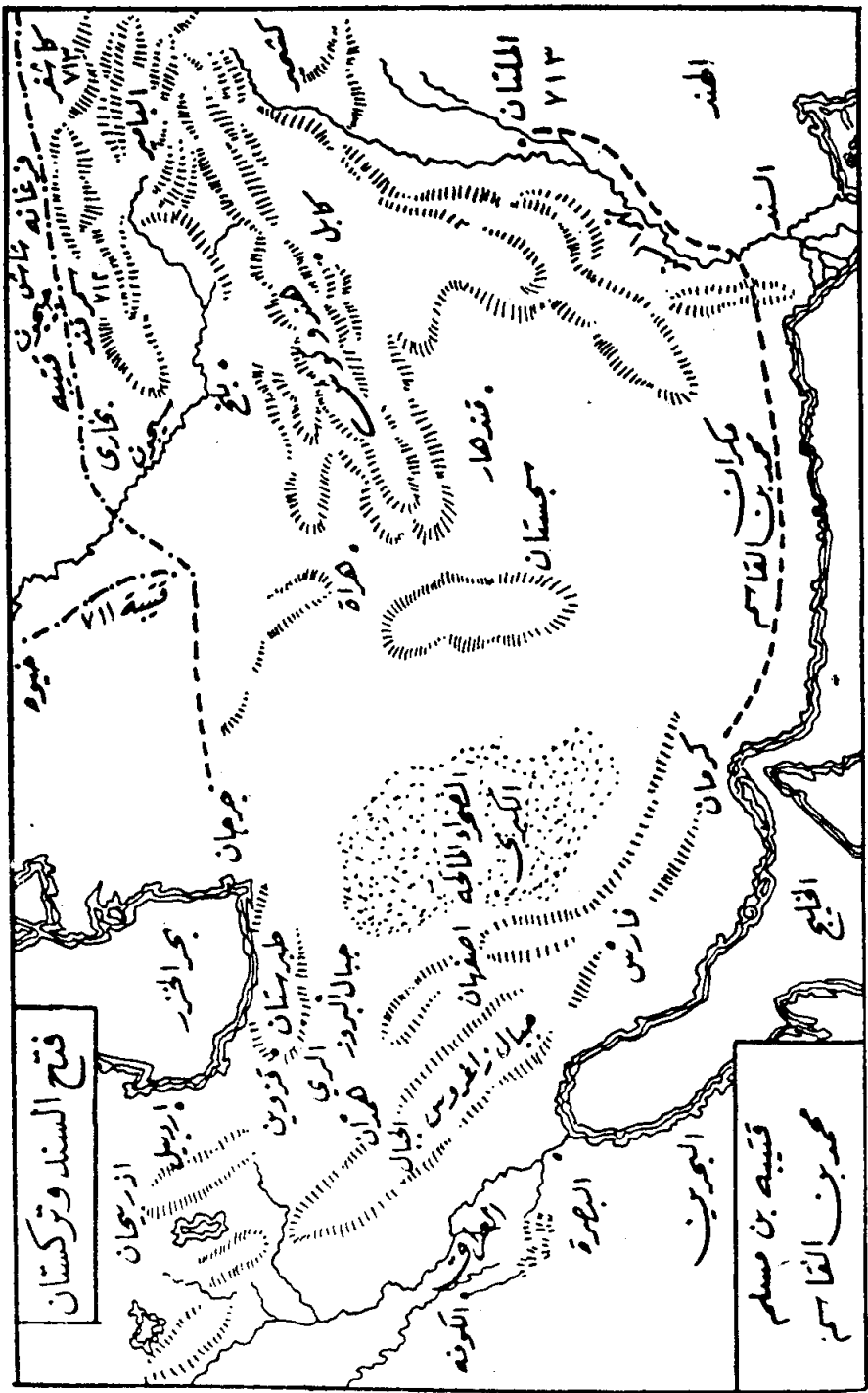
خريطة فتح السند وتركستان

فاستولى عليها وغنم منها غنائم عظيمة بما فيها المجوهرات التي كان الهنود يقدمون إلى الصنم الذي يحجون اليه والمعروف باسم مزار (بوذي شهير) ، وفي الملتان وقبل أن يستأنف القائد محمد ابن القاسم سيره داخل بلاد الهند ليواصل فتحها وصله نبأ وفاة خاله الحجاج بن يوسف ثم توفي بعده الخليفة الوليد فتوقف الفتح في بلاد الهند التي نشر فيها هذا القائد العربي رسالة الاسلام .

مراحل فتح الاندلس

في الوقت الذي كان قتيبة بن مسلم يقوم بفتح بلاد تركستان ومحمد بن القاسم الثقفي بلاد السند كان موسى بن نصير الوالي على افريقيا يقوم باخضاع المناطق الباقية من الشمال الافريقي . وقد تمكن من اجلاء البيزنطيين عن السواحل باستثناء سبتة الواقعة في المغرب . وكانت هذه مستعمرة حاكمها الكونت (جوليان) من أنصار ملك اسبانيا السابق (غيطشه) الذي خلعه فريق من القوط GOTHS [1] وقتله ، واعتلى العرش (رودريك) المعروف عند العرب باسم لذريق .

وعندما وصلت طلائع قوات موسى بن نصير إلى سبتة اتصل الحاكم جوليان بموسى واقترح عليه القيام بغزو الأندلس . كما تعهد له بأن يشترك معه بمحاربة القوط وملكهم رودريك . فدهش موسى ابن نصير . ونقل إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك عرض جوليان . فكتب له الوليد بقبول الفكرة ولكن حذره أن يأخذ الاحتياطات لكل الأمور خشية أن تكون هناك خدعة أو مكيدة مدبرة من حاكم سبتة جوليان .

---

(١) القوط GOTHS قبائل منأوروبا الشرقية احتلت اسبانيا في أوائل القرنالسادس الميلادي. وقبلهم أقامت قبائل الوندال الجرمانية في القرن الخامس الميلادي دولة في جنوب اسبانيا سميت راندالوسيا ، ثم أطلق عليها العرب اسم (الأندلس) .
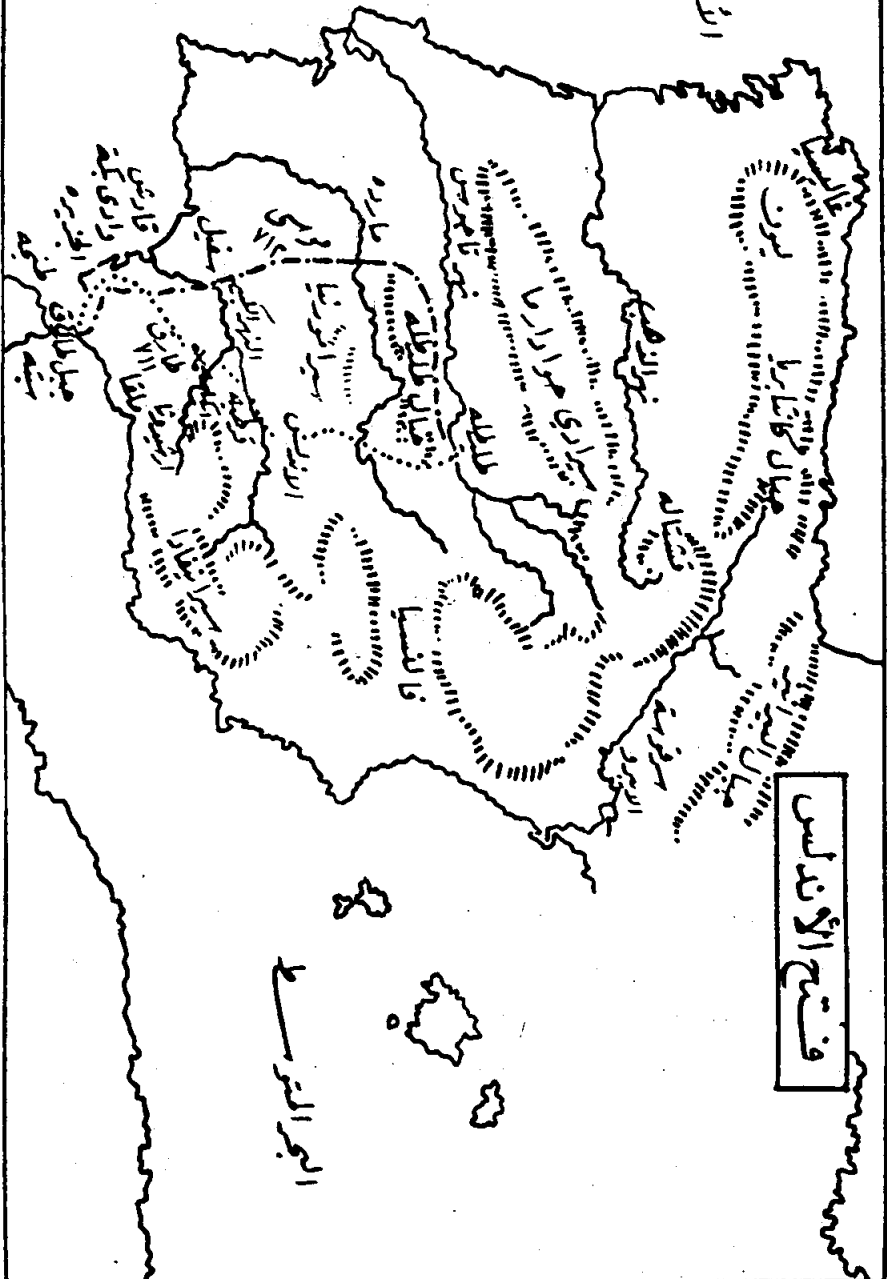
خريطة فتح الاندلس

الحملة الاستكشافية :

اختباراً لصدق نوايا حاكم سبتة طلب موسى بن نصير ارسال حملة استكشافية مشتركة ، مكونة من خمسمائة رجل بقيادة طريف بن مالك ، بربري مسلم – سنة ٩١هـ – ٧١٠م ، فجهز لها جوليان السفن اللازمة ، وتمكنت من انجاز مهمتها على خير وجه . وبعودتها حمل قائدها إلى موسى بن نصير أخبار عن تفكك القوطيين وتذمر الأهالي من حكمهم الاستبدادي . فأكدت له هذه الحملة صدق نوايا جوليان وضعف وسائل الدفاع عن الأندلس ، فقرر فتحها .

طارق بن زياد يدخل اسبانيا :

كان طارق بن زياد آمراً على طنجة عندما أمر موسى بن نصير أن يقود جيشاً قوامه سبعة آلاف مقاتل معظمهم من مسلمي البربر لفتح الأندلس . والمعروف تاريخياً ان طارق كان مولى لموسى بن نصير وان موسى وثق به وقربه اليه وولاه على بعض الكتائب في جيشه الذي حارب البربر والروم بافريقيا .

وفي سنة ٩٢هـ – ٧١١م عبر طارق بن زياد مضيق سبتة على سفن حاكمها جوليان ، وعندما نزل وجنوده قام باحراق السفن التي قدموا عليها وذلك خشية أن يفكر الجنود عند شدة القتال في التقهقر إلى حيث توجد السفن للهروب فيها . وكان نزوله على صخرة الأسد سميت فيما بعد باسمه وأطلق عليها اسم « جبل طارق » .

وبعد أن قام طارق بحرق سفنه وقف في جيشه خطيباً ، فحمد الله وحث جنوده على القتال بشجاعة وصبر وثبات . ومما قاله في خطبته الشهيرة : « أيها الناس ، أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله الا الصدق والصبر ، واعلموا أنكم هنا في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام ، وقد استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر

لكم الا سيوفكم ولا أقوات لديكم الا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم ، ولئن امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمراً ، ذهب ريحكم وتعودت القلوب من رعبها منكم الجرأة عليكم ، واعلموا انني لم أحذركم أمراً أنا عنه بنجوة .. إلى أن قال : واذا هلكت قبل وصولي اليه (يعني لملك القوط لذريق) فاخلفوني في عزيمتي هذه . » وبعد تلك الخطبة البليغة دب الحماس في جنود طارق وصار الكل منهم مثال البطولة والشجاعة يحذو حذو قائده .

هزيمة جيش رودريك :

وزحف طارق بن زياد لملاقاة جيش رودريك (لذريق) المؤلف من فيالق الفرسان والمشاة الكثيرةالعدد والتقى الفريقان عند وادي بكة قرب مصب «نهر سلادو» حيث التحم الجيشان في قتال مرير استمر سبعة أيام ، وفي اليوم الثامن توج المسلمون كفاحهم بالنصر ، وهزم القوط شر هزيمة ، وفر ملكهم رودريك ولكنه مات غريقاً . وتسمى هذه الموقعة « شريش » نسبة إلى مدينة شريش الاسبانية .

وبعد ذلك الانتصار العظيم الذي حققه المسلمون توجه طارق ابن زياد القائد العظيم إلى طليطلة عاصمة الأسبان عن طريق استجه فاستولى عليها . ثم أخذت تتهاوى القرى والمدن الأسبانية وبسرعة فائقة تم الاستيلاء على قرطبة واشبيلية وكثير من المدن الأخرى . وهكذا تمكن طارق بن زياد في مدة لا تتجاوز خمسة أشهر من فتح أكثر من نصف اسبانيا تحت لواء الاسلام ، فكتب له النصر المبين .

مساهمة موسى بن نصير :

وقد ساهم موسى بن نصير مع طارق في فتح اسبانيا ، فسار على رأس جيش قوامه ١٨ ألف مقاتل سنة ٩٣هـ — ٧١٢م ، واتجه إلى اشبيلية التي كانت تمردت بعد خروج طارق منها فحاصرها وارغم أهلها على الولاء والطاعة ، ثم فتح قرمونة (سيدونيا) ومدينة مريدة . وهناك بالقرب منها التقى موسى بن نصير

بطارق بن زياد فلامه على مخالفته لأوامره اذ اعتبر موسى توغل طارق في البلاد بدون مشورته عصياناً للأوامر ، ولهذا السبب وبخه .

وحاول طارق بن زياد بشتى السبل أن يبرر لموسى بن نصير سبب مخالفته مبيناً له الضرورة التي ألجأته لمواصلة القتال بحيث لو لم يفعل ذلك وتخاذل عن الاستمرار لهلك هو وجنوده . غير ان موسى لم يقتنع في بادىء الأمر رغم ما قدمه طارق من براهين واعتذاره اليه . وأخيراً زال سوء التفاهم بين القائدين وأكمل طارق مع موسى فتح اسبانيا .

العوامل التي ساعدت على الفتح :

لا شك بأن قوة ايمان المسلمين وصبرهم وشجاعتهم مجتمعة في بوتقة واحدة هي التي بفضلها حققوا تلك الانتصارات العظيمة . وهناك عوامل أخرى ساعدت على فتح هذه البلاد هي :

١ ــ استبداد ملوك القوط بالحكم وظلمهم للشعب .

٢ ــ ارهاق الأهالي بالضرائب الباهظة .

٣ ــ استعبد القوط طبقة من الشعب تعرف باسم طبقة العبيد ورقيق الأرض .

٤ ــ ارغام القوط لليهود باتباع الدين المسيحي قسراً والا تعرضوا للنفي ومصادرة أموالهم .

٥ ــ وجود خلاف ونزاع بين الأسرة المالكة من القوط وبين النبلاء القوطيين.

تلك العوامل ساعدت موسى وطارق على التقدم سريعاً وتحقيق الظفر تلو الآخر الى أن وصلا حدود اسبانيا الشمالية . ولقد راودت موسى بن نصير فكرة احتلال فرنسا عن طريق جبال البرانس ، ثم يتجه إلى الشرق فيفتح القسطنطينية ومنها يتوجه إلى الشام ، ولكن استدعاء الخليفة لموسى للحضور إلى دمشق مع طارق حال دون تحقيق رغبته .

ملاحظة : لقد عمل الولاة على الأندلس بعد موسى بن نصير لتحقيق الفكرة التي كانت تراوده ، أشهرهم البطل عبد الرحمن الغافقي الذي عبر جبال البرانس عام ٧٣٢ ميلادية وتمكن من الاستيلاء على جنوب فرنسا بعد أن هزم دوق أكوتانيا على ضفتي نهر غارون ، ثم اتجه إلى مدينة بوردو فحاصرها ودمر حصونها ، ومنها زحف شمالاً إلى بواتيه ، وهناك بين هذه المدينة ومدينة تور تقابل مع جيوش الفرنجة بقيادة (شارل مارتل) في موقعة أطلق عليها فيما بعد اسم (بلاط الشهداء) انتهت بمقتل عبد الرحمن الغافقي وانسحاب الجيش الاسلامي إلى اسبانيا . وعاد العرب بعد عامين واحتلوا مدينة افينيون التي تبعد عن مدينة مرسيليا ٢٢٠ كم . وقد سبق عبد الرحمن الغافقي في قطع جبال البرانس أحد القواد المسلمين (الحر بن عبد الرحمن الثقفي) ، فقام بحملات عام ٧١٧–٧١٨م على دوقات أكوتانيا ، وتابعها بعده السمح بن مالك الخولاني فاستولى على سبتمانيا التي كانت تابعة لمملكة القوط في عام ٧٢٠م ثم احتل اربونة سنة ٧٢١م ومنها زحف إلى تولوز حاضرة دوق اكوتانيا غير أن تلك الحملة باءت بالفشل بسبب استشهاد قائدها السمح بن مالك .

استدعاء الخليفة للقائدين موسى وطارق :

بعد الانتصارات التي حققها موسى بن نصير وطارق بن زياد استدعاهما الخليفة الوليد بن عبد الملك فامتثلا لأمره ، وقد عين موسى قبل سفر الموكب إلى الشام ابنه عبد العزيز نيابة عنه على الأندلس . وكان الموكب يضم بالاضافة إلى عدد كبير من الضباط والجنود والخدم عشرات من الأمراء ونبلاء القوط جلبهم موسى لتقديم فروض الطاعة لأمير المؤمنين . ووصل الموكب إلى دمشق في شهر جمادي الأولى عام ٩٦هـ (٧١٥م) بعد رحلة طويلة عبر الشمال الافريقي ومصر وفلسطين . فقام موسى بن نصير ومعه طارق بن زياد بتقديم الهدايا والتحف الثمينة للخليفة الوليد بن عبد الملك . وبعد أيام اعتل الوليد وأصيب بنكسة جديدة أقوى من الأولى التي أصابته قبل وصول الموكب إلى دمشق ومات . وتولى الخلافة سليمان

بن عبد الملك فعزل موسى بن نصير وعامله معاملة قاسية لا رحمة فيها . واتجه موسى إلى الحجاز حيث قضى آخر أيامه في فقر وحالة يرثى لها ، وتوفي بوادي القرى سنة ٩٧هـ عن عمر يناهز ٧٦ سنة . وبدوره طارق بن زياد فقد عزله سليمان عن القيادة ، وسمح له بالعودة إلى طنجة حيث توفي فيها سنة ١٠٢هـ (٧٢١) .

سياسة وليد العمرانية والاجتماعية :

لقد وصلت الدولة في عهد الوليد إلى ذروة الفتوحات ، واتسعت حركة العمران . ومن أهم الأعمال الاصلاحية التي قام بها خلال خلافته التي دامت حوالي عشر سنوات هي :

توسعة وتجديد المسجد النبوي بالمدينة المنورة ، والجامع الأموي في دمشق ، وأنشأ العديد من المدارس ، والمستشفيات الخاصة للمجذومين . وخصص الوليد لكل أعمى قائداً يقوده ولكل مقعد خادماً يخدمه ، وجعل للفقراء وأصحاب العاهات عطاء (صدقات) من بيت المال . وفي عهده تم تعريب الدواوين التي بدأها أبوه من القبطية واليونانية إلى العربية ، كما ازدهرت الفنون الاسلامية وخاصة فن العمارة .

وفي أواخر أيام الوليد أراد جعل ولاية العهد لابنه عبد العزيز بدلا من أخيه سليمان الذي كان أوصى له بالخلافة عبد الملك بن مروان من بعد الوليد. وقد دعا الولاة والقواد وكبار القوم لمبايعة ابنه فاستجاب لرغبته البعض منهم ، وكتب إلى أخيه سليمان يدعوه للحضور من الأردن ليفرض عليه مبايعة عبد العزيز فتمارض واعتذر ، ولكن اعتذاره لم يقتنع به الوليد فقرر أن يذهب اليه بنفسه ويرغمه على التخلي عن ولاية العهد الا ان الأجل المحتوم حال دون تحقيق رغبته فمات في جمادي الثانية سنة ٩٦هـ (فبراير — شباط ٧١٥م) .

خلافة سليمان بن عبد الملك

تولى الخلافة سليمان بعد وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦ﻫ (٧١٥م) ، وأول عمل قام به هو الانتقام من القواد الذين أيدوا أخاه الخليفة في محاولة انتزاع ولاية العهد منه وتولية عبد العزيز . ومن الذين انتقم منهم محمد بن القاسم الثقفي الذي فتح بلاد السند وعين والياً عليها ، فعزله وسجنه ، وقيل انه مات تحت وطأة التعذيب . وعزل أيضاً قتيبة بن مسلم الباهلي الذي فتح بلاد ما وراء النهر ووصل إلى داخل حدود الصين ، وقتل مع بعض بنيه واخوته . ونكل سليمان بموسى بن نصير وطارق بن زياد اللذين سبق ذكرهما .

وقد أعاد الخليفة سليمان القواد الذين كان الحجاج بن يوسف [١] عزلهم وأمر بترقيتهم . ومن بين هؤلاء يزيد بن المهلب فعينه والياً على خراسان .

محاولة فتح القسطنطينية :

جهز سليمان بن عبد الملك جيشاً لفتح القسطنطينية بقيادة أخيه مسلمة الذي كان في عهد الوليد عبر بقواته جبال طورس وتقدم داخل الممتلكات البيزنطية حتى وصل إلى نقطة لا تبعد عن القسطنطينية سوى ٢٢٥ كيلو متراً (عام ٧١٠م) . وأراد سليمان ان يحقق ما بدأه أخوه ، الا ان الجيش الذي أرسله بقيادة مسلمة طالت مدته دون أن يتمكن من فتح المدينة التي حاصرها براً وبحراً ، وعندئذ قرر أن يسير بنفسه على رأس جيش لنجدة أخيه ، ولما وصل إلى دابق ما بين منبج وانطاكية مرض مرضاً شديداً حال دون مواصلة سيره . ولما شعر بدنو أجله أراد ان يجعل ولاية عهد الخلافة في أبنائه ، وكان أكبرهم لا يتجاوز عمره الثامنة عشر سنة ، ولكنه عدل وأخذ بنصيحة أحد المقربين فأوصى بولاية عهد الخلافة من بعده إلى ابن عمه عمر بن عبد العزيز ومن بعده الى أخيه يزيد ومات سليمان في عام ٩٩ﻫ ٧١٧م دون أن يتمكن من فتح القسطنطينية .[٢]

---

(١) الحجاج هو أول من وافق على عزل سليمان بن عبد الملك من ولاية العهد ومبايعة عبد العزيز ابن الوليد . وكان سليمان ينوي معاقبته ولكن الحجاج توفي قبل الوليد .

(٢) فتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح العثماني عام ١٤٥٣ ميلادية ، وأطلق عليها فيما بعد اسم استنبول.

الخليفة الصالح عمر بن عبدالعزيز

لقد كتب سليمان بن عبد الملك وصيته بالخلافة إلى ابن عمه عمر بن عبد العزيز وختمها بخاتمه وطلب من بني أمية مبايعة من اختاره لهم دون أن يخبرهم عن اسمه فبايعوه ، ولما فتحت الوصية بعد وفاته وجدوا أنها مكتوبة باسم عمر بن عبد العزيز فجددوا له البيعة ورضي عنه الجميع لما فيه من تقوى وصلاح وعلم بأمور الشريعة الاسلامية وحسن خلق وتواضع .

والخليفة الجديد ولد سنة ٦٢هـ ، أبوه عبد العزيز بن مروان كان والياً على مصر في عهد أخيه الخليفة عبد الملك ، وأمه أم عاصم ليلى بنت عمر بن الخطاب . أخذ الفقه عن كبار فقهاء المدينة المنورة ، وفيها درس الأدب والعلوم . وكان خير خلفاء بني أمية وأحسنهم سيرة وسريرة . لقب بالخليفة الصالح ، وهو صالح ومصلح ، سار على نهج جده عمر بن الخطاب في اتخاذ العدل أساساً للحكم ، وفي معيشته وتقشفه في ملبسه .

وعندما تولى الخلافة ذهب إلى جامع دمشق (الجامع الأموي) وخطب في الناس فقال : (لست بقاض ولكني منفذ ، ولست بمبتدع ولكني متبع ، ولست بخير من أحدكم ولكني أثقلكم حملاً) وبعد الصلاة أحضروا الركائب المعدة خصيصاً للخليفة فرفض أن يمتطيها وقال لا أغير دابتي . وأمر ببيع تلك الدواب ورد ثمنها إلى بيت مال المسلمين .

اعادة الشيعة إلى حظيرة السلم :

اتخذ عمر بن عبد العزيز شعار خلافته قول الله عز وجل : « ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون » . ولقد قام بعزل الولاة الذين ثبت لديه أنهم ظلموا الرعية وحققوا مكاسب شخصية ، وأبدلهم بولاة صالحين متقين مخلصين قد آثروا آخرتهم على دنياهم . ولتصفية القلوب وتوحيد كلمة المسلمين أمر عماله بمعاملة

الشيعة معاملة طيبة وانصاف كل مظلوم منهم . وبهذه السياسة الحكيمة الرشيدة قضى على الفتن والحزازات ، وأعاد الشيعة إلى حظيرة السلم ، بدليل انهم لم يثور وا خلال خلافته .

الغاء الضرائب المستحدثة :

كان خلفاء بني أمية السابقين يأخذون الجزية من الأعاجم رغم اسلامهم بالاضافة إلى الجزية التي تؤخذ من اهل الذمة[1] ، فمنع عمر بن عبد العزيز أخذ الجزية ممن أسلم من أهل الذمة ، كما أعفى المسلمين الأعاجم منها . فأدت هذه السياسة الحميدة إلى دخول كثير من الناس في دين الله أفواجاً ، منهم من اعتنق الاسلام محبة في عدله ومنهم من دخل الاسلام هروباً من دفع الجزية . وألغى الخليفة يضاً الضرائب التي ابتدعها خلفاء بني أمية ، والرسوم التي كان الحجاج فرضها في العراق على الأراضي وأجور البيوت والنكاح وخراج من أسلم من أهل الذمة ، ولم يبق سوى الضرائب التي كانت مفروضة في عهد الخلفاء الراشدين ، فأثر ذلك على الخزينة مما جعل أحد الولاة يشكو إلى عمر نقص الأموال والعجز نتيجة لكثرة الداخلين في الاسلام ، مستأذناً من عمر في استمرار فرض الجزية ، فلم يقره على رأيه وقال له : قبح الله رأيك ، ان الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً ولم يبعثه جابياً .

اعادة الاملاك المغتصبة إلى أصحابها :

مراعاة للعدل وتنفيذاً لأحكام الشريعة الاسلامية السمحة فقد أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بإعادة الأراضي وغيرها من الأملاك التي أغتصبت في عهد بعض الخلفاء الأمويين إلى أصحابها ، والتي لم يكن لها صاحب ترد إلى بيت مال المسلمين .

---

(١) النصارى واليهود .

وسبق لعمر الخليفة الصالح أن ورث أرضاً عن أبيه عبد العزيز فأعادها إلى بيت المال . كما طلب من زوجته فاطمة بنت عبد الملك بن مروان بأن تقدم ما وهبها والدها من مجوهرات إلى خزينة المسلمين فاستجابت لطلبه بغبطة وقدمت حليها وجواهرها .

إزالة الظلم واشاعة العدل :

وألغى الخليفة عمر أساليب الحكم التي كانت متبعة في عهد الخلفاء الأمويين الذين سبقوه . فقد كان الولاة يصدرون الأحكام بالقتل وقطع اليد دون الرجوع إلى الخليفة ، وكثيراً ما كانوا يرتكبون أخطاء فادحة في تصرفاتهم وأحكامهم مما أساء إلى سمعة الدولة والقضاء وأدى ذلك إلى التذمر والسخط في بعض الولايات وخاصة العراق في عهد الوالي الحجاج بن يوسف .. تلك الأساليب الضارة والفاسدة ألغاها عمر بن عبد العزيز ، وأمر الولاة بأن لا ينفذوا حكماً بقتل أو قطع يد أحد إلا بعد استشارته ، كما أمرهم بأن لا يأخذوا الناس بالظنة بل بالبينة وما جرت عليه السنة . وبذلك أزال الظلم وأشاع العدل .

سياسة السلم ونشر الاسلام :

لقد نعمت البلاد في عهد عمر بن عبد العزيز بالهدوء والاستقرار والاطمئنان، بدليل أنه لم تقع فتنة أو حركة تذمر أو تمرد طيلة خلافته التي اتخذت النهج الاسلامي الصحيح قاعدة للحكم والعدل .

وفي عهده توقف التوسع في الفتوحات لأن البلاد التي سبق وتم فتحها كانت تستدعي الاهتمام وبذل الجهود لتنظيم شؤونها وتحسين أحوال أهلها . ولذلك أوقف مواصلة الفتوحات ليكرس جهوده للشؤون الداخلية وتقوية دعائم الدولة . وقد أمر مسلمة بن عبد الملك قائد الجيش الذي كان الخليفة سليمان أرسله لفتح القسطنطينية ولم يتمكن من فتحها بالعودة مع جيشه إلى الشام .

وكان لنظام المساواة بين المسلمين من العرب وغيرهم الذي طبقه الخليفة أثره العظيم

في البلاد التي افتتحت . فقد دخل كثير من أهلها في الدين الاسلامي دونما خوف أو اكراه . وحتى ملوك السند والهند استجابوا لدعوة عمر بن عبد العزيز ودخلوا في دين الله .

وفاة الخليفة الصالح :

توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله وله من العمر ٣٩ سنة . في شهر رجب سنة ١٠١هـ (شباط – فبراير ٧٢٠م) بقرية دير سمعان شمال سورية . وقيل انه مات مسموماً . وكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر كرسها لخدمة الاسلام والمسلمين . وقد كان دخله في كل سنة قبل أن يتولى الخلافة ٤٠ ألف دينار فترك دخله لبيت مال المسلمين ولم يقتطع منه سوى ٤٠٠ دينار في السنة . حقاً أن عمر الخليفة الصالح كان مثالاً للعدل والانصاف وكرم النفس والتقوى والورع . نهج طريق جده عمر بن الخطاب . كما لم يتزوج غير امرأة واحدة هي فاطمة بنت عبد الملك بن مروان .

وقد رثاه جرير [1] فقال :

ينعى النعاة أمير المؤمنين لنـــــا	يا خير من حج بيت الله واعتمرا
حملت أمراً عظيماً فاضطلعت به	وسرت فيـــه بأمر الله يا عمرا
الشمس كاسفة ليست بطالعـــة	تبكي عليك نجوم الليل والقمرا

ورثاه الشاعر محارب بن دثار . فقال :

لو أعظم الموت خلقاً أن يواقعـــه	لعدله لم يصبك الموت يا عمـــر
كم من شريعة عدل قد نعشت لهم	كادت تموت وأخرى منك تنتظر
يا لهف نفسي ولهف الواجدين معي	على العدول التي تغتالهـــا الحفر

---

(١) جرير شاعر مشهور من قبيلة كليب ، كنيته أبو حزرة ، ولد في اليمامة سنة ٦٥٣ م ، وتوفي سنة ٧٣٢ م .

تدهور حكم بني أمية

بعد وفاة الخليفة عمر بن عبد العزيز بدأ نجم بني أمية في الأفول . فالخلفاء الذين تعاقبوا على الحكم لم يكن البعض منهم على مستوى المسؤولية وبالتحديد الذين انغمسوا في الترف واللهو والاسراف . وقد أدى استهتارهم واسرافهم وانقسامهم على بعضهم البعض إلى ضعف الدولة الأموية وتدهورها .

وخلال هذه المرحلة التي دامت ثلاثين سنة تولى الخلافة خمسة من بني أمية منهم واحد برز وأصلح الأمور هو هشام بن عبد الملك . وفيما يلي لمحة عن هذه المرحلة من الخلافة والخلفاء الذين تعاقبوا على سدة الحكم :

يزيد الثاني بن عبد الملك :

تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك بعد وفاة عمر بن عبد العزيز (سنة ١٠١هـ - ٧٢٠م) حسب وصية أخيه الخليفة سليمان بن عبد الملك. وكان أضعف شخصية فيها العهد الأموي . تأثر في بداية حكمه بعمر بن عبد العزيز الخليفة الصالح . ولكن سرعان ما انقلب إلى حياة الترف . وفي عهده نشبت الفتن الداخلية وتأزمت الحالة وكان سببها سوء ادارته وتصرفاته . دامت خلافته أربع سنين ، وتوفي في الأردن سنة ١٠٥هـ (٧٢٤م) . وقيل كل مرضه السل فقضى عليه .

هشام بن عبد الملك :

بويع هشام بن عبد الملك [١] بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد سنة ١٠٥هـ (٧٢٤م) ، وكان له من العمر أربع وثلاثون سنة . وقد تمكن من اصلاح ما أفسده يزيد بعد جهود تكللت بالنجاح . وبذلك أوقف التيار الذي كاد يجرف الدولة الأموية إلى هاوية الانهيار .

---

(١) ولد هشام بدمشق عام ٧٢ هـ ، أبوه عبد الملك ، وأمه عائشة بنت هشام بن اسماعيل المخزومي .

وفي عهد الخليفة هشام فتح الجيش العربي بقيادة مسلمة بن عبد الملك عدداً من مدن الروم منها قيسارية عام ٧٦٦م وقونية وخرشنة . وأخذت الأساطيل البحرية العربية تشدد غاراتها على ثغور الروم في حوض البحر الأبيض المتوسط . وكان أمير البحر عهدئذ عبد الرحمن بن معاوية ومن أكبر قواده عبد الله ابن عقبة .

هزيمة الترك واخضاعهم :

وفي الوقت الذي كانت فيه الجيوش الاسلامية تقوم بقمع الفتن الداخلية التي اندلعت قبل ان يتولى هشام الخلافة ولم تخمد الا بعد أن أصلح هشام الأمور بحكمة ومقدرة، كان الترك في بلاد ما وراء النهر (جيحون) يوحدون صفوفهم ويجهزون قواتهم للقيام بحركة في بلاد تركستان التي كان قتيبة بن مسلم أتم فتحها عام ٩٣هـ .

وأمر الخليفة هشام والي خراسان أسد بن عبدالله القسري أن يزحف بالجيش لتأديب الترك ، فالتقى بمجموعات في (فرغانة) حيث جرت معركة حامية الوطيس انتهت بهزيمة الترك وقتل أميرهم مع عدد كبير من قواته (سنة ١٠٨هـ — ٧٢٧م) . وبالوقت الذي تمت فيه هزيمة الترك في فرغانة كانت هناك جموع منهم بقيادة خاقان ملك الترك تهاجم اذربيجان ، فتصدى لها الحارث بن عمرو آمر المنطقة [1] واشتبك معها في معركة قرب مدينة وارثان . وسرعان ما لحقت الهزيمة بالترك . وهرب الخاقان مع فلول قواته المنهزمة .

وفي سنة ١١٢هـ أعاد الترك الكرة من جديد . فأرسل الخليفة هشام بن عبد الملك لقتالهم الجنيد بن عبد الرحمن الذي كان عينه الخليفة والياً على خراسان سنة ١١١هـ خلفاً للوالي المعزول أشرس ابن عبدالله . وعبر الجنيد بقواته إلى ما وراء النهر وسار حتى وصل مسافة لا تبعد عن سمرقند سوى أربعة فراسخ .

---

(١) الحارث بن عمرو بطل معركة وارثان ، جرح في المعركة ومات شهيدا .

فهاجمه الخاقان بقوات كبيرة من الترك . ورغم قلة عدد المسلمين بالنسبة إلى أعداد عدوهم الهائلة فقد كتب لهم النصر واستعادوا سمرقند وبخارى . وفي هذه المعركة القاسية استشهد من المسلمين جماعة كثيرة . وقتل من الترك عدد كبير .

أما في منطقة أذربيجان فقد استعاد القائد سعيد بن عمرو الجرشي مدينة اردبيل التي كان استشهد في مرجها القائد الجراح ابن عبدالله الحكمي . وهزم هذا القائد الباسل قبائل الخزر والترك هزيمة نكراء . وفي أعقاب تلك الموقعة ولى الخليفة هشام أخاه مسلمة ابن عبد الملك ارمينيا واذربيجان . وسار بجيش ففتح عدة مناطق واوغل حتى وصل إلى بلنجر .

وفي سنة ١١٤هـ (٧٣٢م) تولى ارمينيا واذربيجان مروان بن محمد (حفيد مروان بن الحكم) . فأمده الخليفة هشام بجيش كبير فتح به بلاد الخزر ودانت له قبائلها وملكها .

ثورة البربر والقضاء عليها :

سبق وذكرنا ان البلاد كانت في حالة سيئة عندما تولى الخلافة هشام بن عبد الملك . ففي الشمال الافريقي اتخذ الوضع طابعاً ينذر بالخطر . وراح البربر يستعدون للقيام بحركة تمرد ضد الحكم الأموي وهكذا حدث . فقد ثاروا في منطقة طنجة وجبال الأطلس والقيروان عام ١٢٢هـ (٧٤٠م) وغاروا على الحاميات العربية وقتلوا مجموعة كبيرة من أفرادها . وعلى الفور أرسل الخليفة حملة عسكرية لتأديبهم ولكنها لم تتمكن من اخضاعهم واخماد حركة العصيان التي اتسعت وزادت خطورتها . وخشي الخليفة هشام من نكسة جديدة فجهز جيشاً بقيادة البطل حنظلة بن صفوان وأمره بالزحف على البربر . وتمكن بعد معارك عنيفة دارت في القيروان من انزال الهزيمة بقبائل البربر الثائرة . ثم واصل سيره إلى طنجة ففك حصارها ودخلها ظافراً . ومنها اتجه إلى جبال الأطلس حيث تم اخضاع العصاة . وبذلك أعاد الأمن والاستقرار إلى سائر المناطق في الشمال الافريقي عام ٧٤٢ — ٧٤٣م .

من التقويم الى التصدع والاضمحلال

لا شك بأن هشام بن عبد الملك أصلح الأمور إلى حد ما وأنقذ الخلافة الأموية التي كانت على وشك الانهيار . فقد قمع الثورات التي اندلع لهيبها في خراسان والعراق والشمال الافريقي . وأخضع الترك وقبائل الخزر . كما افتتحت الجيوش الاسلامية في عهده عدة مدن من المملكة البيزنطية وجزء من جنوب بلاد الفرنجة (حالياً فرنسا) ووصلت طلائعها إلى سواحل الريفيرا المتاخمة لمملكة لومبارديا (حالياً ايطاليا) عام ٧٣٨ ميلادية .

وأخطر حادثة وقعت في الكوفة في عهد الخليفة هشام هو مقتل حفيد علي ابن أبي طالب (زيد بن علي زين العابدين بن الحسين) . وكان سبب ذلك هو ان زيداً لما جاء إلى الكوفة لتسوية قضية تتعلق به شخصياً التف حوله أهل الكوفة وبايعته فئة كبيرة. واتفق مع أنصاره للتأهب والخروج في موعد حدد تاريخه (مساء الأربعاء من مستهل صفر سنة ١٢٢هـ — ٧٤٠ م) وفي الموعد المحدد علم الوالي يوسف بن عمر الثقفي بالخطة . فأمر بجمع الناس في المسجد لمنعهم من الخروج . ولما حانت ساعة الموعد لم يخرج مع زيد الا عدد قليل من أنصاره لا يتجاوزون ثلاثمائة فارس اشتبكوا في معركة عنيفة مع الجيش الذي سيره والي الكوفة . وقد أصيب زيد بن علي بسهم فقتله . كما قتل بعض أنصاره وعدد من من الجيش الأموي .

وخلاصة القول أن هشام بن عبد الملك قد أعاد للدولة الأموية هيبتها وقوتها وحفظها من التصدع والانهيار . وكان يشبه إلى حد كبير معاوية في دهائه وعبد الملك في مقدرته . ومن أهم الاصلاحات العمرانية التي قام بها هي : فتح الآبار على طريق الحج إلى مكة المكرمة وشق قنوات الري ، وتحصين الثغور .

وتوفي هشام وهو في الثالثة والخمسين من عمره سنة ١٢٥هـ ٧٤٣م بعد حكم دام تسعة عشر عاماً وستة أشهر .

وبعد وفاة هشام تدهور الوضع وانقسم البيت الأموي على نفسه ، وأخذت الحالة تسوء والدولة تسير إلى طريق الزوال .

وفي هذه الفترة التي استمرت سبع سنوات وانتهت بزوال الدولة الأموية وظهور الدولة العباسية تعاقب خلالها على سدة الحكم أربعة خلفاء من الأمويين هم :

أولا ـ الوليد الثاني بن يزيد :

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وأمه بنت محمد يوسف الثقفي . بويع بالخلافة بعد وفاة عمه هشام سنة ١٢٥هـ (٧٤٣م) بناء على وصية والده يزيد الثاني الذي تولى الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز . وكان الوليد لا يصلح للحكم .. تهاون واستخف في أمر الخلافة والرعية . وغاص في جحيم المنكرات فكرهه الناس وسادات بني أمية وقواد الجيش . وأخيراً قرروا التخلص منه ومبايعة ابن عمه يزيد ابن الوليد الذي تزعم الحركة وقضى على الوليد ، وقتل في شهر جمادي الثانية سنة ١٢٦هـ بعد حكم دام سنة وثلاثة شهور .

ثانياً : يزيد بن الوليد الأول

هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، وأمه شاهفرند بنت (فيروز) ابن يزدجرد آخر ملوك الفرس ، وأم فيروز بنت (شيرويه) بن كسرى وأم أم فيروز بنت ملك الروم ، وأم شيرويه بنت خاقان ملك الترك .

عهده للشعب :

تولى الخلافة بعد الوليد ، ومما قاله في خطبته : (أيها الناس ، اني والله ما خرجت أشراً ولا بطراً ولا حرصاً على الدنيا ، ولا رغبة في الملك ، واني لظلوم نفسي ، ان لم يرحمني ربي . ولكني خرجت غضباً لله ولرسوله ودينه ، وداعياً إلى كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وحين أطفىء نور أهل

التقى . وظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمة والراكب كل بدعة ، وانه لإبن عمي في النسب . فلما رأيت ذلك استخرت الله في أمره ، ودعوت إلى من أجابني من أهلي وأهل ولايتي . فأراح الله منه العباد والبلاد بحول الله وقوته . ولا أنقل مالاً من بلد إلى بلد حتى أسد ثغرة . ولا أغلق بابي دونكم فيأكل قويكم ضعيفكم ، ولكم عندي أعطياتكم حتى تستدر المعيشة بين المسلمين . واذا لم أوف لكم . ورأيتم أحداً أردتم بيعته فأنا أول من يبايعه ويدخل في طاعته . واستغفر الله لي ولكم) .

وكان الخليفة يزيد [1] محباً للخير . مبغضاً للشر . عادلا ومتواضعاً دعا الناس إلى التمسك بدينهم واطاعة ربهم . وأوصى الولاة بالتعاون مع الأهالي والسهر على مصالحهم .

لم يكتب ليزيد العمر الطويل . فقد مات بالطاعون كما قيل في نفس السنة التي بويع فيها بالخلافة (١٢٦هـ – ٧٤٤م) . وكانت مدة خلافته ستة أشهر .

ثالثاً : ابراهيم بن الوليد :

هو ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك ، أخذ له يزيد البيعة قبل وفاته من أهل دمشق وقواد الجيش . وتولى الخلافة بعد وفاة أخيه في الوقت الذي عاد مروان ابن محمد بن مروان من بلاد اذربيجان وارمينيا حيث كان حاكماً عليها . وقد زحف إلى دمشق على رأس جيش مدرب . وعند عين الجر (بين بعلبك ودمشق) اشتبك مع جيش الخليفة ابراهيم وهزمه . ثم دخل العاصمة وبايعه كبار القوم. أما ابراهيم فهرب إلى حران ومعه ابن عمه سليمان بن هشام قائد الجيش وبعد أن استتب الأمر لمروان بايعه ابراهيم الخليفة المعزول وابن عمه وأصحابه .

---

(١) لقب يزيد بالناقص لأنه الغى زيادة عطاء الجنود والقواد التي كان الوليد بن يزيد زادها لهم لكسب تأييدهم .

رابعاً : مروان الثاني وزوال الدولة :

هو حفيد مروان بن الحكم ، قضى عدة سنوات في الحروب يقود الحملات العسكرية لقمع الثورات واخضاع الترك وقبائل الخزر . ولقب بمروان الحمار لأنه كان يصبر على مكاره الحرب ويقاوم الشدائد والمصاعب ببسالة وبدون وهن أو ملل .

تولى الخلافة سنة ١٢٧هـ والبلاد في حالة اضطراب ، فكرس جهوده لاخماد اللهيب المستعر وانقاذ الدولة الأموية واعادتها إلى مكانتها . وبقوة وحزم قام بقمع حركات التمرد والعصيان والفتن التي تشعبت واندفعت كالسيل الجارف . وتمكن في المرحلة الأولى من خلافته التي دامت خمس سنين وعشرة أشهر من قمع الثورة التي قامت في العراق بزعامة الضحاك بن قيس الشيباني وقتله ، كما قمع الثورة في حضرموت وقتل زعيمها المختار بن عوف الازدي المعروف باسم أبي حمزة الذي كان دخل الحجاز مع قواته واستولى على المدينة ومكة . وبالوقت ذاته تم القضاء على عبدالله بن يحيي وجماعته في اليمن الذين كانوا بايعوا المختار بن عوف . ونشبت أيضاً ثورات في حمص ودمشق وفلسطين فقمعها جميعها الخليفة مروان . وكان أشدها خطراً عليه هي حركة ابن عمه سليمان بن هشام ابن عبد الملك الذي حاول انتزاع الخلافة من مروان بالقوة ، فاستولى على قنسرين واعتصم فيها مع جنوده . وكان أثناءها مروان في حران ، فهب مسرعاً على رأس جيش وهزم قوات سليمان وقتل عدداً كبيراً من جنوده . أما سليمان نفسه فتمكن من الفرار إلى تدمر .

انطلاق الدعوة العباسية :

وبينما كان مروان منهمكاً في اخماد الثورات كان نشاط الدعوة لبني العباس قد اتسع نطاقه في خراسان بقيادة أبو مسلم الخراساني [1] الذي انتدبه

(١) هو عبد الرحمن بن مسلم أبو مسلم الخراساني ، قيل كان يسمى ابراهيم بن عثمان ابن يسار ، ولد باصفهان ، غير اسمه بأمر ابراهيم الامام وتسمى عبد الرحمن بن مسلم .

ابراهيم بن محمد الامام العباسي لنشر الدعوة . وكان ابراهيم يقيم مع أهل بيته واخوته وأعمامه في قرية الحميمة بالبلقاء (الأردن) .

واستطاع أبو مسلم الخراساني أن يضمن لنصرة الدعوة العباسية مجموعة كبيرة من أهل خراسان . وحسب الخطة المرسومة اتخذ خراسان قاعدة للزحف على العراق .

ولم يكن الخليفة مروان يعلم ما يجري في الخفاء الا بعد أن اطلع على رسالة سرية كان ابراهيم الامام بعث بها إلى أبي مسلم يأمره بالاسراع في تنفيذ الخطة . وفي الحال أمر عامله في البلقاء بالقاء القبض على ابراهيم واحضاره مقيداً إلى حران التي كان مروان اتخذها مقراً لقيادته . فودع ابراهيم أهله وأوصاهم بأن يكون الخليفة من بعده أخوه أبو العباس السفاح ، كما أمرهم بالسير إلى الكوفة . ولما وصل إلى حران زج به في السجن .

وهكذا ظهرت الدعوة العباسية إلى الوجود ، وقوي مركزها في خراسان بعد أن أعلن القسم الأكبر من أهل مدينة (مرو) مساندتهم لحركة أبي مسلم الخراساني . وقد حاول الوالي نصر بن سيار التصدي للحركة والقضاء على اتباعها ، فأرسل إلى أمير المؤمنين مروان بن محمد كتاباً يخبره بحقيقة الوضع المتردي ويطلب منه ارسال نجدات عسكرية . ومما قاله في كتابه للخليفة الأموي :

اقول مـــن التعجب ليت شعري أأيقاظ أميـــة أم نيـــــام ؟؟
فإن كـــانوا لحينهموا نيامـــــاً فقل قوموا فقد حـــان القيـــام

الا ان مروان لم يستطع أن يفعل شيئاً لانشغاله باخماد ثورة الخوارج . والذي زاد الطين بلةً وجعل من الصعب على نصر بن سيار مقاومة الحركة والقضاء على أبي مسلم هو اندلاع الفتنة بين العرب القيسيين واليمنيين في خراسان . فاستغلها أبو مسلم الذي كان له يد فيها ، وتمكن من الاستيلاء على مدينة مرو عام ١٣٠ هـ (٧٤٧م) ورفع العلم العباسي الأسود فوق الامارة .

وانسحب نصر بن سيار من خراسان إلى مدينة الري (جنوب شرق طهران) حيث ظل يترقب وصول نجدات ، ولكن لم يصله شيئاً . واضطر بعـــد أن

استولت قوات الخراساني على مدينة نيسابور وأصبحت على أبواب مدينة الري إلى الانسحاب مع جماعته إلى مدينة همدان ، وفيها توفي سنة ١٣١هـ (٧٤٨م) .

وبعد أن أصبحت خراسان بقبضة أبي مسلم بالاضافة إلى عدد من المدن الهامة التي استولت عليها قواته بقيادة قحطبة بن شبيب هي : (نيسابور ، الري ، اصفهان ، نهاوند) أمر قحطبة بالزحف على الكوفة ، فاشتبك في معركة عنيفة مع الجيش الأموي بقيادة الوالي يزيد بن هبيرة ، وكانت نتيجتها احتلال الكوفة ورفع العلم العباسي . وفي أثناء هذه المعركة الحاسمة قتل قحطبة قبل أن تحتل قواته المدينة التي دخلتها في اليوم التالي بقيادة ابنه الحسن ، سنة ١٣٢هـ (٧٤٩م) وأخذت البيعة لأبي العباس السفاح .

معركة نهر الزاب أنهت الامويين :

بعد سقوط الكوفة بيد العباسيين ، زحف الخليفة مروان على رأس جيش إلى العراق . وعندما علم أبو العباس السفاح بنبأ تحرك مروان أرسل جيشاً بقيادة عمه عبدالله بن علي . والتقى الفريقان على ضفاف نهر الزاب الكبير على بعد ١٢٥ كيلومتراً من الموصل عام ٧٥٠م وقد هزم الجيش الأموي لعدة أسباب أهمها : (١) ضياع خراسان ودحر جيش يزيد بن هبيرة في الكوفة والفوضى والانقسام أضعف معنويات الجيش . (٢) الخلاف الذي حصل بين مروان وبعض قواده قبل بدء المعركة . وبعد الهزيمة حاول مروان وجيشه عبور النهر للفرار فغرق من الجنود كما يقول بعض المؤرخين أكثر ممن قتلوا في المعركة . وكان من بين الغرقى ابراهيم بن الوليد بن عبد الملك الذي تولى الخلافة بعد وفاة أخيه يزيد بن الوليد وخلعه مروان .

ان معركة الزاب أنهت الحكم الأموي والخليفة مروان الذي ظل يستمر بالانسحاب وبسرعة حتى وصل إلى مصر . وفي قرية بوصير بالفيوم داهمته ثلة من جنود العباسيين كانوا يطاردونه فعثروا عليه في الكنيسة التي لجأ اليها ليلاً وأحاطوا به ، فخرج اليهم وقاتلهم ، وفي النهاية تغلبوا عليه وقتلوه . حدث ذلك

في شهر ذي الحجة سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م) .

وقد فتحت المدن أبوابها في بلاد الشام وفلسطين للجيش العباسي ما عدا دمشق عاصمة الأمويين المحصنة تحصيناً قوياً . ففرض عليها عبد الله بن علي عم السفاح حصاراً استمر أياماً وأخيراً وقع الخلاف بين أهلها وانقسموا إلى فئتين الأولى رفضت التسليم والثانية رغبت بالتسليم ، واشتبك القتال بين الفريقين داخل أسوار المدينة فساعد ذلك القائد العباسي على فتحها في العاشر من شهر رمضان سنة ١٣٢هـ (حزيران — يونيه ٧٥٠م) . وقتل بالاضافة إلى الأمويين مجموعة كبيرة من أنصارهم ، كما أحرقت راية الدولة الأموية البيضاء ، وارتفعت فوق القصور وأحياء العاصمة أعلام العباسيين السوداء .

واستمر العباسيون يلاحقون الأمويين ويقتلونهم حتى لم تقم لهم قائمة . ولم ينج منهم الا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام الذي هرب إلى الأندلس وأنشأ فيها دولة مستقلة (سيأتي ذكرها بالتفصيل فيما بعد) .

أسباب سقوط الدولة الأموية :

١ — استقر الرأي منذ العهد النبوي على أن تكون الخلافة شورى بين المسلمين ، ولم يعهد أي من الخلفاء الراشدين بالخلافة لابنه ، بينما حصرها الأمويون في أبنائهم بالوراثة في الوقت الذي كان فيه من هو أحق منهم بها. وتصرفهم هذا لم يلق التأييد من كافة أوساط المسلمين لا سيما من الذين يرون أنهم أحق بالخلافة مثل الامام علي ، والزبير بن العوام .

٢ — أهمل الخلفاء الأمويون مظاهر الحياة في بساطتها التي عاشها كل من الخلفاء الراشدين ، وقلدوا ملوك الروم وأكاسرة الفرس في حياة الترف .

٣ — سوء تصرف بعض خلفاء الأمويين في نظام ولاية العهد أدى إلى الانقسام والنزاع بين بعضهم البعض منذ أن أعلن مروان بن الحكم ولاية العهد لولديه عبد الملك وعبد العزيز الواحد تلو الآخر ، وحذا حذوه ابنه عبد الملك

فأعلن ولاية العهد لكل من ولديه ، الوليد ويليه سليمان . وبعد موت الوليد تعمقت هوة الشقاق بين الاخوة والأعمام .

٤ ــ سلك بنو أمية سياسة غير عادلة مع الموالي في المراكز والمناصب فحقدوا عليهم وثاروا ضدهم في عدة مناسبات .

٥ ــ تباين العدل في حكمهم وحكامهم ، فبينما نجد أحدهم حاز كافة الصفات الحميدة التي ترضى عنها الرعية نجد الآخر جاء بنقيض الأول ، فكانت نتيجة ذلك اثارة سخط الناس وتذمرهم .

٦ ــ شجع بعض الأمويين والولاة العصبية القبلية التي نهى عنها الاسلام وقضى عليها عند أول ظهوره ، فأدى إلى نزاع خطير بين القيسيين واليمنيين .

٧ ــ مطالبة آل البيت بالخلافة ومناصرتهم في العراق . وكذلك ظهور الحركات السياسية التي قام بها الخوارج والعلويون .

مميزات العصر الاموي

لقد شاد العنصر العربي في العصر الأموي ، وغيّر نهج الحكم الذي أتبع في عهد الخلفاء الراشدين ألا وهي الخلافة الديموقراطية .

وفي عهد بني أمية الذي امتد منذ عام ٤٠ إلى عام ١٣٢ هـ (٦٦١ـــ٧٥٠م) انتشرت اللغة العربية انتشاراً واسعاً في البلاد التي افتتحوها . وظهرت الحركة العلمية والأدبية بعد أن جرى نقل الدواوين من اليونانية والفارسية والقبطية إلى العربية . وعم استعمال النقود العربية التي ضربت في دمشق في عهد عبد الملك بن مروان بدلا من النقود الرومية والفارسية التي حظر استعمالها. وشجع الأمويون الفنون والزخرفة وخاصة فن العمارة حتى بلغ القمة وصار مضرب المثل في الروعة والتصميم . كما نظموا الجيش وبنوا الأساطيل البحرية ، وأنشأوا البريد ، وعمموا بناء المساجد

والمدارس . واتسعت الفتوحات في عهدهم حتى بلغت حدود الدولة الاسلامية من تخوم الصين شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً .

ومن أشهر قواد الفتوحات في العصر الأموي هم : عقبة بن نافع ، وموسى بن نصير ، وطارق بن زياد (في افريقيا والأندلس) . والمهلب بن أبي صفره ، وقتيبة بن مسلم الباهلي ، ومحمد بن قاسم الثقفي في (بلاد ما وراء النهر والسند والهند) .

ومن فحول الشعراء الذين نبغوا في العهد الأموي هم : جرير ، والفرزدق ، والأخطل . وهذا الأخير كان مسيحياً .

وكانت الدولة مقسمة ادارياً إلى ولايات كبرى هي : (١) الحجاز واليمن وأواسط الجزيرة العربية (٢) سوريا وفلسطين ، (٣) العراق وفارس وخراسان . (٤) الجزيرة واذربيجان وارمينيا . (٥) مصر . (٦) افريقيا الشمالية والأندلس وجزر البحر المتوسط . وكان الخليفة هو المرجع الأعلى ، ولكنه جعل للولاة سلطة واسعة في الشؤون الادارية والمالية والقضائية .

الفصل الخامس

الدولة العبّاسيّة

العباسيون :

يتصل العباسيون في النسب إلى العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم . وكان العباس قبل الاسلام يعمل سادناً للكعبة وفي التجارة . وقد أسلم قبل فتح مكة ، ولم يكن يطمع في الخلافة بعد الرسول أو يسعى في طلبها مع انه كان أقرب بني هاشم إلى رسول الله وأكبرهم سناً . وكان الخلفاء الراشدون يكرمونه ويحترمونه ويقدرونه .

وقام العباسيون بدعوتهم على أساس انهم لا يريدون الخلافة الا لانقاذ المسلمين من ظلم بني امية وجبروتهم . وانهم ورثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم أحق الناس بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه وبالتالي فان على الناس اطاعتهم ، ذلك لأن من أطاعهم أطاع الله .. ومن عصاهم فقد عصا الله .

الخليفة الاول للدولة العباسية

ابو العباس السفاح

هو عبد الله بن محمد بن عبدالله بن العباس . ويكني بأبي العباس ولد في

الحميمة بالبلقاء (الأردن) سنة ١٠٤هـ ، لقب بالسفاح ، واختلف الرواة في تفسير هذا اللقب وأسبابه ، فمن قائل ان عبد الله كان كريماً محباً للضيوف يكثر الذبائح لهم ، ولكثرة ما أراق من دماء الذبائح لضيوفه أطلق عليه لقب السفاح ، ومن قائل ان هذا اللقب أطلقه عليه بعد أن أطلقه على نفسه في خطبته التي قال فيها : (أنا السفاح المبيح) والله أعلم بالصواب . بويع له بالخلافة في الكوفة سنة ١٣٢هـ .

توطيد دعائم الدولة العباسية :

اتخذ أبو العباس السفاح الحزم منذ البداية لتوطيد عائم الدولة العباسية وحمايتها من الفتن والدسائس . فقضى على أنصار الأمويين وغيرهم من المناوئين للعباسيين .

وكان العلويون من الفئة التي كان يخشاها السفاح ويحسب لها ألف حساب. علماً بأن العلويين يرون أن الخلافة يجب أن تكون في آل البيت وانها حق للامام علي كرم الله وجهه وذريته . وللتخلص من العلويين الذين كانوا يشكلون قوة كبيرة في العراق ، قرر السفاح الفتك بزعيمهم أبي سلمة حفص بن سلمان (الخلال) ، الذي أسهم في تأسيس الدولة العباسية وحارب مع أنصاره الأمويين ، فأرسل السفاح أخاه إلى أبي مسلم الخراساني والي خراسان يستشيره بالموضوع فرحب بالنكرة وأرسل شخصاً اسمه مرّار بن أنس الضبي إلى الكوفة لقتل أبي سلمة الخلال ، فقتله غدراً وأشيع ان الخوارج قتلوه .

وكان أبو العباس ينوي التخلص من أبي مسلم الخراساني الذي أول من آزره من الفرس ، ومكافأة لجهوده ومؤازرته للعباسيين ولاه خراسان حيث ما لبث أن ازداد نفوذه وقويت شوكته فخشي منه أبو العباس السفاح على سلطانه مما جعله يعزم على قتله . ولكن المنية وافته قبل أن يقضي على الخراساني .

أهم أعمال أبو العباس السفاح :

من أهم أعمال السفاح ما يلي :

١ ــ قضى على العناصر المناوئة ووطد دعائم الدولة .

٢ ــ وضع علامات الأميال على الطريق بين مكة المكرمة والكوفة وذلك ليتسنى للمسافرين معرفة المسافة التي يقطعوها أثناء سيرهم .

٣ ــ نقل عاصمة الخلافة من دمشق إلى الأنبار بالعراق ، وأطلق عليها اسم هاشمية الأنبار نسبة إلى جدهم هاشم .

٤ ــ أبطل بدعة الخطابة جلوساً التي كان ينتهجها سلفه الأمويون وصار يخطب بالناس قائماً كما توجبه السنة المحمدية .

٥ ــ جعل شعار دولة العباسيين اللون الأسود .

وعلى طريقة الأمويين لم يجعل من ولاية العهد شورى بين المسلمين بل أراد حسماً للفتن والمنازعات أن يجعلها تعييناً من بعده فأمر بالخلافة من بعده لأخيه أبي جعفر المنصور ، ومن بعده إلى ابن عمه عيسى بن موسى .

وكان أبو العباس السفاح رجلاً حازماً ، يحب المجالس والنقاش في الأمور العامة . وتميز بتشجيعه للأدب وحبه للشعر واكرام الشعراء . ولم يقتن الجواري ، كما لم يتزوج سوى امرأة واحدة اسمها (أم سلمة) [١] سيدة عربية أديبة اشتهرت بقوة الادراك وحسن الرأي .

وقد توفي السفاح بمرض الجدري بمدينة الأنبار سنة ١٣٦هـ (٧٥٤م) عن عمر لا يتجاوز ٣٢ سنة . وكانت مدة خلافته أربع سنوات وتسعة أشهر .

---

(١) كانت أم سلمة زوجة عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك ، مات زوجها بدمشق ، ثم تزوجت أبا العباس السفاح قبل أن يصبح خليفة بعدة سنين . وقد انقذت في عهد خلافته من الموت عددا من الأبرياء .

الخليفة أبو جعفر المنصور

هو عبدالله بن محمد بن عبد الله بن العباس ، وكنيته أبو جعفر المنصور ، ولد في الحميمة بالبلقاء (الأردن) سنة ٩٥هـ ، وكان أكبر سناً من أخيه أبي العباس السفاح ، تولى الخلافة بعد وفاة أخيه ، وكان آنئذ في الحجاز يؤدي فريضة الحج ، فلما وصله النبأ عاد مسرعاً إلى الكوفة فبايعه أهلها ، ومنها سار إلى الانبار مقر الخلافة . وقد أخذت له البيعة من جميع الولايات الاسلامية باسم الخليفة المنصور ، وبحزم ووعي وحكمة سير أمور الدولة وثبت قواعدها .

أخماد فتنة عمه عبدالله بن علي :

وبالوقت الذي بايع أهل الكوفة والأنبار المنصور كان عمه عبد الله بن علي الذي أباد بني أمية في بلاد الشام يدعو إلى نفسه بالخلافة زاعماً أن السفاح كان وعده أن يكون خليفة من بعده وذلك مكافأة لانتصاره على الجيش الأموي واخضاعه بلاد الشام . فزحف عبد الله بن علي بجيش كبير عندما بلغه وفاة السفاح وهو في طريقه لغزو بلاد الروم واتجه إلى حران فاستولى عليها وتحصن فيها . وفي الحال أرسل الخليفة المنصور جيشاً بقيادة أبي مسلم الخراساني الداهية ومعة القائد المشهور مالك بن هيثم الخزاعي . ولما علم عبد الله بقدوم أبي مسلم خاف أن ينقلب ضده جند خراسان اذا رأوا أبا مسلم فقتل منهم جماعة كبيرة ، وترك حران مع جنود الشام إلى نصيبين وعسكر فيها . وهناك دارت معارك بين جيش الخليفة المنصور وجيش عمه عبد الله استمرت ٥ ــ ٦ شهور كان خلالها الحرب سجالا بينهما . وفي المعركة الحاسمة انتصر جيش الخليفة في شهر جمادي الثانية سنة ١٣٧هـ (كانون الاول ــ ٧٥٤م) وفر عبدالله بن علي هارباً إلى البصرة حيث أقام عند الوالي أخيه سليمان بن علي مختفياً . ثم علم المنصور به فسجنه وظل في سجنه حتى مات .

الرسائل المتبادلة بين المنصور والخراساني :

وبعد أن أخمدت الفتنة عزم الخليفة أبو جعفر المنصور على التخلص من أبي مسلم الخراساني الذي شمخت نفسه وأصبح بمركزه القوي يشكل خطراً عليه . مع العلم أن السفاح كان ينوي قتل الخراساني بعدما انكشف له مكره وخطره ، ولكن الأجل وافاه قبل تنفيذ رغبته . وأرسل المنصور في طلب أبي مسلم قبل أن يسير إلى خراسان عائداً من نصيبين حيث كان يقود جيش الخليفة ، فرد عليه أبو مسلم في رسالة يقول فيها : (انه لم يبق لأمير المؤمنين عدو الا مكنه الله منه . وقد كنا نروي عن ملوك آل ساسان أن أخوف ما يكون الوزراء اذا سكتت الدهماء . فنحن نافرون من قربك ، حريصون على الوفاء لك بعهدك ما وفيت ، حريون بالسمع والطاعة ، غير أنها من بعيد حيث يقارنها السلامة . فان أرضاك ذلك كنا كأحسن عبيدك ، وان أبيت الا أن تعطي نفسك ارادتها نقضت ما أبرمت من عهدك ضناً بنفسي) .

ورد الخليفة برسالة بعثها إلى أبي مسلم الخراساني حملها عيسى بن موسى ومعه أبو حميد المروزي يقول فيها : (قد فهمت رسالتك وليست صفتك صفة أولئك الوزراء الغششة ملوكهم الذين يتمنون اضطراب حبل الدولة لكثرة جرائمهم ، فانما راحتهم في انتشار نظام الجماعة ، فلم سويت نفسك بهم وأنت في طاعتك ومناصحتك واضطلاعك بما حملت من أعباء هذا الأمر على ما أنت به ، وليس مع الشريطة التي أوجبت منك سمع ولا طاعة . وقد حمل اليك عيسى بن موسى رسالة أمير المؤمنين ليستكين اليها قلبك ان أصغيت اليها . وأسأل الله أن يحول بين الشيطان ونزغاته وبينك، فان لم يجد باباً يفسد به نيتك أوكد وأقرب من طبه من الباب الذي فتحه عليه) .

نهاية الخراساني :

واستمر الخليفة المنصور يستعمل الدهاء والليونة ، ويوفد إلى أبي مسلم الخراساني مندوبين ليقنعوه بالرجوع إلى الطاعة حتى اقتنع وكتب إلى الخليفة

يعلمه بقدومه عليه . ولما وصل إلى المدائن رحب به رجال القصر ، ثم أدخل على الخليفة ، فأظهر له الكرامة والاحترام ، وقال له : اذهب الليلة وأرح نفسك من عناء السفر ، واحضر في الغد . وعندما حضر صباحاً دخل على المنصور ووقف بين يديه ، فعاتبه الخليفة في كل ما صدر منه ، وسأله عن سبب قتله سليمان بن كثير وابراهيم بن ميمون وهما من كبار الدعوة العباسية ، فقال : خالفا أمري ، فغضب المنصور وقال : ويحك ! أنت تقتل اذا عصيت ، وأنا لا أقتلك وقد عصيتني ؟ ثم صفق بيديه فخرج الحرس من وراء الرواق وانهالوا على أبي مسلم الخراساني بسيوفهم حتى قتل . كان ذلك في شهر شعبان سنة ١٣٧هـ (٧٥٥م) .

آل الحسن يثورون ويطالبون بالخلافة :

تجددت حركة المطالبة بالخلافة لذرية علي بن أبي طالب . وكان في أواخر العهد الاموي ، وبالتحديد في أواخر خلافة مروان بايع جماعة في الحجاز محمد بن عبد الله بن الحسن المسمى بالنفس الزكية [1] . ويقول الطبري أن محمداً لم يبايع السفاح ، وكذلك تخلف هو وأخوه ابراهيم عن مبايعة المنصور .

وعندما أدى الخليفة المنصور فريضة الحج سنة ١٤٤هـ ، سأل عبدالله ابن الحسن عن ولديه محمد وابراهيم ، فقال : لا أدري أين هما ، ثم ألح المنصور على عبد الله في طلب ولديه ، فقال لا أدري أين صارا ولا البلاد التي سافرا اليها . فغضب المنصور وأمر بسجنه ونقله مع أهل بيته وآل الحسن إلى العراق .

وفي عام ١٤٥هـ (٧٦٢م) ظهرت الحركة في الحجاز واستولى محمد بن عبد الله الملقب (بالنفس الزكية) على المدينة ومكة ، وأرسل وفوداً إلى الشام يدعو أهلها إلى بيعته فلم يستجيبوا ، وقالوا لرسله ، ضجرنا من الحروب ومللنا من القتال .

---

(١) كان في الحجاز من نسل الامام علي بن أبي طالب عبد الله بن حسن بن حسن بن علي ابن أبي طالب وولداه محمد المسمى بالنفس الزكية وابراهيم .

وعندما علم الخليفة بخروج محمد بن عبدالله وتحصنه في المدينة مع جماعته أرسل جيشاً بقيادة عيسى بن موسى وأمره بأن يؤمن على أرواح أهل المدينة ، وتمكن جيش المنصور من القضاء على حركة محمد بن عبد الله وقتله في ١٤ رمضان سنة ١٤٥ هـ .

وكان من المقرر حسب الخطة المرسومة أن يقوم ابراهيم أخو محمد بن عبد الله في حركة بالبصرة في ذات الوقت الذي يخرج أخوه في المدينة . ولكنه تأخر في الوصول ولم يتمكن من جمع أنصاره العلويين الا بعد أن كان جيش الخليفة المنصور قد بلغ المدينة المنورة وقضى على حركة المقاومة فيها . وفي البداية كسب ابراهيم الجولة الأولى وتمكن من الاستيلاء على البصرة والأهواز والمدائن . أما الجولة الثانية فكان النصر فيها للجيش العباسي وانهزم جيش ابراهيم في المعركة الخاسمة التي دارت رحاها بين الفريقين على بعد ستة عشر فرسخاً من الكوفة .

وقد قتل ابراهيم بن عبد الله [1] في شهر ذي الحجة سنة ١٤٥هـ بسهم أصابه أثناء المعركـــة ، وبمقتله أخمدت حركـــة أولاد عبد الله آل الحسن في الحجاز والعراق .

بناء بغداد عاصمة العباسيين

من أهم ما قام به أبو جعفر المنصور من أعمال عمرانية ظلت راسخة في التاريخ ، بناؤه مدينة بغداد . ففي سنة ١٤٥هـ (٧٦٢م) أمر المنصور ببناء عاصمته الجديدة على أنقاض قرية قديمة ساسانية اسمها بغداد ومعناه (هبة) . وسماها مدينة السلام . وهي تبعد عن المدائن عاصمة الفرس القديمة ٣٢ كيلومتراً . وعندما اختار المنصور المكان لبناء المدينة على الضفة الغربية من نهر دجلة خيم

---

(١) قيل عن بعض المؤرخين أن الخليفة المنصور لما جلب له رأس ابراهيم بن عبد الله بكى بكاء مرا وقال : والله لقدكنت لهذا كارها . ولكنك ابتليت بي وابتليت بك .

فيه عدة أيام وليالي فوجده صالحاً تتوافر فيه سبل العيش وتسهل فيه المواصلات بين الولايات الاسلامية . وكان هو أول من وضع لبنة بيده في بناء بغداد ، وقال : (بسم الله والحمد لله . والأرض لله يورثها من يشاء من عباده . والعاقبة للمتقين) .

وانتقل الخليفة المنصور إلى عاصمته الجديدة سنة ١٤٦هـ (٧٦٣م) حيث استمر البناء أربع سنوات حتى استكملت . فكانت آية في روعة الهندسة والفن المعماري والتصميم البديع . وقد جعلها في تصميمها الهندسي مدورة تحيط بها أسوار مزدوجة ، ولها أربعة أبواب تمر فيها طرق بعدد الأبواب وهي : باب الشام ، و باب البصرة . وباب الكوفة . وباب خراسان . وفي وسطها قصر الخليفة المسمى (باب الذهب) تتوسطه قبة خضراء ارتفاعها ٨٠ ذراعاً (٥٦ متراً) . والى جانبه المسجد الفخم البناء . وغدت بغداد (دار السلام) منارة للعلوم والآداب . ومركزاً عالمياً للحضارة الاسلامية .

تشجيع العلوم ومحاربة البدع :

وشجع الخليفة المنصور الحركة العلمية والأدبية . وأقبل العلماء على ترجمة الكتب من اللغات الفارسية واليونانية إلى اللغة العربية ، وتأليف الكتب في الفقه والطب وعلم الفلك والرياضيات الخ .. وفي عهده صدر كتاب (الموطأ) للامام مالك ، والفقه لأبي حنيفة . وظهر من نوابغ الكتاب ابن المقفع الذي ترجم كتاب (كلية ودمنة) الشهير إلى العربية .

كما شجع الفنون ، واهتم بالزراعة وحفر اقنية المياه ، وجعل العنصر العربي قوياً في الجيش ، ونظم البريد وجعله بمثابة (شرطة سرية) لجمع المعلومات عن أحوال الولايات وأخبار الولاة .

وقضى المنصور على كثير من البدع الدينية والعقائد الفارسية القديمة التي أبطلها الاسلام . وكانت آنذاك خراسان وبلاد ما وراء النهر موبوءة بهذه البدع التي أزال خطرها .

وفاة الخليفة المنصور :

توفي الخليفة المنصور وهو في طريقه إلى الحج سنة ١٥٨هـ (٧٧٥م) ودفن في مكة المكرمة ، وكان يومئذ عمره ٦٣ سنة ، ومدة خلافته ٢٢ سنة .

وكان قبل وفاته أخذ البيعة لولده المهدي بعدما حمل عيسى بن موسى على التخلي عن ولاية العهد . وكان عيسى بويع عندما اختار السفاح أخاه المنصور ولياً لعهده ودعا الناس لمبايعته ومبايعة ابن أخيه عيسى بن موسى خليفة للمنصور بعد وفاته ، ولكن المنصور أراد أن يحصر الخلافة بذريته فنفذ رغبته وجعل ولاية العهد لولده المهدي .

عهد خلافة المهدي :

تولى الخلافة محمد المهدي بعد وفاة أبيه المنصور (سنة ١٥٨هـ) وأول عمل قام به هو اطلاق السجناء ما عدا الذين اقترفوا جرائم قتل ، وعزل الولاة الذين كانوا غير أكفاء ، وشكل هيئة استشارية للبت في القضايا ورد المظالم .

وسار المهدي على نهج سليم قوامه السنة ، والاهتمام بالرعية ، ومكافحة البدع . والقضاء على الملحدين . وكان يختلف عن أبيه المنصور في بعض النواحي وبالاخص الجود الذي اشتهر به المهدي ، فكان يوزع الأموال على الفقراء ، ويغدق على الأدباء والشعراء العطاء . وقيل انه فتح خزائن أبيه المملوءة بالذهب والفضة ووزعها على أبناء رعيته .

وفي سنة ١٦٠هـ حج المهدي ، وكان معه ابنه هارون الرشيد . وقد وزع يومئذ على أهل مكة أموالا كثيرة . ولما دخل المدينة المنورة مكث فيها حتى أتم توسعة المسجد النبوي . وقبل عودته إلى بغداد تزوج من المدينة رقية بنت عمرو العثمانية .

اقتحام بلاد الروم وفرض الجزية :

وفي سنة ١٦٦هـ (٧٨٢م) جهز الخليفة المهدي جيشاً كبيراً قوامه ٩٥ ألف رجل بقيادة ابنه هارون الرشيد للزحف على بلاد الروم الذين كانوا قبل عامين شنوا غارة على المناطق العربية عبر جبال طوروس . وسار الجيش العباسي حتّى بلغ ضفاف البوسفور ، وأصبح على بعد بضعة أميال من القسطنطينية ، فأسرعت الامبراطورة ايرين [1] إلى طلب الصلح من الرشيد . وتم الاتفاق على أن تدفع الامبراطورة (ملكة الروم) جزية سنوية إلى الخليفة قدرها ٧٠ ألف دينار .

وعاد هارون الرشيد من الحرب منتصراً ومعه وفد من الروم يحمل الجزية إلى أبيه الخليفة المهدي ، فاستقبلته بغداد استقبالاً رائعاً . وفي ذلك النصر العظيم قال مروان ابن أبي حفصة :

أطفت بقسطنطينية الروم مسنداً إليها القنا حتّى اكتسى الذل سورها
وما رمتها حتّى أتتك ملوكها بجزيتها والحرب تغلي قدورها

وفي سنة ١٦٩هـ (٧٨٥م) توفي المهدي عن عمر يناهز ٤٣ سنة ، وكانت مدة خلافته عشر سنوات . أما سبب وفاته فقيل أنه مات مسموماً ، وقيل أنه مات بالحمى ، وقيل أنه اصيب بكسر أثناء الصيد فمات على أثره .

خلافة الهادي بن المهدي :

بويع موسى الهادي بالخلافة بعد وفاة أبيه غير ان مدة حكمه لم تدم أكثر من سنة وشهرين : وقد وقع خلال فترة خلافته حادثة خطيرة في الحجاز ، موجز قصتها هي : خرج الحسين بن علي بن الحسن (من آل البيت) ومعه جماعة من أنصاره ، ويقال أن السبب خلاف وقع بين عامل العباسيين وجماعة

---

(١) ايرينا زوجة الامبراطور ليو الرابع ، تسلمت مقاليد الحكم بعد وفاة زوجها باسم ابنها قسطنطين السادس الذي لم يكن قد بلغ سن الرشد .

من أهل المدينة فتدخل الحسين وثار على العباسيين ، ثم انتقل مع جماعة من أنصاره إلى مكة ، ولما علم الخليفة الهادي بالخبر أرسل جيشاً بقيادة محمد ابن سليمان العباسي لقمع حركة الحسين بن علي . وفي موقع (فخ) القريب من مكة دارت معركة بين الفريقين انتهت بمقتل الحسين وطائفة من جماعته وفرار الذين كتبت لهم النجاة من بينهم ادريس بن عبد الله بن الحسن وأخيه يحيي بن عبد الله[1] فالاول ذهب إلى المغرب ، والثاني إلى بلاد الديلم جنوب بحر قزوين .

وحاول الهادي انتزاع ولاية العهد من أخيه هارون الرشيد ، وجعلها لابنه جعفر الصغير ، ولكن أمه (الخيزران) التي كان لها نفوذاً واحتراماً عظيماً في عهد زوجها المهدي عارضت ذلك . وقبل أن يتمكن من تحقيق رغبته وافاه الاجل ومات سنة ١٧٠ هـ عن عمر يبلغ ٢٣ سنة . وتختلف الروايات في أسباب وفاته ، فقيل انه مات مسموماً . وقيل مات بقرحة في معدته ، وقيل دخلت قصبة في منخره فمات ، والله أعلم .

العصر الذهبي للدولة العباسية

في عهد هارون الرشيد

عندما بويع هارون الرشيد بالخلافة عام ١٧٠هـ (٧٨٦م) ، كان في الثانية والعشرين من عمره ، وفي ذات اليوم الذي تولى فيه الخلافة ولد ابنه المأمون ، فسر بمولده ، ووزع يومئذ العطاء الجزيل على الفقهاء والشعراء والجند والفقراء .

ولد هارون سنة ١٤٥هـ في الري ، مدينة قديمة جنوب شرقي طهران . وقد أعده والده المهدي اعداداً حسناً ، وولاه قيادة الجيوش التي حاربت الروم وبلغت في زحفها أبواب القسطنطينية وفرضت الجزية على الامبراطورة ايرين ،

---

(١) هما أخوان لمحمد النفس الزكية .

فأكسبته تلك القيادة والمهام التي عهد اليه والده بها خبرة في شؤون الدولة واطلاعاً على أحوال البلاد .

وكان هارون الرشيد أشهر شخصية عرفها العصر العباسي الذي دام خمسة قرون وربع القرن . ففي عهده بلغت بغداد المركز الزاهر في العلوم والفنون والتجارة .

حقاً أن عهده يعتبر من حيث الاستقرار والرفاه والتقدم والازدهار العصر الذهبي للدولة العباسية الكبيرة التي صنعت تاريخها العظيم ، وتبوأت المركز الأول في التاريخ القديم .. وقد خطب ود الرشيد الملوك وعظماء العالم منهم شارلمان امبراطور الغرب الذي تقرب من الخليفة العباسي ووطد معه علاقات متينة سنأتي على ذكرها ..

لم يسبق لملك في الشرق أن ذاع صيته في العالم في تلك الحقبة الطويلة من التاريخ كالخليفة هارون الرشيد . فقد نشرت عن عهده مجموعات كبيرة من المصنفات ومئات الكتب بمختلف اللغات ، كما رويت القصص الكثيرة عن رجاحة عقله وقوة ادراكه ، وسرعة بديهته ، وكرمه ، وحبه لمجالس الطرب والغناء والشعر .

وكان الرشيد ورعاً ، محباً لأعمال الخير ، جزيل العطاء . وكان يتصدق من ماله في كل يوم بألف درهم ، ويصلي في كل يوم مائة ركعة تطوعاً . وقيل أنه طلب من رجل صالح أن يعظه ، فقال له يا أمير المؤمنين اذا ظمئت وانقطع الماء فكم تدفع ثمناً لشربة منه تدفع عنك غائلة الظمأ وترطب بها جوفك ، فقال هارون : أدفع قيمتها نصف ملكي ، فقال الناصح : واذا أصبت بمرض حصر البول وعز الدواء ، وبعد عناء شديد تمكنت من العثور عليه ، فكم تدفع ثمناً له ؟ فقال الرشيد : أدفع لذلك الدواء ملكي كله ، فقال الناصح : يا امير المؤمنين ما دام الأمر كذلك فازهد في ملك لا يساوي نصفه جرعة ماء ولا يساوي كله بوله .

والواقع أنه كان يقرب من مجلسه العلماء والفقهاء والشعراء ، ويصغي لأهل

الفكر والموعظة ويقدرهم . وقيل أنه استدعى اليه الفقيه الجليل الضرير محمد بن حازم ليسمع منه الحديث ، وبعد انفضاض المجلس دعاه للغداء مع الحاضرين ، ثم قام الفقيه الضرير ليغسل فصب الخليفة هارون الرشيد الماء على يديه ، وقال له : أتدري من يصب لك الماء ؟ فقال لا . قال : هو أمير المؤمنين ، تعظيماً للعلم وأهله .

المرحلة الأولى من حكمه :

تميزت المرحلة الأولى من خلافة هارون الرشيد بتعيين يحيي بن خالد بن برمك[1] الذي رباه في صغره كبيراً لوزرائه ، وقال له : (قلدتك أمر الرعية ، وأخرجته من حتي الهلك ، فاحكم في ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت ، واعزل من رأيت ، وامض الأمور على ما ترى ..) .

كما ولى الرشيد ولدي يحيى البرمكي المناصب الكبرى . فولى جعفر مصر والفضل خراسان . وشكل لجنة من القضاة والعلماء لوضع أصول الحكم في مؤلف خاص. وأصدر عفواً عن جميع المساجين باستثناء الذين اقترفوا جرائم قتل .

وقد أعاد الخليفة والدته الخيزران إلى القصر بعد أن كانت هجرته في عهد أخيه الهادي بسبب خلافها معه ، وأصبحت لها الكلمة الاولى كما كانت في عهد زوجها المهدي . وكانت الخيزران سيدة محترمة ، نيرة العقل تحب الشعر . وتوفيت سنة ١٧٣هـ عن عمر لا يتجاوز ٤٥ سنة .

ظهور حركة في بلاد الديلم والمغرب :

ظهرت حركة جديدة قام بها أبناء عبد الله بن الحسن (من آل البيت) في بلاد الديلم جنوب بحر قزوين ، وفي بلاد المغرب . وقد سبقتها حركة أتينا على

---

(١) يحيى البرمكي اعتنى بتربية هارون الرشيد عندما كان طفلا ، ونهى الهادي بأن يعدل عن فكرة انتزاع ولاية العهد من أخيه هارون وتولية ابنه جعفر . فزجه الهادي في السجن ثم أطلق سراحه هارون عندما تولى الخلافة .

ذكرها ، قامت في الحجاز في عهد الهادي تزعمها الحسين بن علي (من آل البيت) وأخمدها الجيش العباسي بسرعة سنة ١٦٩هـ بعد معركة قتل فيها الحسين . وكان معه يومئذ يحيي وشقيقه ادريس من ذرية علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . فتمكنا من الفرار ، واتجه يحيي إلى بلاد الديلم ، وادريس إلى المغرب .

وفي بلاد الديلم قام يحيي بن عبد الله سنة ١٧٦هـ (٧٩٢م) بحركة استفحل أمرها ، فأرسل الخليفة هارون الرشيد وزيره الفضل ابن يحيي على رأس جيش لاخمادها ، وكان الفضل رجلاً سياسياً ماهراً فتمكن ببراعته وحسن تدبيره وفصاحته من استمالة يحيي بن عبد الله وذلك حقناً لدماء المسلمين .. وبعد أن أمنه على نفسه سار بصحبته إلى الخليفة هارون الرشيد فاحتفى به وأكرمه . ثم ما لبث أن سجنه لدى جعفر ابن يحيي البرمكي فاستنجد به عبد الله ، وظل يتوسل حتى أطلق سراحه .

أما شقيقه ادريس بن عبد الله في المغرب فقد التف حوله الكثير من البربر . وكان لبعد المسافة الشاسعة بين المغرب وبغداد وقلة المواصلات أثر كبير في نجاح حركته الانفصالية عن الدولة العباسية . وقد شيد ادريس مدينة فاس في موقع جميل واتخذها عاصمة له . وأصبح هو الحاكم المطلق لبلاد مراكش .

وقرر الخليفة هارون الرشيد القضاء على ادريس بدون حرب وسفك دماء في بلاد المغرب ، فأرسل رجلا يدعى الشماخ ، بربري من الموالي ، تنكر في زي طبيب ، ودس السم لادريس فمات (٧٩٢م) . ولكن الامر لم ينته بموته ، فالتف أنصاره حول ولده الطفل الصغير وبايعوه .

وعاد الخليفة هارون وأرسل سنة ١٨٤هـ (٨٠٠م) القائد العربي ابراهيم ابن الأغلب لتوطيد النظام والامن في الشمال الافريقي ، وأطلق له اليد في حرية التصرف وادارة هذه البلاد . وتمكن من السيطرة على الوضع ، وبسط نفوذه . ومع مرور الزمن أصبحت المنطقة امارة مستقلة عرفت فيما بعد باسم دولة الأغالبة ، وبقيت مرتبطة معنوياً واسمياً بالخلافة العباسية .

اخماد الفتن الداخلية :

وقد نشبت في فترات متقطعة منازعات وفتن داخلية أخمدها جميعها الخليفة هارون الرشيد . ففي بلاد الشام نشبت فتنة بين اليمنيين والقيسيين ، تحولت إلى حرب أهلية مستعرة أخمدت سنة ١٨٠هـ (٧٩٦م) . وبعدها بثلاث سنوات ثارت قبائل من الخزر ونهبت وقتلت عدداً كبيراً من أهالي ارمينيا واذربيجان ، فأرسل الخليفة الرشيد جيشاً بقيادة حازم بن خزيمة ونائبه يزيد بن مزيد ، فقمع ثورة الخزر وأعاد النظام والأمن . وفي طبرستان وخراسان نشبت فتنة سنة ١٨٥هـ افأخمدت . وبعدها ظهرت فتنة أخرى فقمعت ، وعاد الهدوء والاستقرار إلى المنطقة .

العلاقات بين الرشيد وشارلمان

لقد توطدت العلاقات بين الخليفة هارون الرشيد وشارلمان [١] امبراطور الغرب الذي تبادل مع الخليفة العباسي السفراء والهدايا النفيسة . وكان من ضمن الهدايا التي أرسلها الرشيد إلى شارلمان ساعة مائية صنعت في بغداد ، وسيف من الذهب ، وفيل .

ويعتبر تبادل السفراء بين العاهلين حدثاً تاريخياً لم يسبق أن حصل مثيله خلال التاريخ القديم . ففي العصور الغابرة كانت تعقد بين الملوك معاهدات سلم وتجارة . أما تبادلُ السفراء فلم يحصل الا في عهد هارون الرشيد وشارلمان .

وقد تقرب شارلمان من الخليفة العباسي وكسب وده ، ووقع معه معاهدات صداقة وتجارة ، ومنحت التسهيلات للحجاج المسيحيين الوافدين من أوروبا إلى القدس .

---

(١) شارلمان هو ابن الأمير بيبان لوبريف ، تبوأ العرش في فرنسا عام ٧٧١ م ، واستولى على أوروبا الغربية ، وحارب الوثنية وحول السكسونيين في المانيا إلى المسيحية . وقد توجه البابا ليون الثالث امبراطوراً على الغرب عام ٨٠٠ ، وتوفي عام ٨١٤ م .

وعلاوة على ذلك ، كان شارلمان يتوخى من وراء تقوية علاقاته مع الرشيد كسب مودته للحصول على مركز أدبي في الشرق ، والعمل على اضعاف الدولة الأموية في الأندلس التي ظلت قائمة ولم يتمكن العباسيون من القضاء عليها . وأيضاً التعاون مع الخليفة العباسي على انهاك الامبراطورية البيزنطية .

واستعان الامبراطور شارلمان بالقوانين المطبقة في الدولة العباسية لاصلاح نظام دولته . كما أوفد بعثات إلى بغداد لدراسة فن البناء والطب وصناعة الأقمشة . علماً بأن أوروبا كانت آنذاك متأخرة غائصة في ظلام العصور الوسطى .

انتصار الرشيد على امبراطور بيزنطية :

كنا أتينا على ذكر بلوغ الجيش العباسي أبواب القسطنطينية في عهد المهدي وبقيادة ابنه هارون الرشيد وفرض الجزية على الامبراطورة ايرين وقدرها ٧٠ ألف دينار سنوياً . ولما خلعت ايرين عن العرش في سنة ٨٠٢م واستولى على الحكم أحد النبلاء تحت اسم الامبراطور نقفور نقض اتفاق الجزية وكتب إلى الخليفة هارون الرسالة التالية :

من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب .. أما بعد فان الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مكان البيدق ، فحملت اليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله اليها ، وذلك من ضعف النساء وحمقهن ، فاذا قرأت كتابي فاردد ما حملته اليك من أموالها ، وافتد نفسك به ، والا فالسيف بيننا وبينك .

ولما قرأ الرشيد نقفور استفزه الغضب الشديد حتى لم يجرأ أحد أن ينظر اليه . وطلب دواة وقلماً ، وكتب على ظهر الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم :

من هارون أمير المؤمنين ، إلى نقفور كلب الروم . قد قرأت كتابك ، والجواب ما تراه دون ان تسمعه ، والسلام

وفي الحال صدرت الأوامر لتجهيز الجيش ، وتولى قيادته الخليفة بنفسه ، وزحف حتى بلغ هرقلية على البحر الأسود . فخاف نقفور ملك الروم وطلب من الرشيد الموادعة على خراج يؤديه كل سنة ، فأجابه على ذلك . ولما رجع الخليفة ووصل الرقة على الفرات ليقضي فترة من الراحة في قصره الجميل تمرد نقفور ونقض العهد . وكان البرد قد اشتد والثلوج بدأت تكسو جبال طوروس ، ورغم ذلك فقد عاد الرشيد من جديد وزحف بجيشه عبر تلك الجبال حتى بلغ سواحل البحر الأسود بعد ان اجتاح آسيا الصغرى ودمر حصون الروم وهزم جيشهم . فهلع نقفور وأرسل على جناح السرعة وفداً يطلب الصلح . وكان من جملة بنود الاتفاق الذي وقعه امبراطور الروم هو أن يدفع الجزية دنانير ذهب تضرب في القسطنطينية بأسماء هارون امير المؤمنين ، وأولاده : الأمين والمأمون والمؤتمن . وذلك امعاناً في اذلاله .

وبالوقت الذي كان الجيش العباسي يزحف باتجاه سواحل البحر الأسود ، كانت هناك حملة بحرية أرسلها الرشيد لاستعادة جزيرة قبرص التي أضاعها العرب أيام الحروب الأهلية . وقد استولت على الجزيرة وأسرت عدداً كبيراً من جنود العدو . حدث ذلك سنة ١٨٧هـ (٨٠٢م) .

الخليفة هارون ينهي البرامكة :

يرجع أصل البرامكة إلى برمك المجوسي ، وهم من أسرة فارسية عريقة . وقد أسلم أولاد برمك ، وكان أحدهم يدعى خالد قد آزر الدعوة العباسية منذ نشأتها وناصرها بكل ما يملك وبشتى الوسائل ، ومكافأة له على صنيعه استوزره الخليفة العباسي السفاح . وبدوره المنصور ولاه على بلاد فارس ، ثم الموصل. ولما تولى الرشيد الخلافة قرب اليه يحيي بن خالد البرمكي وجعل منه الشخصية الكبيرة الأولى في الدولة، كما قرب أبناءه الفضل وجعفر وقلدهم المناصب الكبرى .

وكانت أسرة يحيي البرمكي أحظى الناس عند الرشيد وأحبها اليه . وقيل ان الخيزران أم هارون الرشيد أرضعت بلبنها الفضل بن يحيي ، وأم الفضل وجعفر

أرضعت هارون لبنها . وهذا ما يفسر أن الفضل يعتبر أخا لهارون بالرضاعة .

ويستدل من أقوال المؤرخين ومؤلفاتهم أن البرامكة بثقافتهم وعلمهم وخبرتهم قدموا خدمات جلى للرشيد وأسهموا معه في تقوية دعائم حكمه. وقد ظلوا سبعة عشر سنة يتمتعون بنفوذ كبير وصلاحيات مطلقة في ادارة شؤون الدولة، جمعوا خلالها ثروات ضخمة ، وبنوا قصوراً فخمة ، واقتنوا الخدم والموالي حتى أصبح عددهم لا يقل عن عدد موالي وخدم الخليفة .

وقد اختلف المؤرخون في أسباب نقمة الخليفة هارون على البرامكة وتدميرهم واستئصال شأفتهم . فقال البعض أن السبب (العباسة) أخت الرشيد التي زوجها من جعفر البرمكي زواجاً صورياً ليستطيع جعفر أن يحضر مجالسه العائلية، واشترط عليه بأن لا يقيم أية علاقة من أي نوع مع أخته العباسة. ولكن الزمن لم يطل حتى حملت العباسة من زوجها جعفر وولدت غلاماً وأرسلته سراً مع جارية من جواريها الى مكة ليربى عند مرضعة . فلما علم الرشيد غضب وقطع رأس جعفر وقضى على البرامكة. فهذه القصة التي تناقلتها الألسن بأشكال وأساليب مختلفة ليست هي بحد ذاتها السبب الرئيسي في نكبة البرامكة ، بل هناك أسباب أعمق من تلك الرواية أهمها :

١ ـ كان البرامكة في السنوات الأخيرة يبتون في أمور هامة دون أخذ رأي الخليفة فيها ، مثال ذلك اطلاق سراح يحيى بن عبدالله الذي تزعم حركة مناوئة للدولة العباسية في بلاد الديلم دون علم الرشيد ، الأمر الذي جعله ينقم على جعفر ويعتبر عمله خيانة .

٢ ـ تضخم ثروة البرامكة ، والانفاق دون حساب من أموال الخزينة على قصورهم وجواريهم وأتباعهم وأنصارهم مما زاد نقمة الرشيد عليهم وبالأخص كما يقول المؤرخ ابن جرير وغيره عندما علم أن جعفر أنفق على بناء قصره أموالا ضخمة تقدر بمليوني ونصف مليون دينار أخذها من بيت المال (خزينة الدولة).

٣ ـ ازدياد نفوذ البرامكة وهيمنتهم على الدولة ، فخشي الرشيد من خطر نفوذهم الآخذ بالازدياد على الخلافة العباسية . وقد نقل الى الخليفة بعض المقربين

اليه أن البرامكة يميلون الى العلويين ، وربما في المستقبل يقومون بحركة لاعادة الملك الى فارس باعتبارهم من أصل فارسي ، أو تحويل الخلافة الى العلويين .

تلك هي العوامل التي أدت الى نكبة البرامكة التي كان للدسائس في بلاط الرشيد دور فيها . وليس ثمة من شك بأن الثراء والنفوذ والتمتع بالسلطة المطلقة وتوزيع العطاء والمناصب على أنصارهم أثار العداء ونقمة الكثيرين من رجال القصر وجهاز الدولة وغيرهم من الأعيان والوجهاء على البرامكة . وحتى زبيدة فقد نقمت على يحيى ابن خالد البرمكي والد جعفر والفضل وشكته مرات الى الرشيد لتضييقه في النفقة على عيال الخليفة ، بينما كان ينفق بسخاء من أموال الخزينة على عياله وقصور أولاده .

وأخيراً قرر الرشيد انهاء البرامكة ، فأرسل خادمه الأمين (مسرور) ومعه حماد بن سالم أبو عصمة مع ثلة من الجند الى قصر جعفر فألقوا القبض عليه وسجنوه ، ثم حز رأسه . وكان عمره وقتئذ ٣٧ سنة وفي نفس الليلة التي قتل فيها جعفر أمر الرشيد بسجن يحيى وولده الفضل ، وظلا في سجنهما حتى ماتا . وقد كانت وفاة يحيى البرمكي في سجنه ببغداد سنة ١٨٨هـ (٨٠٣م)، عن عمر يناهز ٧٠ سنة ، ووفاة ولده الفضل في حبسه بالرقة سنة ١٩٢هـ وله من العمر ٤٥ سنة .

أما أملاك البرامكة وأموالهم فقد صادرها الخليفة هارون الرشيد ، كما أعتق عبيدهم وجواريهم ، وطهر القصر وجهاز الدولة من أنصارهم وأتباعهم . وهكذا قضي على البرامكة واندثرت آثارهم حدث ذلك في سنة ١٨٧هـ (٨٠٢م).

ازدهار الحركة العلمية والتجارة والصناعة

ازدهرت الحضارة الاسلامية في عهد الخليفة هارون الرشيد . وقد نشطت التجارة نشاطاً ملحوظاً حتى فكر في وصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر ، ذلك قبل أن يفكر المهندس الفرنسي فيردينان دوليسيبس بأكثر من ألف سنة .

وكان من عوامل النشاط التجاري اتساع الدولة الاسلامية والاختلاط بالروم والصينيين والافريقيين وسائر شعوب البلاد المفتوحة . وقد وصل العرب بتجارتهم شرقاً الى الصين ، وغرباً الى المحيط الأطلسي ، وجنوباً الى جزيرة مدغشقر ، كما عبروا صحراء افريقيا الكبرى حتى نهر النيجر .

وقد اهتم الرشيد بأمور رعيته حتى أنه كثيراً ما كان يتنكر متخفياً ويسير في طرق بغداد وأسواقها لكي يتعرف على أحوال الرعية فيتسنى له بالتالي انصاف المظلوم واغاثة الملهوف . ومن جملة أعماله التي قام بها : تأمين الطرق التجارية ، وحفر الآبار . وانشاء المحطات على طول طرق القوافل لامداد المسافرين بما يلزمهم . كما أنشأ المدارس والمساجد والمستشفيات . وشجع التأليف وترجمة الكتب الهندية والفارسية والرومانية وغيرها الى اللغة العربية .

وقد عني الرشيد بنشر العلوم ، فأمر بتأسيس المعاهد لتخريج الأطباء . وكان هناك نوعان من الكليات الطبية النوع الأول هو (البيمارستان) أي المستشفى ، والنوع الثاني — المدارس النظرية . كما شجع الصناعات في الولايات الاسلامية ، وكان من أهمها أن ازدهرت في عهده صناعة السجاجيد الحريرية والقطنية والصوفية ، وصناعة البسط والنسيج والبسط المطرزة ، والأقمشة ، وصناعة الأواني الخزفية . وأدوات الطهي ، والمصابيح . وكان لكل ولاية صناعتها الخاصة التي اشتهر بها . فمثلاً اشتهرت الكوفة في العراق بصناعة الكوفيات ، واشتهرت دمشق بصناعة نوع من الأقمشة أطلق عليه الأوربيون اسم (داماسك) نسبه اليها ، وكذلك الموصل في العراق فقد اشتهرت بصناعة نوع من الأقمشة أطلق عليه الغرب اسم (موسلين) نسبة اليها ، وأيضاً مصر اشتهرت ببعض الصناعات أطلق على معظمها اسم الدمياطي نسبة الى دمياط . وهناك صناعة القاشاني والفسيفساء فقد اشتهرت دمشق بهما . كما تقدمت صناعة الحلي وصقل الأحجار الكريمة في كثير من المدن الاسلامية . وأصبح اللؤلؤ والياقوت والزمرد والماس من الجواهر المفضلة عند علية القوم . ويقال أن من أشهر الجواهر في التاريخ الاسلامي ياقوتة حمراء كبيرة توارثها قديماً ملوك فارس الساسانيون . ثم صارت الى الخليفة هارون الرشيد فاشتراها بمبلغ أربعين ألف دينار .

المجالس الاجتماعية

وكان هارون الرشيد مثالاً للكرم ، فقصده الأدباء والشعراء أرباب النوادر ، وأرباب الموسيقى والغناء . وكانت في قصره تعقد الندوات ويتبارى فيها الشعراء ، ومجالسه الخاصة تتخللها التسلية والنوادر والغناء .

ومن مشاهير الأدباء والشعراء والموسيقيين في عهد الرشيد هم :

الأصمعي ، أديب كبير ، شاعر ، ومؤلف ، عهد اليه الخليفة هارون الرشيد بتعليم ابنه الأمين . ولد في البصرة سنة ٧٤٠م ، وتوفي سنة ٨٢٨ م .

أبو العتاهية ، كني بأبي العتاهية لتعتعته وحبه للمجون ، نشأ بالكوفة ،شاعر مشهور ، عاش في أيام الرشيد حتى أيام المأمون ، توفي ٨٢٥م ، ومن أقواله :

فيا ليت الشباب يعود يوماً • فأخبره بما فعل المشيب

أبو نواس ، من كبار شعراء العصر العباسي ، قضى حياته مقرباً من الرشيد ، ولد في الأهواز سنة ٧٦٢م ، وتوفي في بغداد سنة ٨١٣م .

ابراهيم الموصلي ، موسيقي مشهور ، شاعر ، ومغني ، من ندماء الرشيد ، ولد في الكوفة سنة ٧٤٢ م وتوفي في بغداد سنة ٨٠٤ م .

وكان من أشهر أطباء الخليفة هارون جبرائيل بختيشوع ، مسيحي من طائفة السريان ، له كتب في علم الطب ، توفي في عام ٨٣٠ م .

أما زوجة الرشيد أم العزيز الملقبة (زبيدة) فهي عربية عباسية بنت جعفر بن المنصور ، لقبت زبيدة لأن جدها الخليفة المنصور كان يقول لها وهي صغيرة : أنت زبيدة ، لبياضها ، فغلب عليها ذلك وأصبحت تعرف بهذا الاسم .وتزوجها هارون الرشيد في عهد أبيه المهدي ، وولدت له الأمين .

وكانت زبيدة محبة لأعمال البر والخير كريمة وجميلة ، لها منزلة عالية وأحب الناس إلى الرشيد . وذكر المؤرخ المشهور ابن خلكان أنه كانت تفرض على

جواريها أن يحفظن القرآن الكريم . وقيل لما حجت أنفقت ثلاثة ملايين دينار على أعمال الخير والفقراء وجر الماء الى الحرم بمكة المكرمة من عين أطلق عليها اسم عين زبيدة . وقد عاشت حوالي ٦٢ سنة منها ٢٣ بعد وفاة الرشيد . وتوفيت ببغداد سنة ٢١٦هـ.

ولاية العهد ووفاة الرشيد :

في السنوات الأخيرة من حياة الخليفة هارون الرشيد أراد أن يختار أحد أبنائه للخلافة من بعده . وكان هناك تنافس بين فئتين . الأولى تحبذ الأمين بن زبيدة لولاية العهد ، والفئة الثانية تناصر المأمون . وهذه الأخيرة كانت بزعامة الفضل بن سهل من أصل فارسي . يؤيد البيعة للمأمون باعتباره أكبر سناً من أخيه الأمين ، ومن أم فارسية اسمها مراجل . بينما الفئة الأولى كانت تمثل النفوذ العربي بزعامة زبيدة أم الأمين والوزير الفضل بن الربيع .

وأخيراً اتخذ الرشيد قراره وجعل ولاية العهد لأولاده الثلاثة على أن تكون ولايتهم بالتتابع ، الأول يكون الأمين ، ويليه المأمون ، ثم القاسم الملقب بالمؤتمن . وثبّت ذلك بعهد كتبه في مكة المكرمة بعد أن أدى فريضة الحج سنة ١٨٧ ، وأشهد عليه الأمراء والوزراء والعلماء والقضاة ، وأودعه الكعبة المكرمة .

ولضمان التفاهم والتعاضد بين أولاده ، ومنعاً لاثارة الغيرة والحسد والصراع بينهم فقد ولى كل واحد منهم امارة . فالأمين ولاه امارة الشام والعراق ، والمأمون خراسان وبلاد ما وراء النهر والمشرق ، والمؤتمن الجزيرة والثغور والعواصم المتاخمة الى الروم . وأخذت العهود من الأمين والمأمون بأن لا يتدخل أحدهما بشئون ادارة امارة الآخر . كما أخذ عليهما عهداً بأن لا يتدخلا في ادارة أخيهما المؤتمن في الجزيرة .

وفي عام ١٩٣هـ (٨٠٩م) نشبت فتنة في تركستان تزعمها رافع بن ليث تفاقم خطرها ، فسار الخليفة هارون الرشيد على رأس جيش لاخمادها .وعندما وصل

الى مدينة طوس في خراسان مرض واشتدت به العلة ومات [1] وكان في الخامسة والأربعين من عمره ، بعد أن تولى الخلافة ٢٣ سنة .

وقد رثاه الشعراء بقصائد كثيرة . ومما قاله الشاعر أبو الشيص :

غـــربت في الشرق شمـــس * فلهـــا العينـــان تدمع
مــــا رأينـــا قط شمســـاً * غربت مـــن حيث تطلـــع

خلافة الأمين :

بعد وفاة هارون الرشيد تولي الخلافة ابنه الأمين ، وقد بايعه وجهاء بني هاشـــم والأمراء وقواد الجيش وعامة الناس . وكان الأمين عازماً كما ذكر المؤرخون عـــلى تنفيذ وصية أبيه والوفاء لأخويه بما تعهد ، ولكن وزيره الفضل بن الربيع ظل يحثه على خلع أخيه المأمون من ولاية العهد لأنه كان يخشي ان أفضت الخلافـــة الى المأمون سيعزله من منصبه ويولي مكانه الفضل بن سهل (الفارسي) . مع ان الفضل ابن الربيع هو أول من نكث بالعهد الذي كان أخذه هارون الرشيد عليه للمأمون في طوس حيث جدد البيعة لابنه قبل وفاته . ومن جملة مانص عليه كتاب تجديد البيعة يومئذ هو ان جميع الأموال والسلاح والدواب والمؤن التي هي بحوزة المأمون تبقي له، والجنود مع قوادهم ينضمون اليه . وبعد وفاة الرشيد نقض بن الربيع العهد وعاد مسرعاً مع جنوده الى بغداد لعند الأمين .

الفتنة بين الأخوين :

واستمرت محاولات الفضل بن الربيع حتى وافق الأمين على انتزاع ولاية العهد من المأمون لولده الطفل الرضيع من بعده ، كما بعث رسولا الى مكة المكرمة لسحب كتاب العهد الذي كان والده الرشيد كتبه وأودعه في الكعبة ، فمزقه وأحرقه .

---

(١) قال ابن جرير المؤرخ المشهور لما توفي الخليفة هارون الرشيد كان في بيت المال (خزينة الدولة) ٧٠٠ مليون دينار .

وهكذا وقعت الفتنة بين الأخوين ، واشتد بينهما النزاع الذي كان في الواقع نزاعاً بين العرب والفرس على النفوذ تحت ستار مؤازرة العرب للأمين والفرس للمأمون.

وسير الأمين جيشاً كبيراً الى خراسان لقتال أخيه بقيادة علي بن عيسي بن ماهان سنة ١٩٥ ﻫ . ولما بلغ الري اشتبك مع جيش المأمون الذي يقدر بأربعة آلاف مقاتل بقيادة طاهر بن حسين بن عيسي الخزاعي وكانت النتيجة مقتل قائد جيش الأمين وفرار جنوده . وقد أثرت تلك الهزيمة على مركز الأمين في بغداد حيث تضعضع الوضع وازداد تفاقماً بعد الهزيمة الثانية التي مني بها جيش الخليفة في همذان وقتل قائده عبد الرحمن بن جبلة . ثم واصل القائد طاهر بن حسين تقدمه حتى وصل حلوان ، فاحتلها بسهولة . ومنها اتجه الى الأهواز بعد أن سلم هرثمة بن أعين القيادة في المنطقة .

نهاية خلافة الامين :

حاول الأمين انقاذ نفسه وانقاذ خلافته ، فأتي بنجدات من بلاد الشام ، ولكن ما كادت تدخل بغداد حتى نشبت ثورة أهلية ، واشتد القتال بين الفئتين المتنازعتين وهما الفئة المؤيدة للأمين والأخري المؤيدة للمأمون .

وأخيراً وصلت جيوش المأمون الى بغداد بقيادة طاهر بن حسين وهرثمة بن أعين، وحاصرت المدينة حصاراً طال أمده ، ثم دخلتها بعد قتال عنيف . أما مصير الأمين فقد حاول عبور نهر دجلة الى الضفة الشرقية ليسلم نفسه للقائد هرثمة الذي كان وعد ان يحافظ عليه ويسير معه الى المأمون ليأخذ له الأمان والعفو ، ولكن محاولته لم تنجح . فقد تتبعه جنود طاهر بن حسين وقتلوه .

وكان الأمين عندما قتل في سنة ١٩٨ ﻫ (٨١٣ م) في السابعة والعشرين من عمره ، وكانت مدة خلافته أربع سنوات وثمانية أشهر . وبعد مقتله نقلت أمه زبيدة من قصر أبي جعفر المنصور الى قصر الخلد ، وبعث القائد طاهر بولدي الأمين (موسي وعبد الله) الى عمهما المأمون بخراسان . وبذلك انتهي عهد الأمين وبايعت جميع الولايات أخاه المأمون .

عهد خلافة المأمون

في المرحلة الأولى لم ينتقل المأمون الى بغداد بل بقي في مدينة مرو بخراسان ارضاء لأهلها الذين ناصروه . كما منح وزيره الفضل ابن سهل صلاحيات واسعة ، وولي شقيقه الحسن بن سهل نيابة العراق وفارس والحجاز واليمن ، وارسل طاهر بن الحسين الى الرقة لقمع حركة نصر بن شعث وولاه نيابة بلاد الشام والجزيرة والمغرب ، وولّى هرثمة بن أعين خراسان .

وعملا بمشورة وزيره الفضل بن سهل (الفارسي) فقد اختار المأمون علي الرضا بن موسى (١) الذي ينتمي نسبه الى الامام علي ابن أبي طالب لولاية العهد ، وحظر ارتداء اللباس الأسود والاستعاضة عنه باللباس الأخضر . مع العلم ان الأسود هو شعار العباسيين والأخضر شعار العلويين . وقد اختلفت الآراء حول اختيار علي الرضا لولاية العهد ، فهناك فريق يقول : ان المأمون أراد بذلك ارضاء للفرس أنصار العلويين ، وهناك فريق آخر يقول : ان المأمون كان يميل الى العلويين في أول أمره لتأثره بالفرس ، وهناك فريق ثالث يقول : ان المأمون رأى ان علي الرضا أجدر من بني العباس بولاية العهد ، وهناك فريق رابع يقول : ان الوزير الفضل بن سهل هو الذي حث المأمون على هذا الاختيار لهدف معين قوامه تحقيق رغائب الفرس المتمثلة في انتقال الخلافة الى العلويين عاصمتها احدى مدن فارس .

وليس ثمة من شك ان خلع السواد والاستعاضة عنه باللون الأخضر ، واختيار علي الرضا لولاية العهد هو من تدبير الفضل بن سهل الذي كان يخفي الكثير من الأمور على المأمون . وقد أدى ذلك الى نشوب حركة انقلابية في بغداد أطاحت بحكم المأمون ومبايعة عمه ابراهيم بن المهدي بالخلافة في شهر محرم ٢٠٢هـ(٨١٦م).

ولما علم المأمون بالأمر اغتاظ من وزيره الفضل لسوء تدبيره واخفائه عن الخليفة

---

(١) هو علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن عامر بن علي بن أبي طالب .

حقيقة الوضع ، وفي الحال أصدر أمره بالسير الى بغداد . وعندما وصل الموكب الى سرخس تسلل تحت جناح الظلام أربعة رجال الى غرفة الوزير الفضل بن سهل وقتلوه في الحمام . وتم اعتقال القتلة وقطعت رؤوسهم .

وفي طريقه الى العراق مر الخليفة المأمون بطوس حيث زار قبر والده هارون الرشيد . وفي بلدة طوس توفي فجأة في أواخر شهر صفر عام ٢٠٣ هـ علي الرضا الذي كان اختاره المأمون لولاية العهد بناء على مشورة وزيره الفضل . ويدعي الشيعة انه أكل عنبا ومات مسموما . .

ولم تكد تصل أنباء قدوم المأمون الى بغداد حتى ثار أهلها على ابراهيم المهدي الذي كانوا بايعوه قبل عامين . وقبل دخول المأمون العاصمة العباسية أقام في النهروان عدة أيام حيث وافاه طاهر ابن الحسين وبعض قواد الجيش. وفي ١٤ صفر سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩م) دخل بغداد بأبهة عظيمة وجيش كبير ، وبعد أسبوع أعاد اللباس الأسود والرايات السوداء ، واختفي اللون الأخضر .

أما ابراهيم المهدي [1] عم المأمون فقد هرب وظل مختفياً في بغداد ستة أعوام ، ثم استسلم وعفا عنه ، كما عفا المأمون عن الثائرين باستثناء أربعة من كبار المتآمرين

وبعد أن هدأت الحالة واستقرت الأمور تزوج المأمون في سنة ٢١٠ (٨٢٦م) من بوران ابنة الحسن بن سهل شقيق الفضل بن سهل وزير المأمون السابق الذي اغتيل قبل ثمانية أعوام . وقد حضرت العرس زبيدة أم الأمين وخلعت على بوران بذلتها الأميرية وقالت للمأمون : يا أمير المؤمنين ! في عرسك ذكرى المحبة والمسرة من ذكرى أيام أبيك هارون الرشيد . . وقيل ان بوران في ليلة حفلة عرسها طلبت من المأمون أن يعيد الى عمه ابراهيم المهدي منزلته ، وأن يأذن لزبيدة في أداء فريضة الحج ، فحقق رغباتها . .

---

(١) كان ابراهيم المهدي يجيد الشعر والغناء والعزف على العود .

القضاء على البدع والفتن :

اشتعلت نيران الفتن في بعض الولايات وكان أشدها خطراً هي التي نشبت في مصر حيث استولي الثوار بقيادة عبيد الله بن السري عليها وأقاموا لهم حكومة فيها وقد سيرّ المأمون جيشاً في عام ٨٢٥م بقيادة عبد الله بن طاهر بن الحسين [1] الذي تميز بالشجاعة ومكارم الأخلاق . ومما قاله في خطبته البليغة التي ألقاها في جنوده نقتطف ما يلي :

انكم فئة الله المجاهدون عن حقه ، المدافعون عن دينه ، الذائدون عن محارمه، الداعون الى ما أمر به من الاعتصام بحبله ، والطاعة لولاة الأمور الذين جعلهم الله عماة الدين ، ونظام المسلمين ، فقاتلوا الذين شذوا وتمردوا وفارقوا الجماعة ، ومرقوا من الدين وسعوا في الأرض فساداً ، فانه يقول تبارك وتعالي : (ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ، فليكن الصبر معقلكم ، الذي اليه تلجأون ، وعدتكم التي بها تستظهرون .

وتمكن عبد الله من القضاء على حركة الثوار في مصر واعادة الأمن والنظام وتوطيد حكم الخليفة العباسي . ومكافأة له فقد ولاه الخليفة المأمون الجزيرة وبلاد الشام ومصر .

وفي بلاد اذربيجان ظهرت حركة (بابك الخرمي) الذي قام بنشر بدعته التي تبيح الكثير من المحرمات . واعتصم بابك في المناطق الجبلية واستفحل خطره ، فأرسل المأمون جيشاً لقتاله والقضاء على حركته التي استمرت حتى عهد المعتصم ، فأبادها وقتل بابك . (وسنأتي على ذكرها بالتفصيل) .

---

(١) طاهر بن الحسين القائد المشهور الذي ولاه المأمون خراسان سنة ٢٠٥ ﻫ وتوفي سنة ٢٠٧ ﻫ بمدينة مرو ، وولى الخليفة ابنه عبد الله مكانه .

الثروة العلمية والأدبية

حذا المأمون حذو والده هارون الرشيد في تشجيع العلم والأدب وقد أنشأ في بغداد سنة ٨٣٠ ميلادية بيت الحكمة يشمل مدرسة للعلم والترجمة ومكتبة تزخر بمختلف الكتب والمصنفات العلمية والأدبية والفلسفية .

وفي عهده ترجمت الكثير من الكتب اليونانية والفارسية والسريانية الى اللغة العربية ، وكان من أشهر المترجمين هو حنين بن اسحق . طبيب وفيلسوف . نقل الى العربية عدة كتب عن اليونانية منها : كتب جالينوس وابقراط في الطب . وكتب المقولات والطبيعيات والأخلاق لارسطو . وكتب الفلسفة والقوانين لافلاطون وثيماوس ، وأصول الهندسة لاقليدوس . والكرة والاسطوانة لارخميدس . كما ترجمت مجموعات أخرى من كتب الطب والفلك والهندسة والموسيقى الخ . . وكان حنين ومساعدوه من المترجمين ، يتلقون بالاضافة الى مرتباتهم مكافآت مالية يمنحها الخليفة المأمون .

ان عصر المأمون يعتبر عصر الرقي والتقدم والتطور . ففي عهده ازدهرت العلوم والفنون الاسلامية ازدهاراً رائعاً وذلك بتشجيعه للعلم ورواده . وكان المأمون شغوفاً بالعلم والمعرفة ، فدرس في عهد أبيه هارون الرشيد الفقه والأدب والتاريخ ، وتعمق بدراسة التشريع وعلم الفلك والفلسفة . وكان فصيح اللسان . يجيد الشعر ، ويحب مجالس العلماء والأدباء والشعراء . وقيل انه في أواخر عهده أفسح المجال للمعتزلة لابداء آرائهم بحرية وعقد الندوات للمناقشات الدينية والفلسفية . والجدير بالذكر ان كبار الأئمة وفي مقدمتهم الامام أحمد بن حنبل [1] اعتبروا آراء المعتزلة منحرفة تناقض كلام الله تعالى القائم بذاته المقدسة .

وفاة الخليفة المأمون :

كان المأمون قبل وفاته بثلاث سنوات عبر خلالها عدة مرات بلاد الروم . ففي

(١) الامام احمد بن حنبل ، عالم كبير وفقيه جليل ، صاحب المذهب الحنبلي المعروف باسمه ، ولد في بغداد سنة ١٦٤ هـ وتوفي سنة ٢٤١ هـ .

سنة ٢١٦ هـ (٨٣١م) دخل بلاد الروم على رأس جيش واحتل هرقلية ودمر عدة حصون . ثم عاد ثانية عندما رجع من مصر حيث قضى على فتنة عبدوس الفهري سنة ٢١٧ هـ وعبر بلاد الروم وحاصر لؤلؤة مائة يوم ، ثم رحل عنها واستخلف على حصارها عجيفاً ، فخدعه أهلها وأسروه حيث ظل ثمانية أيام ، وعاد المأمون للمرة الثانية الى لؤلؤة فخرج أهلها وطلبوا الأمان والمصالحة .

وفي سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣م) خرج المأمون من الرقة للزحف على بلاد الروم ، فوافاه الأجل في البدندرن شمال طرسوس ، فحمل اليها ودفن بها . وكان عمره ٤٨ سنة ، ومدة خلافته ٢٠ سنة وخمسة أشهر .

عهد المعتصم بالله

هو محمد المعتصم بن هارون الرشيد ، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المأمون في شهر رجب سنة ٢١٨ هـ (٨٣٣م) بمدينة طرسوس التي دفن بها أخوه . وكان المعتصم من أم تركية اسمها ماردة تزوجها هارون الرشيد فولدت له المعتصم وأم حبيب . وقد اتصف بالشجاعة والجرأة والقوة البدنية الخارقة ، فيروى انه كان يكسر بين أصبعيه زند الرجل ، ويمسح قطعة النقود من الذهب أو الفضة .

واعتمد المعتصم على العنصر التركي في تكوين جيش خاص للتخلص من نفوذ العنصر الفارسي الذي ازداد قوة في عهد المأمون وبالوقت ذاته لحماية الدولة من الحركات المعادية في الداخل . وقد شكل فرقة خاصة من الترك استقدمهم من بلاد ماوراء النهر ، وألبسهم زياً خاصاً . وان بعمله هذا أثار عداء الفرس بالدرجة الأولى ، وبالتالي العرب الذين فقدوا مركزهم في بيت الجند .

بناء حاضرة جديدة :

لم تمض فترة طويلة على تكوين فرقة عسكرية من الأتراك حتى خيم على بغداد موجة من الاستياء بسبب أعمال الضباط والجنود الاستفزازية حيث أدت الى وقوع

اصطدامات بين الأتراك والأهالي ، فاضطر الخليفة المعتصم الى بناء مدينة جديدة ينتقل اليها مع جنوده .وعلى بعد ٧٠ ميلا شمال بغداد على ضفة نهر دجلة تم بناء (سامراء) [1] سنة ٨٣٦ ميلادية . وفيها بنى الخليفة قصراً فخماً ، ومسجداً بلغ علو مأذنته ٥٥ متراً، وأحياء خاصة للضباط وجنود الأتراك. وظلت سامراء حاضرة للخلافة العباسية ٦٠ سنة .

حركة بابك الخرمي والقضاء عليها :

سبق وذكرنا ان بابك الخرمي صاحب البدعة الخرمية البابكية قام في عهد المأمون بحركة في اذربيجان استفحل خطرها . وقد أرسلت حملات عسكرية لاخمادها والقاء القبض على بابك ولكن فراره الى الجبال الوعرة واعتصامه فيها حال دون القضاء على هذه الحركة التي استمرت حتى عهد المعتصم الذي كان . أوصاه المأمون حين أدركته المنية بأن يكافح الخرمية بدون هوادة حتى يبيدها .

وفي سنة ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م) جهز المعتصم حملة عسكرية للقضاء على بابك الذي قويت شوكته وانتشر أتباعه في اذربيجان . واختار لقيادة الحملة حيدر ابن كاوس المعروف باسم (الافشين) ، تركي من بلدة اشروسنة الواقعة وراء النهر . وكان الافشين خبيراً بحرب العصابات ، فأحكم الطوق على المنطقة ، وتمكن من اقتحام المواقع الجبلية حيث دارت المعارك العنيفة بين قوات الخليفة والثوار كانت حصيلتها تضعضع جماعة بابك وقتل الكثير منهم. ثم استمر تقدم الجيش العباسي عبر الجبال وممراتها الوعرة حتى بلغ قلعة بابك التي اتخذها عاصمة له ، واسمها (البند أو البذ) ، فاقتحمها الافشين بعد قتال وحصار طويل ، وتمكن من أسر بابك وأخيه عبد الله وبعض أنصاره . وارسل الجميع الى سامراء حيث أمر الخليفة المعتصم بقتل بابك وأخيه وصلبهما . وبذلك قضي في عام ٨٣٧ ميلادية على حركة

---

(١) أطلق على المدينة في أوائل الأمر اسم (سرور من رأي) ، ثم اختصر الاسم وأصبح (سر من رأى) وبعد زوال الدولة العباسية ومع مرور الزمن أصبحت تعرف باسم سامراء .

بابك الذي بلغت ضحاياه منذ ظهوره في سنة ٢٠١ هـ حتى سنة ٢٢٢ هـ نحو ٢٥ ألف من المسلمين قتلهم ونكل بهم .

فتح عمورية في بلاد الروم :

بعد أن قضى المعتصم على حركة بابك وبدعته قام بتجهيز جيش كبير لقتال الروم الذين كانوا استغلوا فرصة انشغال قوات الخليفة في محاربة بابك باذربيجان فزحف ملكهم الامبراطور تيوفيل على المناطق العربية ، فاقتحم زبطرة المدينة التي ولد فيها المعتصم ونكل بأهلها ، ومنها اتجه الى ملاطية (ملطية) فسبي النساء المسلمات وقتل كثيراً من الرجال .

وسار المعتصم في عام ٨٣٨ ميلادية على رأس جيش ضخم بعدده وبتجهيزه . وولى الافشين قيادة الجيش الثاني وأمره بعبور الجبال عن طريق الحدث والاتجاه الى أنقره حيث حدد اللقاء فيها . وبينما كان المعتصم يعبر بجيشه جبال طورس تقدمت قوات امبراطور الروم باتجاه الجيش الذي يقوده الافشين وانقضت عليه بسرعة خاطفة ، فصمد الجيش الاسلامي رغم الخسائر ، وتمكن من شن هجوم مضاد على الروم ، فدحرهم ، وانسحب الامبراطور تيوفيل مع جيشه المنهزم الى عمورية .

وفي أنقرة التقى الجيشان حسب الخطة التي رسمها المعتصم ، ومنها زحف الخليفة الى عمورية [1] بجيشه الكبير الذي قسمه الى ثلاثة أرتال ، الأول الميمنة بقيادة الافشين ، والثاني الميسرة بقيادة اشناس ، والثالث القلب بقيادة المعتصم نفسه . وأطبقت الجيوش على المدينة المحصنة ذات الأسوار المنيعة والأبراج العالية ، وشددت عليها الحصار ، ثم اقتحمتها بعد أن هدمت قسماً من أسوارها بالمنجنيق . وعلى غرار مافعله الروم في زبطرة وملاطية فقد انتقم منهم المعتصم وأمر بهدم المدينة .

---

(١) عمورية تبعد عن أنقره نحو ١٥٠ كيلومترا ، فيها ولد تيوفيل امبراطور الروم ، وأيضا والده الامبراطور ميخائيل .

وكان من بين الأسرى المسلمين الذين أنقذهم جيش المعتصم بعد أن استولى على عمورية امرأة مسلمة اتخذها أحد النبلاء جارية فكان يعذبها وتصيح قائـــلة : (وامعتصماه) ، أي تطلب من المعتصم انقاذها . وكان خبرها قد نقله أحد التجار الى الخليفة المعتصم قبل أن يقتحم عمورية ، فلما استولى عليها أمر باحضـــار الجارية المسلمة والرومي الذي كان يعذبها ، وقال لها المعتصم قد حكمتك بهذا الرومي فاذا شئت قتله قتلناه لك . فشكرت أمير المؤمنين وطلبت منه أن يعفو عنه. فأكبر منها ذلك المعتصم وعفا عنه .

وقد خلد الشعراء معركة عمورية وانتصار المعتصم . ومما قاله أبو تمام الشاعر المشهور في وصفه لتلك المعركة التاريخية نقتطف الأبيات التالية :

يا يوم وقعة عمورية انصرفـــت	عنك المنى حفلا معسولة الحلب
لقد تركت أمير المؤمنين بهـــا	للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
ضوء من النار والظلماء عاكفة	وظلمة من دخان في ضحي شحب
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت	والشمس واجبة من ذا ولم تجب
لم تطلع الشمس منهم يوم ذاك على	بان بأهل ولم تغب على عزب
تدبير معتصم بالله منتقـــــم	لله مـــــرتغب في الله مـــرتقب
لم يغز قوماً ولم ينهض إلى بلـــــد	الا تقدمه جيش مـــن الرعب
رمى بك الله برجيهـــا فهدمهـــا	ولو رمى بك غير الله لم تصب

اكتشاف المؤامرة :

عزم قواد العرب على التخلص من المعتصم ومبايعة العباس بن المأمون بالخلافة. فوضع عجيف بن عنبسة القائد العربي الخطة لاغتيال الخليفة وقواد الأتراك منهم الافشين واشناس . وظل العجيف يحث العباس ويلح عليه حتى وافق على خطة المؤامرة التي نقل سرها الى المعتصم أحد رجاله المخلصين وهو في طريق العودة من عمورية الى طرسوس ، فأمر بقتل المتآمرين ، وسجن ابن أخيه العباس حيث ظل حتى مات .

نهاية الافشين :

ثبت للخليفة المعتصم ان الافشين القائد التركي يعمل سراً للوصول الى الملك وقيام دولة في بلاد ما وراء النهر . وكخطوة أولى لتحقيق غايته راح الافشين يشجع مازيار بن قارن الثائر في طبرستان ويحرضه على التمرد وعدم الانصياع الى نائب الخليفة في خراسان عبد الله بن طاهر ، ظناً بذلك ان الوضع يتضعضع فيوليه المعتصم امارة خراسان مكان نائبه عبد الله . ولكن ذلك لم يتحقق ، فالخليفة أرسل جيشاً الى عبد الله بن طاهر للقضاء على حركة مازيار ، فتمكن من اخمادها والقاء القبض على مازيار وأخيه قوهيار وارسلهما الى الخليفة في سامراء ، كما بعث اليه الرسائل التي كان الافشين أرسلها الى مازيار .

وقد أمر المعتصم بقتل وصلب مازيار ، أما الافشين فشكل لمحاكمته مجلساً يتألف من القاضي أحمد بن أبي دؤاد ، والوزير محمد بن عبد الملك بن الزيات ، ونائبه اسحق بن ابراهيم . فثبت انه كان على اتصال بمازيار المتمرد على الدولة ، وكان يراسل جماعة من بلده اشروسنة ويبعث اليهم بالأموال والهدايا لتوزع في بلاد ما وراء النهر ، كما ثبت انه لا يزال يدين بمذهب المجوس دين آبائه وأجداده ، فأمر الخليفة بسجنه في كوة ضيقة حيث ظل حتى مات سنة ٢٢٦ هـ .

وبعد مرور عام توفي الخليفة المعتصم في ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٣م) ، وكان في السابعة والأربعين من عمره ، ومدة خلافته تسع سنوات .

خلافة الواثق بن المعتصم :

تولى هارون الواثق الخلافة بعد وفاة أبيه في ربيع الأول سنة ٢٢٧ هـ (٨٤٢م) . وكان الواثق من أم رومية اسمها قراطيس ، توفيت في نفس السنة التي تولى فيها الخلافة . وعلى غرار خطة أبيه فقد قرب الأتراك منه ، وقلدهم المناصب الكبرى في الدولة ، كما اتخذ القائد التركي (اشناس) وزيراً له ولقبه بلقب سلطان ، وألبسه وشاحين وتاجاً مرصعاً بالجواهر .

وكان لدى الواثق وزيران للاستشارة في أمور الدولة هما أحمد بن دؤاد المعتزلي ، ومحمد بن عبد الملك الزيات . وقد حاول الأول بأسلوب لبق وأيده الثاني ضمناً العمل على الحد من نفوذ الأتراك الآخذ بالازدياد ولكنه لم يتمكن . واضطر في النهاية الى العدول عن محاولته بعد أن ثبت له ان مقاومة النفوذ التركي ستكلفه حياته وحياة أصدقائه ، والنتيجة ستكون سلبية .

وفي عهد الواثق وقعت اضطرابات في الحجاز ونجد . فأرسل حملة عسكرية بقيادة القائد التركي بغا الكبير لاخضاع القبائل الثائرة . وتمكن جيش الخليفة من اخضاع بني سليم ، وبني هلال ، وبني فزارة في الحجاز سنة ٢٣٠ ﻫ . أما في نجد واليمامة فقد جرت معارك عنيفة تكبد فيها جيش بغا خسائر فادحة ، وكادت قبائل بنو نمير وبنو تميم تهزمه لولا النجدات العسكرية التي وصلته من العراق . فعدلت الموقف ، وتم اخضاع القبائل سنة ٢٣٢ ﻫ .

وكان الواثق رجلاً عاطفياً ، أديباً وشاعراً ، يقرب منه العلماء . ويعقد في قصره الندوات للمناقشات العلمية والفلسفية . وفي هذا الصدد يقول ابن جرير وغيره من المؤرخين : ان الواثق كان يعتبر من أهل العلم والأدب ، كرس أوقاته للمطالعة والدراسات التاريخية والفلسفة والعلوم الطبيعية منذ صباه ، ترعرع في بغداد ، وقضى عهد خلافته في سامراء الحاضرة الجديدة التي بناها المعتصم .

وقد أصيب الخليفة الواثق بمرض قيل انه مرض الاستسقاء ، فمات عن عمر لا يتجاوز ٣٦ سنة في شهر ذي الحجة سنة ٣٣٢ ﻫ (٨٤٧ م) ، وكانت مدة خلافته خمسة أعوام وتسعة أشهر .

عهد الخليفة المتوكل على الله

(مكافحة المعتزلة والبدع — محاولة القضاء على نفوذ الاتراك)

تولي جعفر ابن المعتصم الملقب بالمتوكل على الله الخلافة بعد وفاة أخيه الواثق سنة ٢٣٢ هـ . وقام بحملة كاسحة ضد المعتزلة ، فحظر عليهم عقد الندوات ، ونشر الآراء المخالفة لمذهب السنة ، وطرد أتباعهم من دواوين الدولة . واستدعى الامام أحمد بن حنبل الذي قاوم المعتزلة وأكرمه ، وأصبحت له الكلمة الأولى النافذة ، ولم يعد يولي المتوكل أحداً في القضاء والمناصب الكبرى الا بعد مشورته .

وحارب المتوكل أصحاب البدع ، وشدد الخناق على الذين لا يتبعون الكتاب والسنة ، كما أمر بتطهير الدواوين في جميع الولايات من العناصر المنحرفة والفاسدة ومصادرة أموالهم .

وفي سنة ٢٣٧ هـ قامت حركة في ولاية ارمينيا بزعامة البطريرك بقراط بن اشوط كانت تهدف الانفصال عن الدولة العباسية واقامة امارة مستقلة ، فألقي القبض على البطريرك وأرسل الى الخليفة ، فهاج الأرمن وحاصروا مدينة طرون مقر الوالي يوسف بن محمد يوسف فقتلوه ، وقتلوا معه عدداً من المسلمين . ولما بلغ الخليفة المتوكل ما وقع في ارمينيا أرسل حملة عسكرية كبيرة بقيادة بغا التركي الذي أخضع في عهد الواثق القبائل التي ثارت في جزيرة العرب . وتمكن القائد بغا بعد معارك عنيفة من القضاء على حركة التمرد في ارمينيا .

وفي عهد المتوكل ازداد نفوذ الأتراك الى درجة كبيرة ، فخشي الخليفة أن يؤدي ذلك الى سيطرتهم على الدولة واغتصابهم للملك ، ورأى ان أفضل وسيلة للتخلص منهم تدريجياً هي انتهاج سياسة التقرب من العرب واعادة بعض النفوذ اليهم لكي يساندوه في التخلص من الأتراك . وعلى هذا الأساس نقل عاصمته من سامراء الى دمشق سنة ٢٤٣ هـ (٨٥٧ م) ، ولكن ذلك لم يحقق الهدف الذي كان يتوخاه ، فاضطر الى ترك دمشق والعودة الى سامراء بعد أن علم بالخطة التي

بعدها الأتراك لاغتياله . وللتمويه أشيع ان مناخ دمشق لا يوافق صحة الخليفة فرجع الى العراق حيث أسس مدينة الماحوزة [1] بجوار سامراء أطلق عليها اسم المتوكلية ، واتخذها مقراً له .

مقتل الخليفة المتوكل :

لقد تآمر الأتراك على التخلص من المتوكل قبل ان يحقق مآربه ويقضي على نفوذهم . وبالاشتراك مع ابنه المنتصر ورسموا الخطة لقتله . وكان المنتصر الابن الأكبر للمتوكل يحنق على أخيه المعتز الذي ينافسه على ولاية العهد . وعلى أبيه الخليفة لأنه كان يحب المعتز أكثر منه . مع العلم ان المعتز من أم رومية اسمها (كابيه) .

وحسب الخطة التي رسمها القائد التركي بغا الكبير بالاتفاق مع المنتصر . فقد دخل على المتوكل في مخيمه القريب من مدينة الحوزة في ليلة الثالث من شهر شوال سنة ٢٤٧ هـ (٨٦١م) شرذمة من جنود الأتراك وقتلوه مع وزيره الفتح ابن خاقان . وكان له من العمر أربعون سنة ، ومدة خلافته أربع عشرة سنة وعشرة أشهر .

بداية الضعف في الدولة العباسية

بعد مقتل الخليفة المتوكل قام القائد بغا ورجاله الأتراك بتنصيب ابنه المنتصر ، وأخذوا له البيعة من أخيه المعتز بالضغط والتهديد ، ثم بايعه الأعيان وعامة الناس . وبعد عدة أيام نقلوا الخليفة مع حاشيته من المتوكلية الى سامراء حيث توجد ثكنات الجيش التركي والقصر الفخم الذي بناه المعتصم .

---

(١) في سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) بدء ببناء مدينة الماحوزة ، وفي نفس السنة وقعت زلازل رهيبة في الشرق دمرت مدينة اللاذقية وجبله وانطاكية ، وأصيبت عدة مدن أخرى بأضرار جسيمة .

وهكذا أصبح الأتراك أصحاب الكلمة الأولى في تنصيب وعزل الخلفاء . وكل من لا يخضع لمشيئتهم ويسير حسب أهوائهم يكون مصيره العزل أو كمصير المتوكل الذي كان مقتله ايذاناً بزوال هيبة الخلفاء العباسيين . والمنتصر نفسه لم تدم خلافته سوى ستة أشهر ، فمرض ومات مسموماً . ويقول بعض المؤرخين ان الأتراك هم الذين أمروا طبيبه أن يفصده بريشة مسمومة للتخلص منه لأنه أبدى رغبة في التحرر من سيطرتهم ، فقضوا عليه وهو في ريعان شبابه لا يتجاوز عمره خمس وعشرين سنة .

لقد انتهى الدور الأول للعصر العباسي الذي تميز بقوة الدولة وفرض هيبتها واحترامها ، ونشر العلم والمعرفة ، وازدهار الحضارة . . انتهى ذلك الدور الذي ستمر أكثر من قرن ، وبدأت مرحلة تسلط الأتراك على الخلفاء الذين تعاقبوا على سدة الحكم ، فزالت هيبة الخلافة ، ودب الضعف والانحطاط في الدولة العباسية .

والجدير بالذكر ان سامراء ظلت حاضرة الخلافة حتى نقلها الى بغداد المعتضد بالله ، الرجل القدير الذي دامت خلافته عشر سنوات : ٢٧٩ – ٢٨٩ هـ(٨٩٢–٩٠٢ م) . وقبله تولى الخلافة خلال الفترة التي استمرت (٣٢ سنة) أربعة من الخلفاء في سامراء هم : المستعين بالله ، تولى في سنة ٢٤٨ هـ وخلع وقتل سنة٢٥٢هـ. والمعتز بالله تولى في سنة ٢٥٢ هـ وخلع ومات سجيناً سنة ٢٥٥ هـ . والمهتدي تولي في سنة ٢٥٥ هـ وقتل في سنة ٢٥٦ هـ ، والرابع المعتمد على الله ، تميز بضعف الارادة والانهماك بالملذات ، أبقوه الأتراك حتى توفي بعد خلافة اسمية دامت ٢٢ سنة وعدة شهور .

الحركات الانفصالية :

لقد أدى ضعف سلطان الخلفاء العباسيين الى تفكك الدولة الاسلامية الكبرى ، وانتشار الحركات الانفصالية في أرجائها . وتعود أسباب الضعف والتفكك الى ظهور

الاتجاهات السياسية عند الجماعات الاسلامية وانقساماتها في الرأي [1] وانتشار البدع والآراء الفلسفية المتضاربة ، وتنمية الشعوبية وتغذية الروح الانفصالية ، وبروز العنصر التركي وامتداد نفوذه وتسلطه على الخلفاء منذ بداية عهد الواثق بن المعتصم .

تلك العوامل جميعها أدت الى اضعاف الخلافة العباسية . وقيام حركات استقلالية في الأندلس والشمال الافريقي وبلاد الشام وفارس لخ . سنأتي على ذكرها بالتفصيل .

---

(١) السنة يمثلون أغلبية المسلمين ، التزموا بأحكام القرآن وسنة الرسول . الشيعة رأوا أن الخلافة حق لعلي بن أبي طالب ثم لأولاده من بعده بالوراثة ، وانقسموا إلى فرق منهم الزيدية والاسماعيلية والامامية الاثنا عشرية . الخوارج يرون أن الخلافة حق لكل مسلم حر ، وليست مقتصرة على العرب . المرجئة يرجئون الحكم على الذي يرتكب اثما إلى يوم الدين ، ويفوضون أمره إلى الله . المعتزلة مؤسسها واصل بن عطا ، تقول يجب تحكيم العقل في حسم الخلافات .

الفصل السادس

الدولة الأموية في الأندلس

مؤسسها عبد الرحمن الداخل :

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان لقب بصقر قريش ، وعرف باسم عبد الرحمن الداخل لأنه أول من دخل الأندلس من أمراء الأمويين . وقصة نجاته وفراره الى الأندلس خلاصتها :

عندما استولى العباسيون على الحكم جدوا في البحث عن بني أمية . واستطاع عبد الرحمن الفرار مع أخيه الذي يصغره بسبع سنوات والالتجاء عند جماعة من البدو بالقرب من نهر الفرات في العراق حيث اختبأ لديهم ريثما تهدأ حركة البحث عن الأمويين الهاربين من اضطهاد العباسيين . وبينما كان خارج خيمة مضيفة شاهد ثلة من جنود العباسيين تتجه نحو المخيم ، فخشي ان بقي عند البدو أن لا يسلم من الهلاك ، فأمر أخاه أن يتبعه حتى وصلا الى نهر الفرات ، فشاهدهما الجنود وجدوا في مطاردتهما ، وما كادا يتجاوزا مسافة قصيرة عبر النهر حتى صاح بهما الجنود بأن يرجعا ولهما الأمان ، فرجع الأخ الصغير وقتلوه . أما عبد الرحمن فواصل سيره متنكراً حتى وصل الى فلسطين ، ومنها الى مصر ، ثم الى المغرب حيث لجأ الى قبيلة أخواله في سبتة سنة ١٣٧ هـ بعد خمس سنوات من التجوال والتخفي

والمتاعب مع مولاه الأمين المسمى (بدر) الذي كان لحق بسيده قبل ان يتجاوز فلسطين .

توطيد دعائم الدولة وسحق القوات المعادية :

فكر عبد الرحمن في احياء الدولة الأموية بالأندلس . فأرسل مولاه بدر ليتصل بأنصار الأمويين . فوجد لدى جند الشام واليمنيين الاستعداد لنصرة سيده الأمير الأموي . وفي ربيع الثاني سنة ١٣٨ ه (٧٥٥ م) عبر عبد الرحمن المضيق ونزل في مكان اسمه المنكب أو المنقار على بعد ٦٣ كيلومترا من ملقا . وسرعان ما انضمت اليه عدة كتائب عسكرية زحف بها الى اشبيلية . فاستولى عليها وبايعه أهلها .

وكان يحكم الأندلس آنذاك يوسف بن عبد الرحمن الفهري . فحشد جيشاً لقتال عبد الرحمن الداخل . وفي موقع اسمه المصادرة بالقرب من قرطبة انهزم جيش الفهري سنة ١٣٩ ه (٧٥٦ م) . ودخل الأمير عبد الرحمن قرطبة دخول الفاتحين . ثم قام بتوطيد دعائم دولته الفتية بالأندلس مستقلة عن الخلافة العباسية .

وحاول الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور استرداد الأندلس . فعين في سنة ١٤٦ ه (٧٦٣ م) العلاء بن مغيث والياً عليها وأمده بالمال والرجال . وقد انضم اليه أنصار الوالي السابق يوسف الفهري [١] وغيرهم من العرب الحاقدين على الأمير عبد الرحمن الذي تمكن بجرأة وبسالة من سحق قوات العلاء وقتله أمام أبواب اشبيليه . ولما علم الخليفة العباسي بهزيمة جيشه وقتل عامله قال : الحمد لله الذي جعل بيني وبين عبد الرحمن هذه البحار الواسعة .

وحاول شارلمان ملك الفرنجة بالاتفاق مع حكام المدن الاسبانية الشمالية القضاء على امارة عبد الرحمن الأموي ولكنه فشل واضطر للانسحاب بعد أن عجزت

---

(١) بعد هزيمة يوسف الفهري قرب قرطبة وعقد الصلح سنة ٧٥٦ ميلادية . عاد وجهز جيشا لاستعادة الاندلس فهزمه جيش عبد الرحمن وقتل .
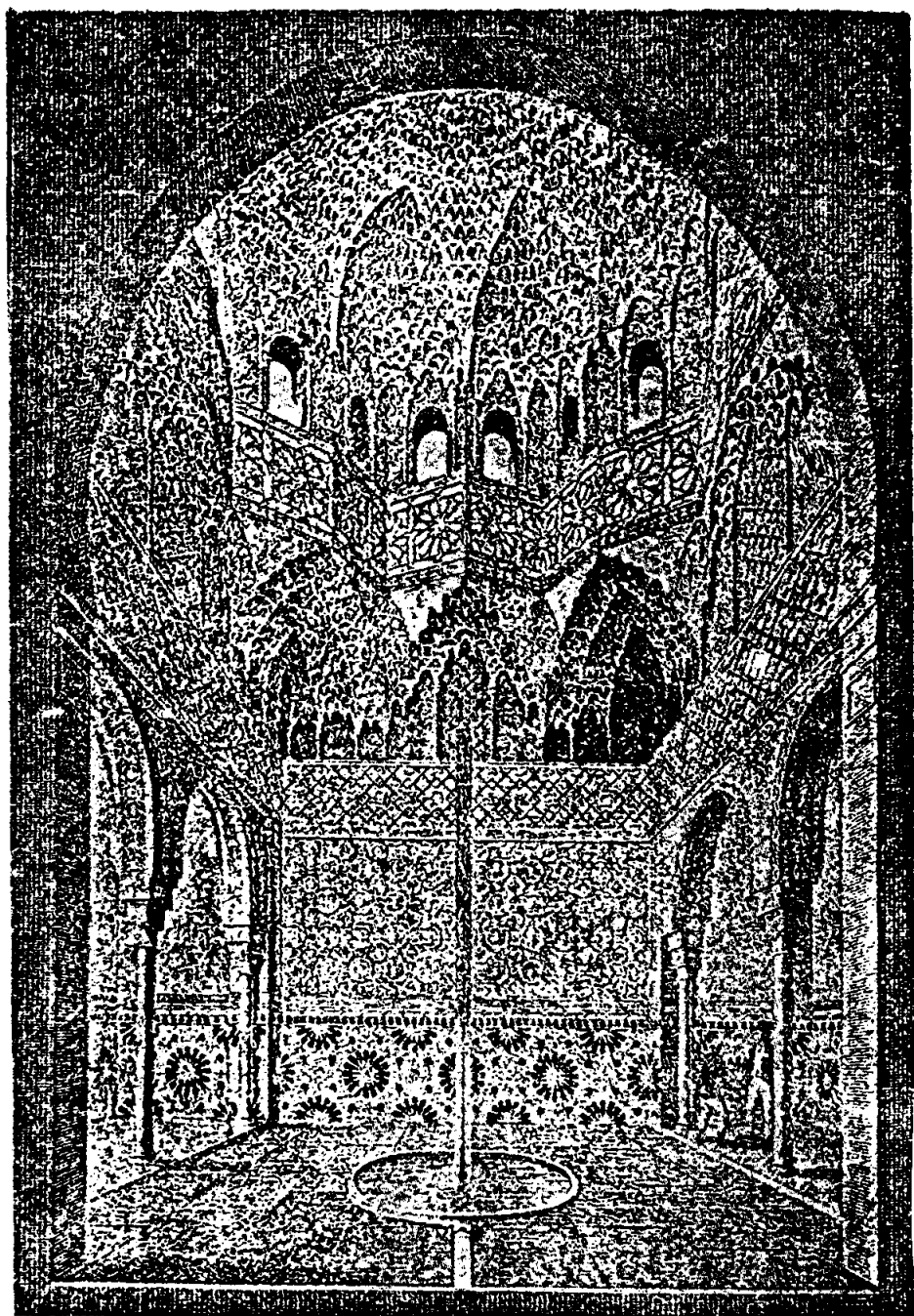
جامع قرطبة

قواته من الاستيلاء على مدينة سرقسطة عام ٧٧٨ ميلاديـــة .

وأنشأ صقر قريش جيشاً منظماً قوامه أكثر من أربعين ألف مقاتل معظمهم من البربر المسلمين . وأبطل اسم الخليفة العباسي على المنابر في المساجد والدعاء له. وبالوقت ذاته لم يتخذ لنفسه لقب خليفة بل اكتفى بلقب أمير .

ازدهار قرطبة :

اهتم عبد الرحمن بتطوير امارته وعمرانها . فشجع العلوم والفنون والزراعـــة والصناعة . وأصبحت قرطبة عاصمة الأندلس المطلة على نهر الوادي الكبير منارة للعلوم والحضارة الزاهرة التي تجلت في ازدهار المدينة ومساجدها ومعاهدها وجامعتها وقصورها وحدائقها الغنـــاء .

وقبل وفاة عبد الرحمن بعامين بدأ ببناء مسجد قرطبة العظيم الذي أنجز في عهد ابنه هشام . وكان آية رائعة في هندسته وأعمدته ونقوشه وبهوه الخارجي الفخم . وقد فاخرت قرطبة عواصم العالم طيلة عدة قرون بجامعها الذي يمثل الأثر الرائع للحضارة الاسلامية التي لعبت دوراً رئيسياً في تقدم وتطور الأمم والشعوب .

وتوفي الأمير عبد الرحمن الداخل عام ١٧٢ هـ (٧٨٨ م) عن عمر يناهز ٥٨ سنة ودفن بجامع قرطبة . وكانت مدة حكمه ٣٣ سنة .

هشام بن عبد الرحمن الأمير التقي العادل :

بعد وفاة عبد الرحمن تولى ابنه هشام الامارة سنة ١٧٢ هـ . وكان هشام تقياً ، متواضعاً ، يهتم بشؤون رعيته وتميز عهده باشاعة العدل ، والذود عن الدين ، وتنشيط حركة التجارة والصناعة والعمران .

وأتم الأمير هشام بناء مسجد قرطبة ، وجدد بناء قنطرة الوادي الكبير .وامتلأت الأندلس في عهده بالمساجد والقصور والمنازل والحدائق ، وتعددت ضواحي قرطبة حتى بلغت سبعاً وعشرين ضاحية . وقد روي ان المسافر يستطيع أن يسير ليلا في طرقها المرصوفة مسافة عشرة أميال على ضوء المصابيح .

وكان هشام يكرم رجال العلم والفقهاء والأدباء ، ويغدق عليهم العطايا ، ويزور الفقراء في بيوتهم ويحمل اليهم الألبسة والطعام . فأحبه الشعب على اختلاف طبقاته .

وتوفي عن عمر لا يتجاوز ٣٨ سنة في عام ١٨٠ ﻫ (٧٩٦ م) بعد حكم دام سبع سنين وعدة شهور .

الوضع في عهد الحكم بن هشام :

سلك الحكم بن هشام الذي تولى الامارة سنة ١٨٠ ﻫ سياسة تختلف عن سياسة أبيه الورع الصالح . فقد أبعد العلماء عن التدخل في شؤون الدولة ، وحصر عملهم في اقامة الشعائر الدينية . كما نظم جيشاً من المرتزقة الزنوج الافريقيين ، فعاثوا في المدينة فساداً ، وضاق بهم الشعب ذرعاً . فانتفض العلماء ضد الأمير الحكم ، وقامت حركات تمرد في الأندلس ، ثم تلتها ثورة بتحريض عمه عبدالله بن عبد الرحمن وأخيه سليمان ، ولكنها قمعت وأعيد الأمن والنظام . وبعد حكم دام ٢٦ سنة توفي الحكم بن هشام في قرطبة عام ٢٠٦ ﻫ (٨٢٢ م) .

التقدم في عهد عبد الرحمن الثاني :

اهتم عبد الرحمن الثاني بن الحكم بنشر العلم والمعارف في الأندلس ، وبناء المساجد والمعاهد والمستشفيات ، كما أنفق أموالاً ضخمة على تحسين وتجميل قرطبة ، حتى أصبحت تنافس بغداد في قصورها وعمرانها والنهضة العامية .

وكان الأمير عبد الرحمن الثاني مولعاً بالشعر ، متضلعاً بعلوم الشريعة والفلسفة وعلى غرار الخليفة المأمون كان يغدق العطاء على أهل العلم ، ويعقد في قصره الندوات للدراسات والمناقشات الفلسفية وشكل لجنة خاصة لترجمة المصنفات وكتب فلاسفة وعلماء اليونان .

وفي عهده الذي دام منذ عام ٢٠٦ ــ ٢٣٨ ﻫ ازدهرت الأندلس وسادها الأمن والاستقرار . . وكثير من الاسبان اعتنقوا الاسلام ، ونبغ منهم أدباء ساهموا في نشر اللغة العربية .

العصر الذهبي في الاندلس

(عهد عبد الرحمن الثالث)

بعد وفاة عبد الرحمن الثاني دب الضعف والانقسام والانحطاط في الدولة الأموية بالأندلس . وقد استمرت هذه الفترة نحو اثنتين وستين سنة تعاقب خلالها على سدة الحكم أمراء ضعاف لم يكونوا على مستوى المسؤولية . وظل الوضع على هذا المنوال حتّى تولي الحكم عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر سنة ٣٠٠ ه (٩١٢ م) .

وكان عبد الرحمن الثالث رجلاً شجاعاً ، ذكياً ، قديراً. تمكن من اعادة الهيبة للدولة ووحد البلاد بعد أن أخمد الفتن وقضى على الانقسامات والفوضى . . وفي سنة ٣١٧ ه أصدر أمراً بأن تكون الخطبة يوم الجمعة في المساجد باسمه خليفة وأميراً للمؤمنين . والذي شجعه على اتخاذ هذا القرار هو تقلص نفوذ الخلافة العباسية وأضحي الأمر بيد الأتراك ، وبالتالي ظهور الخلافة الفاطمية في مصر . وبذلك تحولت الامارة في الأندلس الى خلافة ، وبايع أهل البلاد عبد الرحمن على انه أمير المؤمنين الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله .

ويعتبر عهد الخليفة عبد الرحمن العصر الذهبي للأندلس . فقد عمها الرخاء والازدهار بفضل ماحققه الخليفة من مشاريع عمرانية وزراعية وصناعية . هذا بالاضافة الى المساجد والمدارس والمستشفيات التي أنشأها في جميع أنحاء البلاد .

وفي الشمال الغربي من قرطبة على هضبة من هضاب جبل الشارات المطل على نهر الوادي الكبير أنشأ (قصر الزهراء) الفخم الذي استمر العمل فيه نحواً من عشرين سنة حتّى أنجز . وجلب له الرخام من قرطاجنة والأعمدة المزدانة بالتماثيل المذهبة من القسطنطينية . وبالاضافة الى المسجد العظيم والقاعات الكبرى كان قصر الزهراء يضم أربعمائة غرفة ومقصورة .

وازدهرت قرطبة وصارت بروعة عمرانها ، وفخامة شوارعها المرصوفة المضاءة

بالقناديل ، وحدائقها الغناء لا يضاهيها سوى بغداد والقسطنطينية . وغـدت بجامعتها ومعاهدها منارة للعلوم يؤمها الطلاب من جميع أنحاء أوروبا التي كانـت في ذلك العصر تعيش في ظلام القرون الوسطى .

وقد ازدادت ثروة البلاد ، وتضاعفت موارد الدولة فبلغ دخل خزانتها السنوي في المرحلة الثانية من عهد عبد الرحمن الناصر سبعة ملايين دينار كان ينفق منها ٣٥ بالمئة على المشاريع العمرانية والمدارس والمستشفيات ، و ٣٠ بالمئة على الجيش الذي بلغ تعداده مائة ألف من العرب والبربر والصقالبة ، و ١٥ بالمئة عـلى ، الدواوين ، والباقي يدخر .

وخلاصة القول فـان مجد العـرب في الأندلس بـلغ ذروتـه في عهـد الخليفة عبد الرحمن الناصر الذي دام حكمه خمسين سنـة ، مـن عـام ٣٠٠ ـ ٣٥٠ هـ (٩١٢ ـ ٩٦١ م) .

خلافة الحكم بن عبد الرحمن الناصر :

تولى الخلافة بعد وفاة والده سنة ٣٥٠ هـ ، وكان عالماً فاضلاً ، اهتم بنشـر العلوم والثقافة العامة . وأنشأ مكتبة أنفق عليها أموالاً كثيرة لشراء الكتـب القيمة التي بلغ عددها نحو ٤٠٠ ألف كتاب .

وفي بداية عهد الخليفة الحكم هاجم النورمان السواحل فردوا على أعقابهم ، وتحرك أمراء النصارى في الشمال ضده فحاربهم وتغلب عليهم ، واحتلت قواتـه بعض المناطق من بلادهم ، فأسرعوا الى طلب الصلح بالشروط التي يـريـدها ، فاستجاب لطلبهم .

وقد ازدهرت جامعة قرطبة في عهد الحكم بن عبد الرحمن ، ووسع نطـاق المسجد الكبير وزين سقفه وجدرانه بالفسيفساء . وابتنى الخليفة على نفقته ٢٧مدرسة جديدة ، وأنشأ مجلساً للعلماء خصص لكل عضو فيه راتباً شهرياً .

وقد توفي الخليفة الحكم بن عبد الرحمن الناصر سنة ٣٦٦ هـ بقرطبة بعد حكم دام ١٦ سنة قضاها في عمران البلاد ونشر العلوم وتقوية دعائم الدولة .

تضعضع الدولة الأموية في الأندلس :

بعد وفاة الحكم تولى الخلافة أمراء ضعاف تركوا أمور الدولة في أيدي حجابهم ووزرائهم . فاستبد هؤلاء بالحكم وصاروا يمنعون الناس من الاتصال بالخليفة وكان أشهر هؤلاء الحجاب محمد بن عبد الله ابن أبي عامر الملقب بالمنصور . وأدى تسلط الحجاب على ديوان الخليفة نفسه الى اضعاف هيبة الخلافة . واثارة التذمر والبلبلة .

وحاول بنو حمود (سلالة تتصل بصلة النسب بأدارسة المغرب) اغتصاب الخلافة من الأمويين ، فدخل القائد ابن حمود على الخليفة في قصره وقتله ونصب نفسه بدلاً منه ، وبايعته فئة من أهالي قرطبة ، ثم مالبث أن وقع الشقاق بين بني حمود وفقدوا مركزهم وسلطتهم ، وعاد الأمويون الى الحكم من جديد .

الانقسام ونهاية الخلافة :

أدى انقسام الأمويين وتشتت كلمتهم الى انقضاض أعدائهم عليهم وضياع الخلافة التي أنهى سلطتها المجلس الذي عقد في قرطبة سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٥ م) وتسلم الحكم في الأندلس . وبسقوط الخلافة قامت مجموعة دويلات صغيرة في المدن والمقاطعات يعرف حكامها بملوك الطوائف . ومن أشهرهم :

١ ـ بنو عباد : مؤسس دولتهم في اشبيلية أبو القاسم محمد بن عباد السوري الأصل سنة ٤٢٣ هـ (١٠٣١ م) .

٢ ـ ذو النون : أسرة من البربر من قبيلة الهوارة ، دخلت قديماً اسبانيا في عهد الدولة الأموية ، برز منها يحيي المأمون ذو النون وأسس دولة في طليطلة سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) .

٣ ـ بنو زير ، أسرة من البربر ، ظهر منها في الأندلس باديس ابن حبوس (الصنهاجي) وأسس دولة في غرناطة سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ م) .

وبتقسيم الأندلس الى دويلات صغيرة تناحر بعضها بعضاً شجع ذلك الامارات المسيحية في الشمال للانقضاض عليها .

موقعة الزلاقة بالاندلس :

عندما اشتد الخطر على الاندلس وعجز ملوك الطوائف عن صد هجوم الممالك المسيحية التي توحدت في شمال اسبانيا استنجد المعتمد بن عباد ملك اشبيلية بالمرابطين حكام المغرب فعبرت قواتهم الاندلس وهزمت جيوش الممالك المسيحية هزيمة نكراء في موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) . وكان لمساعدة المرابطين وانتصارهم الساحق الفضل في أنقاذ الاندلس وابقاء الوجود الاسلامي فيها. هذا ما أكده كثير من المؤرخين العرب والاوروبيين .

ولما زال الخطر عاد أمراء العرب والمسلمين الى التناحر والتنازع على السلطة ، وانتقلت العدوى الى حكام المغرب فدب الشقاق بينهم وضعف سلطانهم . فاغتنم الفرصة السانحة حكام الامارات المسيحية في شمال اسبانيا وجهزوا الجيوش لغزو دويلات الجنوب ، فسقطت جميعها باستثناء غرناطة التي ظلت صامدة كالطود .. وكان سقوط قرطبة سنة ٦٣٤ هـ (١٢٣٦ م) ، واشبيلية سنة ١٢٤٨ م .

دولة غرناطة الاسلامية :

لم يقف في وجه جيوش الشمال المعادية ويصدها بعزم وايمان سوى بني نصر (بني الأحمر) الذين صمدوا في غرناطة وأسسوا فيها دولة مستقلة سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) ، كان أول ملوكها محمد بن الأحمر الذي تميز عهده بتقوية دولته وتنمية ثروتها .

وقد ازدهرت امارة غرناطة في عهد ملوك بني الأحمر ، وعمها الرخاء

والاستقرار . ومن أشهر آثارهم الباقية حتى يومنا هذا قصر الحمراء الفخم الذي بناه محمد بن الأحمر وأنجزه ابنه الغالب بالله . أما جامع القصر فقد بناه محمد حفيده ، وكان آية في روعة هندسته ونقوشه .

وقصر الحمراء [1] يقع على هضبة عالية طولها ٨٠٠ متر ، أحيط بسور أنشأ داخله الملك محمد عدة أبراج أهمها برج الحراسة . وجاب له الماء في قناة من نهر حدره . وهذا الصرح العظيم تجلت فخامته بروعة بنيانه . وأبراجه العالية ، وأعمدته الرشيقة ، وزخارف سقوفه وجدران قاعاته . ويتألف من قسمين متكاملين هما قصر قمارش الذي بناه الملك أبو الوليد اسماعيل ووسعه ابنه أبو الحجاج يوسف سنة ١٣٤٨ ميلادية ، وقصر السباع الذي بناه الملك محمد الغني بالله في المرحلة الأولى من عهده الذي دام سبعاً وثلاثين سنة : (١٣٥٤ — ١٣٩١ م) . ويعتبر قصر السباع من أجمل أقسام الحمراء ، أهم قاعاته هي قاعة الملوك ، ويليها قاعة بني سراج الذين قضى عليهم بنو الأحمر . وتبرز من حول أجنحته الأروقة المحمولة على أعمدة من الرخام عددها ١٢٤ عموداً . وفي وسط الفناء نافورة حوضها من الرخام يحمله أثنا عشر أسدا على شكل دائرة .

وقد ظلت دولة غرناطة الاسلامية قائمة مدة قرنين ونصف القرن . وفي عهد الملك محمد الغني بالله الذي حكم أطول مدة من جميع ملوك بني الأحمر انتدب ابن خلدون المؤرخ والفيلسوف سفيراً لدى بلاط ملك قشتالة (منطقة في اسبانيا الوسطى) .

خروج العرب من الأندلس :

ان العوامل التي أدت الى خروج العرب من الأندلس هي بالدرجة الأولى انقسامهم على بعضهم وتنازعهم على السلطة ، فشجع ذلك أعداءهم

---

(١) قيل انها سميت بالحمراء نسبة إلى القلعة الحمراء التي على اطلالها بنيت ، أو إلى احمرار أبراجها ، أو إلى الآجر الأحمر الذي استخدم في بناء أسوارها .
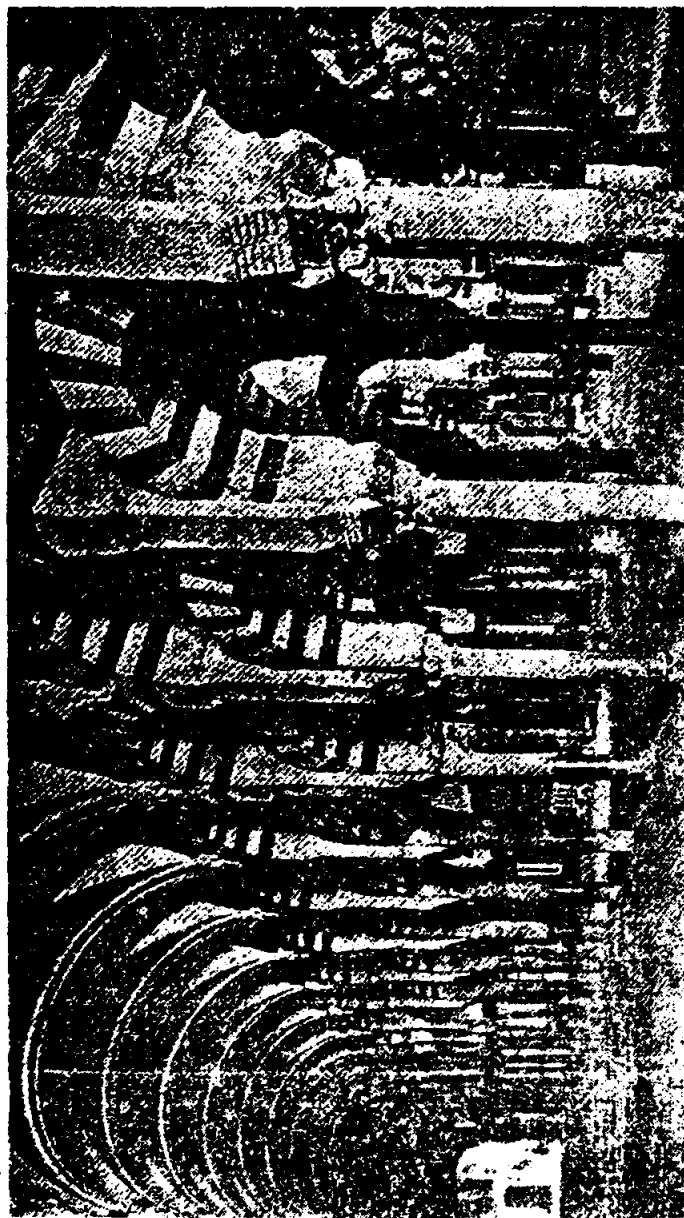
قاعة قصر الحمراء ــ غرناطة

على الانقضاض عليهم والقضاء على سلطتهم بعد حكم دام حتى زوال ملوك الطوائف باستثناء بني الأحمر في غرناطة : (٥٤٢ سنة) .

أما امارة غرناطة فقد سقطت بعد أن تم توحيد مملكة الأرغون (ارجونة) ومملكة قشتالة في دولة واحدة أنهت حكم بني الأحمر سنة ٨٨٧ ه (١٤٩٢ م) . وكان آخر ملوكهم أبو عبد الله بن محمد الذي لم يتمكن من فك الحصار الذي فرضته عليه القوات الإسبانية ، فاضطر الى الاستسلام .

وهكذا خرج العرب [1] من الأندلس وانتهى حكم المسلمين فيها بعد أن حولوها الى بلاد عامرة مزدهرة ونشروا فيها العلوم والمعارف والفنون ، ولا تزال آثارهم حتى الآن قائمة تمثل حضارتهم العظيمة .

دولة الاداوسة

أتينا على ذكر الحركة الانفصالية التي قام بها أبناء عبدالله بن الحسين (من آل البيت) في بلاد الديلم والمغرب وذلك في عهد الخليفة هارون الرشيد الذى تمكن من اخماد حركة يحيى بن عبدالله بن الحسين في الديلم (راجع صفحة ١٢٢) أما شقيقه ادريس فقد نجحت حركته في المغرب واستطاع بعد أن ضم حوله البربر أن يكون له أمارة مستقلة (راجع صفحة١٤٢) وبعد مقتل ادريس مسموما سنة ٧٩٢م ترك زوجته حاملا فولدت ذكرا التف حوله البربر وبايعوه باسم ادريس الثاني . وتميز عهد ادريس بتوطيد دعائم دولة الادارسة التي اتخذت مدينة فاس – مؤسسها إدريس – عاصمة لها . وقد حاول ابراهيم بن الاغلب الذى عهد اليه الخليفة هارون الرشيد بولاية تونس القضاء على دولة الادارسة في عهد ادريس الثاني ولكنه عجز .. وأخيرا انتهى الامر بوقف الحملات والنزاع بين الطرفين .

---

(١) في نفس السنة التي خرج فيها العرب من الأندلس اكتشف كولومبس أميركا (سنة ١٤٩٢ ميلادية) .

وبعد وفاة أدريس سنة ٢١٢ هـ (٨٢٨ م) استمر حكم الادارسة في المغرب حتى سنة ٣٧٥ هـ ، وكان أعظمهم قوة وحزما وادراكا هو يحيى الرابع بن أدريس ابن عمر الذى حكم ثمانية عشرة سنة (٢٩٢ــ ٣١٠) هـ، وفي عهده ازدهر المغرب وساد العدل والامن .

وقد بلغت مدينة فاس عاصمة الادارسة ذروة مجدها في الرقي والعمران وأصبحت مركزا هاما للثقافة الاسلامية في المغرب . وفي عهد الادارسة رسخ الاسلام في اوساط البربر ، وقاموا بنشره في غرب أفريقيا .

وقد شيد في أواسط القرن الثالث الهجرى جامع القرويين الذى اصبح في القرن السادس جامعة ما تزال قائمة حتى اليوم. وكان دورها عظيماً في نشر الثقافة الاسلامية بالمغرب والحفاظ على التراث العربي الاسلامي .

المرابطـون

المرابطون هم من الصنهاجة القبيلة البربرية . حكموا المغرب من عام ٤٦٢ الى ٥٤١ هـ . وقد بدأت حركتهم على أساس ديني في الصحراء الكبرى حيث استعان زعيمهم يحيى بن ابراهيم الكدالي بالشيخ الفقية عبدالله بن ياسين الجزولي لتعليم ابناء القبيلة أصول الدين. ومن الرابطة التي جمعتهم وقوامها الاخوة الاسلامية نشأت قوة دينية عسكرية سيطرت على المغرب بزعامة يوسف بن تاشفين الذى انتزع من الاسر البربرية التي خلفت الادارسة حكم البلاد . وأسس زعيم المرابطين مدينة مراكش عام ٤٥٤ هـ واتخذها عاصمة لدولته التي امتد نفوذها الى افريقيا الغربية وبلغت حدودها نهر النيجر .

وعبرت قوات يوسف بن تاشفين الاندلس لنجدة المسلمين عام ٤٧٩هـ (١٠٨٦ م وانتصرت انتصارا ساحقا على جيوش الممالك المسيحية ، وبذلك أنقذ الاندلس وظل الوجود الاسلامي راسخا في ربوعه . وفي عام ١٠٩٣ م اخضع ملوك الطوائف وسيطر على الاندلس .

وكان يوسف بن تاشفين حاكما حازما ومجاهدا مؤمنا ، ساد المغرب في عهده الامن والاستقرار . وقد ارتبط بالخلافة العباسية وأعلن الولاء للخليفة ، وبعد وفاته عام ٥٠٠ هـ تولى الحكم ابنه علي ، فسار سيرة حسنة وازدهرت في عصره بلاد المغرب ونمت الحركة الثقافية الاسلامية . وعندما توفي عام ٥٣٧ هـ كانت الحرب على أشدها بين المرابطين والموحدين . واستمرت مستعرة حتى اواخر عام ١١٤٦ م تاريخ زوال حكم المرابطين الذين قاموا بجهود عظيمة في تقوية الرابطة الاسلامية ونشر الاسلام بأفريقيا الغربية .

الموحــــدون

ظهرت حركة المهدى بن تومرت قوية في المغرب حيث قام بالدعوة الى التوحيد ومكافحة الفساد والضلال . وقد انتشرت دعوته في اوساط قبائل البربر انتشارا سريعا ، وأصبح مركزه قويا جعل دولة المرابطين تخشاه ، فسيرت قواتها لمحاربته والقضاء عليه ، ولكنها فشلت . وظلت المعارك مستمرة بين المهدى بن تومرت والمرابطين من عام ١١٢١ م حتى توفي عام ٥٢٤ هـ (١١٢٩ م) من عمر يناهز ٣٧ سنة .

وخلف المهدى عبد المؤمن بن علي الكومي الذى استمر يحارب المرابطين حتى أسقط دولتهم وقضى عليها . وبذلك حقق ما بدأه المهدى بن تومرت وقامت دولة الموحدين التي دام حكمها في المغرب قرنا وربع القرن .

وبعد أن دانت له بلاد المغرب أرسل جيشا الى الاندلس للدفاع عنها ، ثم عزم عبدالمؤمن بن علي الكومي على ضم جميع أجزاء الشمال الافريقي لملكه . فجهز جيشا قويا قاده بنفسه عام ٥٥٤ هـ (١١٥٨ م) واستولى على بلاد تونس وبرقة . ثم عاد الى المغرب حيث توفي سنة ٥٥٨ هـ بعد أن وحد أقطار المغرب العربي ووطد دعائم دولة الموحدين . وخلفه ابنه يوسف فسار على منوال والده . وقد اهتم بأمر الاندلس ، فدخلها واستولى على الجزء الشرقي منها ، وفي عام ٥٨٠ هـ

أصيب في معركة شنترين غربي قرطبه وتوفي على أثرها . وتولى من بعده ابنه يعقوب المنصور الذي ازدهرت في عهده بلاد المغرب . ومن أهم المعارك التي خاضها ضد الممالك المسيحية هي معركة (الارك) التي هزمت فيها جيوش العدو هزيمة نكراء عام ١١٩٥ م . ودام حكم المنصور حتى توفي عام ٥٩٥ هـ ، فخلفه ابنه محمد الناصر .

وقد امتاز عصر الموحدين بتوحيد اقطار المغرب العربي ، واعلاء راية الاسـلام والدفاع عن تراثه بالأندلس . كما اهتموا بنشر العلوم وحركة البناء والعمران .

الفصل السابع

الدولة الطولونية في مصر

في سنة ٢٥٤ هـ عين الخليفة العباسي أميراً تركياً والياً على مصر يدعى بايكباك (بقبق) الا ان هذا الوالي بقي في حاضرة الخلافة وعين نائباً عنه ليقوم بولاية مصر أحمد بن طولون . وكان بايكباك قد تزوج من أم أحمد بعد أن مات زوجها طولون الذي كان مملوكاً تركياً أهدي إلى الخليفة المأمون بن هارون الرشيد من قبل حاكم بخارى . وكان طولون ذكياً ماهراً شجاعاً ، حاز على اعجاب المأمون فأغدق عليه العطايا وولاه المناصب وأخذ يرتقي حتى أصبح رئيساً لحرس الخليفة .

ونشأ أحمد بن طولون عند والده رئيس الحرس نشأة حسنة . ولما تولى على مصر من قبل بايكباك عمل على انعاشها وتنمية مواردها ، فأحبه شعبها ووضع فيه ثقته .

وخدم الحظ أحمد بن طولون بتعيين الخليفة لبرقوق مكان بايكباك الذي قتل . وكان برقوق صهراً لأحمد ، فثبته في منصبه بمصر ، ومنحه صلاحيات واسعة ، فساعده ذلك على تقوية مركزه والاستمرار بالاصلاحات التي بدأها .

وكان أحمد بن طولون كثيراً مايرسل بالهدايا والتحف الى الخليفة العباسي فأحبه وقدره . وحدث أن عامل الخراج المدعو أحمد بن المدبر حاول اقصاء ابن طولون عن مصر ، فدس له عند الخليفة ولفق له شتى الاتهامات غير أن الخليفة لم يستمع الى وشايته بل عمد الى نقله بناء على مشورة ابن طولون الى الشام . وبدوره حاول « الموفق » أخو الخليفة أن ينهي بن طولون فلم يفلح .

استقلال أحمد بن طولون بالحكم :

عندما قوي مركز أحمد بن طولون وحاز على ثقة الشعب المصري قام بتكوين جيش وأسطول عظيمين . أنفق عليهما أموالا ضخمة . وحينما أصبح بمركز القوة امتنع عن دفع الخراج للخليفة الموفق بدعوى ان مايدفعه للخراج سوف يقوم بانفاقه على الجيش فزاد هذا الاجراء من غيظ الخليفة وحقده على ابن طولون غير انه لم يكن في وضع يمكنه من محاربته واقصائه عن ولاية مصر . ابن طولون

ثم مالبث ان استقل أحمد بن طولون بمصر استقلالا داخلياً . ولم يكتف بذلك بل راح يعمل على توسيع ملكه . فجهز جيشاً قوياً ووجهه الى الشام حيث تمكن من الاستيلاء عليها ، ومنها زحف شمالاً حتى وصل الى تخوم الروم ، وعلى مقربة من طرسوس دارت معركة عنيفة أسفرت عن انتصار جيش بن طولون على قوات الروم .

أهم اصلاحاته وأعماله :

من أهم الانجازات التي تحققت في عهد أحمد بن طولون الذي دام حكمه نحو واحد وعشرين سنة ونيف هي : انشاء جامع سمي باسمه ، يشبه بمأذنته وتصميمه الهندسي جامع سامراء . وأسس في شمال مدينة الفسطاس حاضرة أطلق عليها اسم (القطائع) نسبة الى الأرض التي اقتطعها بن طولون الى كبار رجال الدولة وقواد الجيش وقام كل منهم ببناء عمارة في القطعة التي امتلكها. وأنشأ أيضاً مستشفى كبيراً لمعالجة الأهالي بالمجان ، وداراً لسك النقود الفضية والدينار الذهبي .

وفي عهده نعمت مصر بالأمن والاستقرار ، وتقدمت الزراعة وراجت التجارة.. وتوفي أحمد بن طولون سنة ٨٨٤ ميلادية عن عمر يناهز الخمسين سنة

ولاية خمارويه :

تولى خمارويه بن أحمد بن طولون على مصر بعد وفاة أبيه ، وكان شاباً عمره

٢٠ سنة يفتقر الى الخبرة وخاصة في شؤون الحرب . لأنه لم يمارسها إبان حكم أبيه . وفي بداية ولايته هزمته جيوش الخليفة مراراً لقلة خبرته ، وخرجت الشام عن حكمه ، الا انه مالبث أن برع في فنون الحرب وتمكن من استرداد المدن التي فقدها في المعارك وأيضاً الشام . وبذلك قوي مركزه ووطد دعائم حكمه .

وصالح خمارويه الخليفة العباسي وزوجه ابنته (قطر الندي) ، فكسب بذلك مودته . وقد أهدى ابنته أثمن الجواهر والحلي والتحف التي كان والده جمعها ، كما أنفق على عرسها أموالا كثيرة .

وكان خمارويه كريماً لدرجة التبذير والاسراف ، فبدد الأموال دون حساب وأفقر خزانة الدولة . ومن هواياته انشاء الحدائق واقتناء الحيوانات البرية التي كانت تجلب لها وتستأنس كالأسود والفهود وغيرها . وفي أواخر عهده أصيب بالأرق فأشار عليه بعض الأطباء بأن ينشيء بركة ويملأها بالزئبق ويضع سريره فيها وينام ، فنفذ مشورة الأطباء . وقبل وفاته أمر بولاية العهد لابنه أبو العساكر .

زوال حكم الأسرة الطولونية :

لم يكن أبو العساكر بن خمارويه على مستوى المسؤولية ، ففي عهده ساءت الأحوال ، وفسدت الأمور وعمت الفوضى في البلاد . وبتبذيره للثروة ، وانغماسه في الترف واللهو أفرغ الخزائن من الأموال وهوى بالدولة الى الحضيض ، ففقدت هيبتها وسيطرتها في الشام وغيرها من المناطق التي خرجت عن طاعتها .

وأخيراً عزل أبو العساكر وزال حكم الأسرة الطولونية بعد حكم دام في مصر من سنة ٢٥٤ ــ ٢٩٣ هـ (٨٦٨ ــ ٩٠٥ م) ، وعادت مصر الى حظيرة الخلافة العباسية .

دولة الاغالبة

أتينا على ذكر القائد العربي ابراهيم بن الاغلب الذى ارسله الخليفة هارون الرشيد سنة ١٨٤ هـ (٨٠٠ م) لتوطيد النظام والامن في الشمال الافريقي . وأطلق له الخليفة اليد في حرية التصرف وادارة البلاد . واصبحت المنطقة فيما بعد امارة مستقلة عرفت باسم دولة الاغالبة مرتبطة معنويا واسميا بالخلافة العباسية (راجع صفحة ١٢٤) كما أتينا على ذكر استيلاء الاغالبة على جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا . (راجع صفحة ١٧٣) .

وكان ابراهيم بن الاغلب قائدا شجاعا . انتهج سياسة الحزم والانصاف . وبذلك استطاع ان يوطد الامن والاستقرار في الولاية الافريقية (طرابلس وتونس) وقد دانت له بالطاعة والولاء قبائل البربر التي كانت ثائرة على حكم الخلافة العباسية التي املت عليها الظروف في هذا الاقليم البعيد عن بغداد ان يقيم ابن الاغلب امارة مستقلة يحكمها باسم الخلافة العباسية .

وفي بادىء الامر اتخذ ابراهيم مدينة القيروان مركزا له ، ثم انتقل الى مدينة القصر القديم التي بناها جنوب القيروان وسماها العباسية تعبيرا عن اخلاصه وولائه للعباسيين . ولصد هجمات الاساطيل الرومية وحماية الساحل الافريقي فقد أنشأ براهيم قوة بحرية لعبت دورا كبيرا في مقاومة الروم وضرب قواعدهم في سواحل أيطاليا الجنوبية وصقلية .

وبعد وفاة ابراهيم بن الاغلب سنة ٨١٢ م سار بنو الاغلب على منوال ابراهيم في توطيد الامن ، وتقوية الجيش والاسطول البحرى، وتنمية موارد الزراعة والتجارة .

فتح صقلية :

وفي عهد الامير زيادة الله بن ابراهيم الذى تولى الحكم سنة ٢٠١ حتى ٢٢٣ هـ أرسلت حملة لغزو صقلية بقيادة قاضي قيروان أسد بن الفرات نزلت في الجزيرة ووطدت اقدامها فيها سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) . واستمر الاغالبة في فتوحاتهم ،

فاستولوا على جنوب ايطاليا وواصلوا زحفهم حتى أبواب روما ، ثم فتحوا مدينة باري الواقعة على ساحل البحر الادرياتيكي عام ٨٤٢ م وفي سنة ٨٦٩ م استولوا على جزيرة مالطة .

وقام ابراهيم الثاني بحملة جهزها من صقلية عبرت مضيق سيناء سنة ٩٠٢ م واستولت على (كلابريا) في جنوب غربي ايطاليا . وكان ابراهيم الثاني قائدا كبيرا وحاكما حازما من خيرة أمراء الاغالبة . فاتخذ من صقلية مركزا للحملات التي كان يشنها على الروم في البحر المتوسط . وقد احتفظ المسلمون بجزيرة صقلية حتى سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩١ م) تاريخ استيلاء النورمان عليها .

وشاهدت هذه الجزيرة الكبيرة خلال الحكم الاسلامي تقدما عمرانيا وانتاجا ثقافيا اسلاميا رفعها الى الاوج واسهم في نهضة اوروبا التي غمرها العرب بثروتهم الثقافية والعلمية . وبقيت صقلية بعد أن احتلها الكونت روجر تانكريد دوهوتفيل (النورمندى) تحمل الطابع الاسلامي . وقد استعان روجر بالعلماء والاطباء المسلمين ، وشمل اللغة العربية بعناية خاصة وفي عهد ابنه روجر الثاني (١١٣٠ — ١١٥٤ م) نمت الحركة العلمية بفضل العلماء المسلمين وفي مقدمتهم أبوعبد الله محمد الادريسي العالم الجغرافي الذى قدم من الاندلس موطنه وأقام في مدينة بلر (بلرمو) عاصمة صقلية حيث وضع للملك روجر كرة من فضة وخريطة للعالم في شكل قرص . هذا بالاضافة الى كتابه القيم (كتاب روجر) أو نزهة المشتاق في اختراق الآفاق . وهو مؤلف نفيس يمتاز بدقة البحوث الجغرافية والتاريخية التي اعتمد الادريسي في وضعها على استقصاء الحقائق وتحليله للأوضاع وادراكه العميق لدقائق الأمور .

مميزات وأعمال الاغالبة :

ازدهرت الحياة الاقتصادية والعمرانية في افريقيا في ظل الأمن الذى ساد البلاد ونعمت به في عهد الاغالبة الذين اهتموا بتنشيط الزراعة والتجارة والصناعة وأقاموا المساجد والمدارس ، وبنوا الحصون على السواحل لصد الغزوات من البحر .

وأصبحت بلاد تونس عامرة مزدهرة ازدهارا عظيما ، ونمت مدينة القيروان وصارت اعظم مدن الشمال الافريقي عمرانا وأكثرها سكاناً . ومن أهم آثـار الاغالبة مسجد القيروان العظيم الذى أسسه عقبة بن نافع عام ٥٠ هـ ، وجامـع الزيتونة بتونس وهو جامعة علمية حفظت التراث الاسلامي خلال القرون الماضية وما تزال حتى آلان تؤدي مهمتها في ميدان التعليم .

وبالاضافة الى المساجد فقد انشأ الاغالبة المدارس في المدن والارياف ، كما أنشأوا مدينة العباسية على بعد خمس كيلو مترات جنوب القيروان ومدينة رقادة على بعد تسعة كيلومترات . وهذه الاخيرة ... ابراهيم الثاني الاغلبي واتخذها عاصمة له . وقد ظلت دولة الاغالبة قائمة حتى تغلبت عليها الدولة الفاطمية وقضت عليها في عام ٢٩٦ هـ (٩٠٩ م)

الدولة الاخشيدية

بعد زوال الدولة الطولونية ظلت مصر تحت ادارة الخلافة العباسية المباشرة ثلاثين سنة : (٩٠٥ ـ ٩٣٥ م) . وخلال هذه الفترة اجتاحتها الفوضى وأثرت على الوضع العام فيها حيث استمر حتى ولي عليها محمد بن طغج الأخشيد من قبل الخليفـة العباسي الراضي بالله سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م) .

وأصل أسرة محمد بن طغج من فرغانة في بلاد تركستان ، وكان والده ضابطاً كبيراً في جيش خمارويه الطولوني ويعرف باسم الاخشيد وقد امتاز الوالي محمد ابن طغج بالمقدرة وحسن الادارة ، فنظم البلاد وأصلح الأمور حتى عاد لمصر الأمن والاسـتقـرار .

وقام الأخشيد باصلاح الزراعة وتنظيم أقنية الري ، ثم وجه عنايته الى الشؤون العسكرية ، فأنشأ جيشاً قوياً تعداده ٤٠ ألفاً .

ضم بلاد الشام :

بعد أن اطمأن على الوضع في مصر ووطد حكمه فيها ، سير جيشه الى بـلاد الشام ليضمها اليه كما فعل أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية .

وكانت الشام تحت حكم رجل يدعى ابن رائق فاستعد لحرب ابن طغج الاخشيد وجمع جيوشه من جند الشام ، الا انه مني بالهزيمة وانتصر الاخشيد عليه، ثم عقد معه صلحاً واقتسم واياه بلاد الشام ، فأخذ بن طغج القسم الجنوبي ، وابن رائق القسم الشمالي . وظلت الشام مقسمة حتى وافت المنية ابن رائق، وبعد موته خشي ابن طغج ان هو أهملها أن يناصبه الذي يتولاها العداء، فما كان منه الا أن استولى على القسم الشمالي من الشام وضمه الى السقم الجنوبي دون اراقة دماء.

ضم الحجاز :

لم يكتف الأخشيد بما حققه من انتصارات ومكاسب بل اغتنم ضعف ولاة الحجاز ، ووجه جيشاً قوياً تمكن من الاستيلاء عليها . وبذلك أصبحت بيده ثلاث ولايات كبرى هي مصر والشام والحجاز .

وحاول سيف الدولة الحمداني أمير حلب انتزاع الشام من الأخشيد ، ولكن جيشه هزم في قنسرين ، وتتبعت قوات الأخشيد فلوله حتى دخلت مدينة حلب. ولما اتصف به الأخشيد من سماحة فقد صالح سيف الدولة وتنازل له عن شمال بلاد الشام .

حكم كافور :

بعد وفاة محمد بن طغج الأخشيد خلفه ابناه وكانا صغيرين فحكما تحت وصاية كافور الذي كان عبداً حبشياً اشتراه الأخشيد وعلمه وهذبه فصار يرتقي في المناصب حتى وصل الى رتبة قائد عام للجيش ، وأخيراً صار وصياً على عرش مصر واتخذ له لقباً هو (الأستاذ أبو المسك كافور الاخشيدي العالي بالله) .

وحارب كافور الحمدانيين في شمال سوريا وانتصر عليهم . وبذلك تمكن من الاحتفاظ بالشام تحت حكمه . وفي عهده انتعشت أحوال مصر وراجت التجارة . وقد شجع الأدباء والشعراء وأكرمهم ، منهم أبو الطيب المتنبي [1] الذي

(١) المتنبي شاعر مشهور ، ولد في العراق سنة ٩١٥ م وتوفي سنة ٩٦٥ م ، امتدح سيف الدولة الحمداني ، ثم كافور . وكان شجاعا وطموحا .

مدحه في عـــدة مناسبـــات ، ثم هجاه . وهذه هي بعـــض الأ بيـــات مـــن القصيدة التي امتدح بها كافور :

ترعرع الملك الأستاذ مكتهـــــلا	قبل اكتهال اديباً فوق تأديب
يصرف الملك من مصر الى عدن	الى العراق فأرض الروم فالنوب
ولا تجاوزها شمس اذا شرقـــت	الا ومنـــه لهـــا اذن بتغريب
أنت الحبيب ولكني أعـــوذ به	من أن أكون محباً غـــير محبوب

وبعد وفاة كافور سنة ٩٦٨ ميلادية تضعضع حكم الدولة الأخشيديـــة مصر ، ثم مالبثت أن قضى عليها الفاطميون سنة ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) بعـــد حكم دام أربعاً وثلاثين سنة .

الفصل الثامن

الدولة الفاطمية

مؤسسها :

سميت الدولة الفاطمية نسبة الى فاطمة الزهراء ابنة الرسول صلى الله عليه وسلم وزوجة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه . وقد أسسها أبو عبد الله الشيعي أحد دعاة أئمة الشيعة في الشمال الافريقي حيث قام بدعوته سنة ٢٨٨ ﻫ وذلك بعد أن نجح في موسم الحج باستمالة جماعة من قبيلة كتامة من البربر الى عقيدة الشيعة. ثم صحب هؤلاء بعد انتهاء موسم الحج الى بلادهم . وفي تونس جمع حوله الحاقدين على الأغالبة وانضم اليهم جماعات كثيرة من البربر والعرب شكل منهم قوة هجم بها على مدينة رقادة عاصمة دولة الأغالبة [١] واحتلها سنة ٢٩٦ ﻫ(٩٠٩م) وأطاح بهذه الدولة التي أسسها ابراهيم بن الأغلب عندما بعثه هارون الرشيد سنة ١٨٤ ﻫ (٨٠٠ م) لتوطيد النظام والأمن في الشمال الافريقي . وبعد أن قضى أبو عبد الله على الأغالبة الذين دام حكمهم مائة وتسع سنوات استدعى سعيد بن الحسن أحد أئمة الشيعة ، ونادى به خليفة للدولة الفاطمية الجديدة ، ولقب (عبيدالله المهدي)

---

(١) دولة الاغالبة بسطت سيادتها على طرابلس وبلاد تونس وقسما من الجزائر الحالية . واستولت على جزيرة صقلية وثبتت اقدامها فيها بعد نجاح الحملة العسكرية البحرية التي نزلت في الجزيرة سنة ٨٢٧ م ، واحتلت قواتها جنوب ايطاليا سنة ٨٤٦ م ووصلت في زحفها حتى أبواب روما .

توطيد حكم الدولة الفاطمية :

اتخذ عبيد الله المهدي مدينة المهدية في تونس عاصمة له ، ودانت له كافة القبائل ، وبذلك وطد دعائم الدولة الفاطمية . وقد حاول فتح مصر ولكنه توفي قبل ان تتحقق أمنيته ، فخلفه ابنه القائم سنة ٩٣٤ م ، وفي عهده نظم جيشاً قوياً غزا سواحل ايطاليا ، وكرر محاولة أبيه للاستيلاء على مصر والقضاء على حاكمها محمد بن طغج الأخشيد ففشل . وتوفي سنة ٣٣٤ هـ (٩٤٦ م) . وخلفه ابنه المنصور الذي دام حكمه سبع سنوات نشبت خلالها ثورات داخلية أقمعها ، وتوفي في مدينة المهدية سنة ٣٤١ هـ .

فتح مصر :

بعد وفاة المنصور تولى الخلافة المعز لدين الله . وكان عالماً وشجاعاً عمل على انعاش البلاد ، فأحبه الشعب . وقد جهز جيشاً وسلم قيادته الى «جوهر الصقلي» وأرسله لفتح مصر ، فتمكن من الاستيلاء على الاسكندرية دون أن يجد مقاومة كبيرة فيها ، ثم قصد الفسطاس ففتحها ، وقضى على الدولة الأخشيدية سنة ٣٥٨ هـ. وبعد أن تم له النصر أراد أن يستميل قلوب الشعب المصري فوزع على الأهالي كميات كبيرة من الحبوب . ثم قام بتأسيس القاهرة حيث بنى فيها قصراً فخماً للخليفة المعز لدين الله ، والجامع الأزهر الذي أنجز سنة ٣٦١ هـ .

انتقال الخليفة الفاطمي إلى مصر :

ولما انتهى جوهر الصقلي من بناء المدينة انتقل الخليفة الفاطمي الى القاهرة سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٣ م) واتخذها عاصمة له . وقيل انه أحضر رفاة أبيه وأجداده وأمر بدفنهم في القاهرة العاصمة الجديدة .

وبانتقال المعز لدين الله الى مصر ، وضم بلاد الشام والحجاز الى الدولة الفاطمية ازداد نفوذها وقوي مركزها وصارت تنافس الخلافة العباسية التي كانت تعاني الضعف بسبب تسلط قادة الترك على الخلفاء في بغداد .
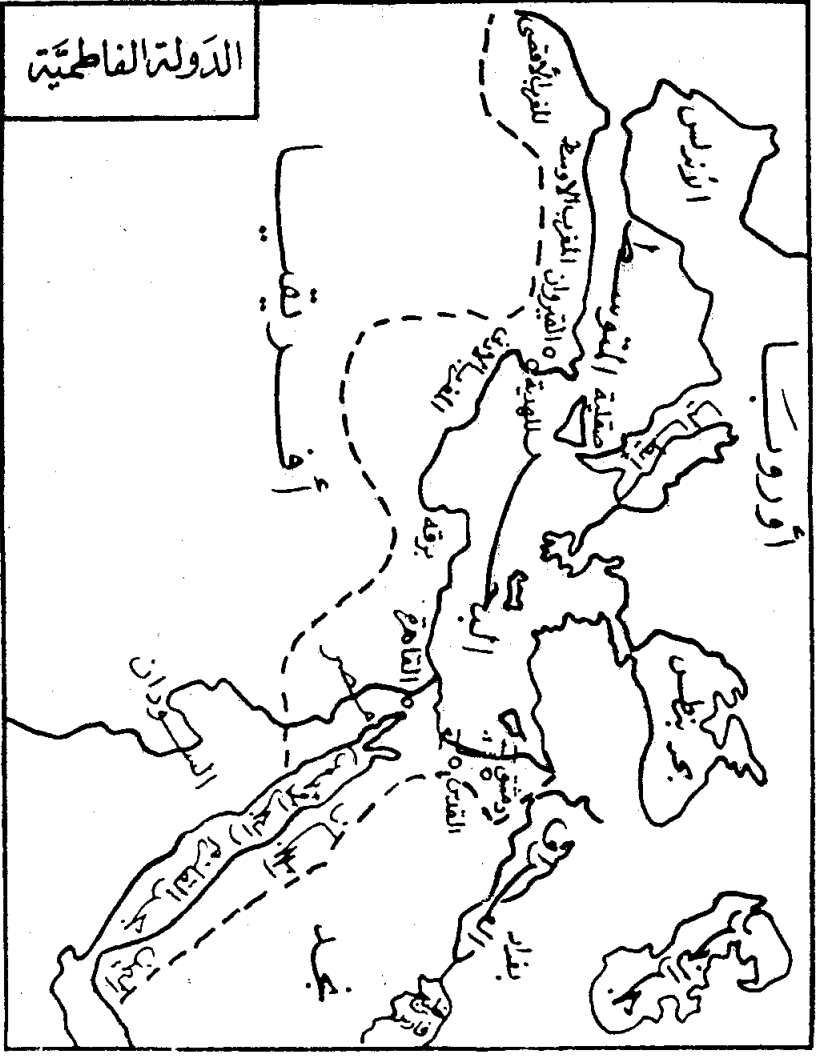
خريطة الدولة الفاطمية

ومـن أهم الأعمـال التي أنجزت في عهـد المعـز لـدين الله هـي :

انشاء أسطول حربي يتألف من ستمائة سفينة . ودارا أطلق عليها اسم (دار الكسوة) لخياطة الملابس للجيش وموظفي الدولة . وبنى السدود والأقنية لتنظيم الري وزيادة المساحة الزراعية . وشجع الصناعة . فساعد ذلك على ازدهار مصر وتنمية مواردهـا..

واهتم المعز بنشر المذهب الشيعي . وفي أواخر أيامه هاجمت قوات القرامطة[1] مصر ، وحاصرت القاهرة ، فعمد المعز الى حيلة أنقذ بها العاصمة فدفع لى حليف القرامطة أحد مشايخ بني طي أموالا ضخمة من نقد مزيف فتخلى عن مساعدة المعتدين فاضطروا الى فك الحصار عن القاهرة والرجوع من حيث أتوا .

الدولة الفاطمية في أوج ازدهارها :

تبوأت الدولة الفاطمية مركز الصدارة وبلغت أوج ازدهارها في عهد العزيز بالله الذي تولى الخلافة بعد وفاة أبيه المعتز سنة ٩٧٥ م . وكان عهده عهد رخاء وتقدم وعمران ، فنمت الزراعة والصناعة ، وامتلأت القاهرة بالقصور الفخمة منها قصر الخليفة وقصر الضيافة وقصر منازل العز على النيل الخ ..

وبنى العزيز مسجداً عظيماً أطلق عليه اسم جامع الحاكم نسبة الى الخليفة الحاكم . وفي عهده تطور جامع الأزهر وأصبح جامعة للعلوم الدينية . يقدم للطلاب الذين يدرسون فيها الملبس والمأكل على نفقة الخليفة .

وكان العزيز الخليفة الفاطمي يعتمد في رسم السياسة الماليـة والاقتصادية على وزيره يعقوب بن كلس من أصل يهودي وأسلم . وعلى وزير آخر اسمه عيسى

---

(١) تنتسب القرامطة إلى حمدان بن الاشعث الملقب (بقرمط) الذي تزعم الحركة في الكوفة سنة ٢٨٧ هـ ، ومنها امتد نشاطها إلى بلاد الشام ثم إلى الخليج العربي حيث دامت سيطرتهم عليه نحو ٨٥ سنة . واشتهر القرامطة بالقسوة والعنف والظلم .

ابن نسطوروس النصراني. وتزوج العزيز من أخت بطريرك الاسكندرية . وكانت وفاته في القاهرة سنة ٣٨٦ ﻫ (٩٩٦ م) .

خلافة الحاكم بأمر الله :

تولى أبو العلي المنصور (الحاكم بأمر الله) الخلافة بعد وفاة أبيه العزيز الا انه كان صغير السن فعمل أستاذه المدعو (بيرجوان) وصياً عليه . وكان الذي يقوم بتصريف سؤون الدولة قائد الجيش ابن عمار ولقب بأمين الدولة . وقد قتل أثناء المنازعات التي نشبت بين الجنود الأتراك والمغاربة في القاهرة . وبعد موته حل مكانه الوصي بيرجوان .

تصرفاته الشاذة :

لما تسلم الحاكم بأمر الله مقاليد الحكم نقم على أستاذه بيرجوان وأمر بقتله. وقد عرف بالشذوذ في تصرفاته وأحكامه التي كان يصدرها . وهذه بعضها :

١ – ادعى الألوهية ، وصار يأمر الناس بالسجود له عندما يذكر اسمه الخطباء على المنابر .

ب – أمر باغلاق الأسواق نهاراً ، وفتحها ليلاً فامتثل الناس لأمر الحاكم ولم يعودوا يعملون في متاجرهم وحوانيتهم الا في الليل فيضيئونها ويسهرون حتى الصباح .

ج – منع النساء الخروج من منازلهن ، وحرم عمل الأحذية لهن .

د – حرم أكل العسل والزيت والملوخية وشرب الخمور ، وأمر باقتلاع كروم العنب حتى لا يصنع الناس منها خمراً ودبساً وزبيباً .

وعندما كثرت مساوىء الحاكم بأمر الله وتفاقم ظلمه كرهه الشعب على اختلاف طبقاته ، وحقد عليه جيشه وأهل بيته وبالأخص أخته (ست الملك) التي اتفقت مع كبير أمراء الجيش المدعو ابن دواس للتخلص منه وانقاذ البلاد من

شره . وحسب الخطة المرسومة تتبعه بعض الجنود وقتلوه بينما كان يتجول ليلاً في جبل المقطم قرب القاهرة ، وذلك سنة ٤١١ هـ (١٠٢٠ م) .

وكان الحاكم بأمر الله مولعاً بدراسة النجوم . فأنشأ مرصداً في سفح جبل المقطم حيث كان يمضي الليالي في رصد الأجرام . وأنشأ أيضا داراً للعلماء أطلق عليها اسم (دار الحكمة) لعقد الندوات العلمية ونشر المذهب الشيعي . وكانت مدة خلافته ٢٥ سنة منها سبع سنوات تحت وصاية أستاذه بيرجوان . ولما قتل كان عمره ٣٧ سنة .

أبو الحسن يتولى الخلافة :

بعد وفاة الحاكم بأمر الله أرسلت أخته ست الملك الى ابنه أبي الحسن علي تستدعيه من دمشق . فحضر وبايعه الأمراء والوزراء وكبار القوم . ولقب بالظاهر لاعزاز دين الله . وكانت السلطة الفعلية بيد ست الملك التي ظلت قابضة على زمام الأمر أربع سنوات أعادت خلالها للدولة هيبتها وقوتها ، وأحسنت سياسة الشعب فأحبها واحترمها . وبعد وفاتها سنة ٤١٥ هـ ظل ابن أخيها الخليفة الظاهر لاعزاز دين الله يحكم حتى توفي سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٥) م ، وكان عمره **٣٣ سنة** .

حكم المستنصر بالله :

لما توفي الخليفة الظاهر بايع قواد الجيش ورجال الدولة لولده أبي تميم الملقب بالمستنصر . وكان عمره لايتجاوز سبع سنوات . فتسلم الوزراء مهام السلطة ودب بينهم الشقاق والنزاع على الحكم .

ولما شب المستنصر وتسلم مقاليد السلطة كانت الفوضى مستفحلة ، وازدادت الخطورة بتعرض البلاد الى قحط استمر عدة سنوات ، عرفت فترتها باسم (الشدة العظمى) حيث عم الخراب والمجاعة والضائقة المالية . فاستدعى الخليفة المستنصر بدر الجمالي وعينه وزيراً وخوله صلاحيات واسعة لانقاذ البلاد . وقد اتصف بالمقدرة والحزم والاخلاص للخليفة الفاطمي . فطهر الجيش من عناصر الشغب والفتن ،

وأصلح الأمور . ولحماية القاهرة العاصمة الفاطمية فقد بنى سورا حولها تعلوه أبراج المراقبة ، لاتزال بعض أثاره باقية الى يومنا هذا .

وحكم المستنصر بالله أطول مدة عرفها التاريخ الاسلامي ، فقد بويع بالخلافة سنة ٤٢٧ هـ ودام حكمه حتّى توفي سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤م) . وفي نفس السنة توفي وزيره بدر الجمالي .

سقوط الدولة الفاطمية :

بعد المستنصر بدأ عهد جديد تميز بضعف الخلفاء الفاطميين الذين تعاقبوا على سدة الحكم ، وعجزهم عن اصلاح الأمور . فعهدوا الى وزراء بتصريف شؤون الدولة فاستأثروا بالسلطة خلال المرحلة الأخيرة من تاريخ حكم الفاطميين ، وعرفت هذه المرحلة بعصر الوزراء العظام . وقد أدى تنازعهم وصراعهم الى تقلص نفوذ الدولة الفاطمية ، وفقدان ممتلكاتها في الشمال الافريقي وجزيرة صقلية. واستمر الانقسام يعصف بها حتّى تلاشت قواها وسقطت .

وخلال المرحلة التي امتدت منذ وفاة المستنصر بالله سنة ٤٨٧ هـ حتّى زوال الدولة الفاطمية توالى على الحكم ستّ خلفاء هم : أحمد المستعلي بالله ابن المنتصر : ٤٨٧ ــ ٤٩٥ هـ (١٠٩٤ ــ ١١٠١ م) . على الآمر بأحكام الله ابن المستعلي : ٤٩٥ ــ ٥٢٤ هـ (١١٠١ ــ ١١٣٠ م) . الميمون الحافظ لدين الله ابن الأمير أبي القاسم : ٥٢٤ ــ ٥٤٤ هـ (١١٣٠ ــ ١١٤٩ م) . اسماعيل الظافر بأمر الله ابن الميمون : ٥٤٤ ــ ٥٤٩ هـ (١١٤٩ ــ ١١٥٤ م) . عيسى الفائز بنصر الله ابن اسماعيل : ٥٤٩ ــ ٥٥٥ هـ (١١٥٤ ــ ١١٦٠ م) . أبو محمد عبد الله العاضد لدين الله : ٥٥٥ ــ ٥٦٧ هـ (١١٦٠ ــ ١١٧١ م) .

وفي عهد الخليفة العاضد قامت حركة تنازع على السلطة بين وزيرين هما ضرغام بن سوار ، وشاور بن مجير الدين أبو شجاع . فالأول استنجد بالصليبيين الذين كانوا ثبتوا أقدامهم في فلسطين . والثاني خرج الى الشام ليستنجد بالسلطان نور الدين محمود زنكي ملك الشام الذي رحب به وأرسل معه جيشاً بقيادة أسد الدين

شيركوه ، فدخل مصر وتغلب على ضرغام بن ساور وقتله ، ثم ثبت شاور في الوزارة . كان ذلك عام ٥٥٩ هـ .

وفي عام ٥٦٢ هـ دخلت جحافل من الصليبيين مصر . فعاد اليها أسد الدين شيركوه على رأس جيش و بمعيته ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي : فطرد الصليبيين . وقتل شاور الذي نكث بعهده لنور الدين محمود . وتحالف مع أعدائه الصليبيين . وبعد هذا النصر العظيم الذي حققه أسد الدين ولاه العاضد الخليفة الفاطمي الوزارة ولقبه الملك المنصور . ولم يمهله الأجل طويلاً فمات بعد ثلاثة أشهر سنة ٥٦٤ هـ : فعهد العاضد الى صلاح الدين بالوزارة ولقبه الملك الناصر . وفي سنة ٥٦٧ هـ توفي العاضد آخر الخلفاء الفاطميين . وأعلن صلاح الدين زوالها دون أية معارضة أو مقاومة . وأمر باقامة الخطبة للخليفة العباسي في مصر بعد انقطاع دام قرنين ونيف .

ومن أهم مميزات الدولة الفاطمية وأعمالها انها حافظت على الكيان العربي في المناطق التي كانت تحت سيطرتها ، مثال ذلك الشمال الافريقي . وقد شجعت العلوم والفنون ، واهتمت بالزراعة والصناعة وعمران البلاد ، كما سمحت للنصارى واليهود باقامة شعائرهم الدينية . وعينت البعض منهم في مناصب كبرى وبالأخص في عهد الخليفة المعز وعهد ابنه العزيز .

وتطور فن العمارة في عصر الفاطميين الذين اهتموا ببناء المساجد والقصور الفخمة المزخرفة بالنقوش البديعة . ومن أشهر انجازاتهم التي لا تزال باقية الى يومنا هذا ، الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، وجامع الجيوش ، وسور القاهرة ، والقاهرة التي بنيت في عهد الخليفة المعز لدين الله .

الفصل التاسع

الدولة الحمدانية

استقل حمدان بن حمدون أحد كبار شيوخ قبيلة تغلب العربية [1] بمنطقة الموصل وذلك بعد أن تسلط قادة الترك على الخلافة العباسية وأقصوا العناصر العربية عن القيادة .

واتخذ الحمدانيون مدينة الموصل عاصمة لدولتهم العربية سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩م) حيث انضمت تحت لوائها القبائل الضاربة في وادي الفرات ، وأطراف بادية الشام . ومن أشهر قادتها الذين لعبوا دوراً كبيراً في مقاومة نفوذ الأتراك في العراق الحسن وعلي ولدا عبد الله بن حمدان .

محاولة انقاذ الخليفة العباسي :

جهز الحسن بن عبد الله الحمداني جيشاً من العرب وسار به ومعه أخوه الى بغداد لاقصاء نفوذ الترك وانقاذ الخليفة العباسي المتقي بالله من تسلطهم ، ودخل الحسن العاصمة حيث رحب به الخليفة . ومنحه رتبة أمير الأمراء ، وهي الرتبة

---

(١) تغلب من قبائل العرب الكبرى ، أصلها من اليمن ، انتقلت إلى الحجاز ونجد ، ثم إلى بلاد الشام فالى ما بين النهرين ، نبغ منها شعراء ، وفرسان أبطال . اشتبكت مع قبيلة بكر وائل في حرب طويلة تعرف باسم حرب البسوس .

التي تمنح للذي بيده السلطة . كما منح أخاه لقب (سيف الدولة) . وبذلك تمكن الحمدانيون من انتزاع السلطة سنة ٣٣٠ هـ من الترك الذين كان قوادهم قبل دخول الجيش العربي بغداد في نزاع على مركز السلطة .

ولم تمض السنة على اقصاء الترك عن مركز السلطة حتى وحدوا صفوفهم بقيادة أحد أمرائهم المدعو (توزون) الذي اشتهر بالقسوة والعنف . وقد تمكن من اخراج الحمدانيين من بغداد . فعادوا الى الموصل سنة ٣٣١ هـ (٩٤٢ م) .

أما مصير الخليفة العباسي المتقي بالله فقد خلعه توزون بعد أن سمل عينيه . وعين خليفة بدلاً منه المستكفي بالله سنة ٩٤٤ م .

الحمدانيون يتخذون حلب عاصمة لهم :

نقل سيف الدولة العاصمة من الموصل الى مدينة حلب شمال الشام سنة ٣٣٣هـ (٩٤٤ م) وذلك بعد أن استتب له الأمر وقضى على نفوذ الاخشيد في تلك المنطقة ذات المركز الهام ، وكان الأخشيد آنذاك يحكم مصر وبلاد الشام والحجاز .

وعاد سيف الدولة وهاجم الأخشيد في شمال الشام . ولكنه خسر المعركة الحاسمة في قنسرين ، وانتهت الحرب بينهما بصلح ينص على بقاء القسم الشمالي من بلاد الشام تحت حكم سيف الدولة .

الحروب مع البيزنطيين :

كان سيف الدولة شجاعاً ، رزيناً وكريماً يحبه شعبه وجيشه الذي قام بصد غارات البيزنطيين على الجزيرة وشمال الشام وأنزل بهم الهزائم بقيادة سيف الدولة نفسه . وقد حاول الامبراطور البيزنطي (نقفور فوقاس) السيطرة على حلب والاستيلاء على المناطق المعروفة باسم العواصم والثغور المتاخمة لبيزنطية ، فصدت قوات نقفور وطردها سيف الدولة من المناطق التي تسللت اليها ، واستمر يزحف بجيشه حتى دخل حدود بيزنطية واستولى على مدينة مرعش وعدة حصون .

لقد قام الحمدانيون بدور بطولي في الدفاع عن المناطق الاسلامية وحمايتها من غارات البيزنطيين الذين حاولوا في عهد الامبراطور شميشق الاستيلاء على بيت المقدس ، فقاومهم الحمدانيون وهاجموا مؤخرة جيوشهم الزاحفة عبر الشام ، وأرغموا بفضل مقاومة الحمدانيين على الانسحاب . وبذلك فشلت بيزنطية باستعادة نفوذها على بلاد الشام وفلسطين التي طردت منها في عهد الخليفة عمر بن الخطاب سنة ١٥ - ١٦ ه (٦٣٦ - ٦٣٧ م) .

ازدهار العلوم والآداب :

وفي عهد سيف الدولة ازدهرت العلوم والآداب . وعلى غرار هارون الرشيد وابنه المأمون كانت تعقد في قصره بحلب الندوات للأدباء والشعراء . وكان يجزل لهم العطاء ، ويشجع نشر العلوم والفنون . ومن الذين برزوا في عهده [1] : أبو الفرج الاصبهاني صاحب كتاب الأغاني الشهير ، والمتنبي الشاعر العظيم ، والفارابي الفيلسوف صاحب المؤلفات الفلسفية والعلمية والاجتماعية ، وابن نباتة الخطيب المشهور ، وأبو فراس الحمداني الشاعر الفذ والفارس الشجاع .

نهاية الدولة الحمدانية :

بعد وفاة سيف الدولة سنة ٣٥٦ ه (٩٦٧ م) انتاب الدولة الحمدانية الضعف الذي ظل يلازمها حتى زالت في عهد أبي المعالي شريف سنة ٣٩٤ ه (١٠٠٣ م) وقبله توالى على الحكم ثلاث حكام هم : سعد الدولة الذي خلف سيف الدولة سنة ٣٥٦ ، حتى ٣٨١ ه . ثم سعيد الدولة حتى سنة ٣٩٢ ه ، وخلفه أبو الحسن علي حتى سنة ٣٩٤ ه .

---

(١) أبو الفرج الاصبهاني : هو علي بن الحسين ، ولد في أصفهان سنة ٨٩٧ م وتوفي سنة ٩٦٦ م .
المتنبي : (أبو الطيب) ولد في محلة كندة بالكوفة سنة ٩١٥ م وتوفي سنة ٩٦٥ م .
الفارابي : (أبو النصر) ولد في فاراب بتركستان سنة ٨٧٢ م وتوفي في دمشق سنة ٩٥٠ م .
ابن نباته : ولد سنة ٩٤٦ م وتوفي سنة ٩٨٤م .

الدولة الغزنوية

ظهرت الدولة الغزنوية في افغانستان وامتد سلطانها الى بلاد ما وراء النهر وخراسان والهند . ودام حكمها نحو قرنين وربع القرن (٣٥١ - ٥٨٢ هـ)(٩٦٢- ١١٨٦ م) . وسميت هذه الدولة الاسلامية باسم الغزنوية نسبة الى مدينة غزنة في افغانستان التي اتخذها سبكتكين عاصمة لدولته . وكان سبكتكين عاملا (حاكما) على غزنة من قبل السامانيين [1] الذين حكموا بلاد ما وراء النهر باسم الخلافة العباسية ، ثم امتد سلطانه الى خراسان حيث انتصر هو وابنه محمود على بني بويه الذين حاولوا الاستيلاء عليها . وفي سنة ٣٦٩ هـ اتجه سبكتكين الى الهند واشتبك مع جيبال ملك المقاطعات الشمالية الغربية من الهند في معارك ضارية انتصر فيها ، ودخل مدينة لمغان بعد أن دمر قلاعها وأمر رجاله بتحطيم الاصنام واقامة شعائر الاسلام . وفي عودته من الهند أخضع الافغان .

وبعد وفاة سبكتكين سنة ٣٨٨هـ (٩٩٨ م) تولى الحكم ابنه محمود الذى لقبه الخليفة القادر العباسي (يمين الدولة) اعترافا بجهوده وجهاده في سبيل الاسلام . واستمر محمود الغزنوى في غزواته عبر الهند حيث تمكن من اخضاع بلاد البنجاب وضمها الى مملكته ، كما ضم اليها بلاد ما وراء النهر . واتجه بعد ذلك الى خراسان وانتزعها من السامانيين بعد أن هزمهم عند مدينة مرو سنة ٣٨٩ هـ .

وفي عام ٣٩٣ هـ استولى على بلاد سجستان ، ثم واصل حملاته غربا ودخل طبرستان وأخرج البويهيين من الري سنة ٤٢٠ هـ (١٠٢٩ م) .

وكان محمود الغزنوي رجلا شجاعا ومجاهدا عظيما ، اتصفت غزواته بطابع الجهاد الديني في بلاد الهند حيث قام بنشر الاسلام في ربوعها . وبعد وفاته سنة

---

(١) السامانيون : ينتسبون إلى احدى أسر الفرس العريقة . ولى الخليفة المأمون أولاد أسد بن سامان بلاد ما وراء النهر ، وامتد نفوذهم إلى خراسان، وظل السامانيون مخلصون للخلافة العباسية وقاموا بنشر الاسلام في آسيا الوسطى ، واستمر حكمهم ٢٥ سنة (٨٧٤ - ٩٩٩ م) ثم قضى على دويلتهم خانات الترك والدولة الغزنوية .

٤٢١ هـ (١٠٣٠ م) تولى السلطة ابنه مسعود الذى واصل فتح بلاد الهند . ومن لاهور عاصمة البنجاب التي اتخذها الغزنويون مركزا لهم انطلقت حملاتهم عبر الهند فساعد ذلك على توطيد سلطانهم ومهد السبيل أمام المجاهدين لنشر الاسلام في جميع أقاليم الهند الشمالية .

وقد استغل السلاجقة فرصة انشغال مسعود بن محمود الغزنوي في فتح بلاد الهند فقاموا بشن غارات على خراسان حيث وقعت عدة اشتباكات بين القوات الغزنوية والسلجوقية كان اعنفها واشدها ضراوة هي المعركة التي دارت رحاها قرب بلدة نسا الواقعة بين مرو وسرخس سنة ٤٢٦ هـ (١٠٣٥ م) ، وفيها هزمت السلاجقة وعقدوا مع مسعود معاهدة صلح لم تعمر طويلا . وبعد مرور ثلاث سنوات اندلعت الحرب بين الطرفين وانتصر السلاجقة على الغزنويين قرب مدينة سرخس سنة ٤٢٩ هـ وواصلوا زحفهم على نيشابور (نيسابور) فاحتلوها وتمركز فيها زعيمهم طغرل بك . وحاول مسعود بن محمود الغزنوي أعادة هيبته ونفوذه وانقاذ خراسان من السلاجقة ولكنه فشل وهزم قرب دنداقان سنة ٤٣١ هـ . وبذلك انتهى حكم الدولة الغزنوية في خراسان ، وعاد مسعود الى عاصمته غزنة حيث واجه حركة ضده ادت الى عزله وتولية اخيه محمد الذى كان على خصام مع اخيه على السلطة منذ وفاة والدهما محمود .

واستمر الانحطاط يلازم الدولة الغزنوية حتى تلاشت بعد أن فقدت بلاد ما وراء النهر على يد خانات الترك ، وفي الافغان قضت عليها قبائل الغور واسست دولة على انقاضها وقد حافظت الدولة الغورية على الاقاليم الاسلامية في الهند حيث استمرت تعمل على ترسيخ النفوذ الاسلامي في هذه البلاد حتى جاء المغول فقضوا عليها .

الدولـة البويهيـة

مؤسسها :

أبو شجاع بويه من أسرة بني بويه الفارسية التي استقرت قديماً في اقليم الديلم ، جنوب بحر قزوين . وانتهز أبو شجاع فرصة ضعف الخلافة العباسية في بغداد ، وتنازع ولاة الخليفة الراضي في فارس فاستولى على شيراز . ومنها امتدت حركة بني بويه : (أولاد أبي شجاع : علي وحسن وأحمد) الى مناطق أخرى وبسطوا سلطانهم عليها . ثم قاموا بتوطيد دعائم دولتهم في جنوب فارس وجعلوا عاصمتها شيراز ، وأنشأوا جيشاً قوياً لتوسيع ملكهم .

تسلطهم على الخلافة العباسية :

وفي أواخر سنة ٣٣٣ ﻫ (٩٤٤ م) سار أحمد بن أبي شجاع بويه على رأس قوة كبيرة الى بغداد ، فدخلها ورحب به الخليفة العباسي المستكفي بالله ومنحه لقب (معز الدولة)، وأنعم على أخيه علي بلقب (عماد الدولة)، وعلى أخيه حسن بلقب (ركن الدولة) .

وهيمن أحمد بويه على السلطة في بغداد ، وعزل الخليفة المستكفي الذي أحسن استقباله وأنعم عليه وعلى اخوته بأرفع الألقاب . وعين بدلاً منه الخليفة المطيع لله الذي غدا ألعوبة بيده . كما أمر أن يذكر اسمه مع الخليفة على المنابر في خطبة الجمعة .

بنو بويه في أوج القوة والعظمة :

أصبح بنو بويه هم الحكام في بغداد ، وقويت سلطتهم في العراق وفارس في عهد زعيمهم عضد الدولة الذي نقش اسمه على العملة التي تسك في العاصمة العباسية ، وتزوج من ابنة الخليفة المطيع وزوج ابنته للخليفة . وكان وراء هذا الزواج فكرة تكمن في مخيلة عضد الدولة قوامها تحويل الخلافة عن طريق الوراثة بالتزاوج الى بني بويه ولكن حلمه لم يتحقق .

وقام عضد الدولة بأعمال عمرانية عظيمة في كل من بغداد وشيراز التي بقيت عاصمة للدولة البويهية ، ومن أهمها انشاء (البيمارستان العضدي) في بغداد الذي كان من أشهر المستشفيات في القرن الرابع الهجري – العاشر الميلادي.

وكان عضد الدولة يكرم العلماء والأدباء ويعقد معهم الندوات في قصره ويشجعهم على البحوث والتأليف . وتوفي سنة ٣٧٣ هـ (٩٨٣ م) .

نهاية الدولة البويهية :

عاشت الدولة البويهية التي كان حكامها من الشيعة الفرس بعد وفاة عضد الدولة نحو ٧٢ سنة . ففي الفترة الأولى حافظت على مركزها ونفوذها في فارس والعراق ، قام خلالها ولدا عضد الدولة : (شرف الدولة و بهاء الدولة) بأعمال هامة منها تأسيس مجمع علمي في بغداد وداراً للكتب سنة ٩٩٠ م بمساعدة سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة ، احتوت على عشرة آلاف كتاب .

أما المرحلة الثانية فقد تميزت بتسرب الضعف الى الدولة البويهية ونشوب الخلاف بين حكامها . وفي بدايتها عزل بهاء الدولة الخليفة العباسي الطائع سنة ٣٨١ هـ (٩٩١ م) وعين الخليفة القادر الذي دامت خلافته حتى سنة ١٠٣١ م . وفي أواخر أيامه فرض على البويهيين احترامه واستعاد للخلافة هيبتها .

وقد استمر الضعف يلازم الدولة البويهية حتى انهارت على يد طغرل بك زعيم السلاجقة سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥ م) .

دولة السلاجقة

السلاجقة هم قبيلة من قبائل الغز الاتراك ، هاجرت تحت ظروف قاهرة من مساكنها في القرغيز من تركستان تحت زعامة سلجوق بن دقاق الى بلاد ما وراء النهر في عام ٣٧٥ هـ (٩٨٥ م) واستقرت في بخارى حيث اعتنق السلاجقة الاسلام على المذهب السني . وقد تحمسوا للاسلام وحاربوا الى جانب السامانيين ضد الوثنيين وخانات الترك الذين كانوا يناصبون الدولة السامانية العداء . وتقديرا لجهودهم ومساهمتهم فقد سمح لهم السامانيون باتخاذ مدينة جند الواقعة قرب شاطيء نهر جيحون مقرا لهم .

وأخذ السلاجقة بعد أن نمت ثروتهم وتوطد مركزهم يتطلعون الى التوسع على حساب جيرانهم الولاة المسلمين الذين كانوا في نزاع قائم فيما بينهم . ذلك ما كان يصبو اليه سلجوق الذى توفي بمدينة جند وترك اربعة اولاد هم : بيغو ارسلان ، موسى بيغو ، يونس ،ميكائيل . وعلى يد طغرل بن ميكائيل بن سلجوق عظم امر السلاجقة وقامت لهم دولة على انقاض الغزنويين في بلاد خراسان التي استولى عليها طغرل سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م).

وللحصول على اعتراف الخليفة العباسي بدولتهم لتستكمل الصفة الشرعية فقد كتب طغرل بك رسالة الى الخليفةالقائم بأمر الله يعلن فيها الولاء للخلافة والحفاظ على تعاليم الاسلام والجهاد في سبيل الله . وشرح للخليفة العباسي أسباب محاربة السلاجقة للغزنويين فقال : ان محمود الغزنوى قبض على بيغوا ارسلان بن سلجوق ونفاه الى الهند وسجنه في قلعة (كالنجر) حيث ظل معتقلا حتى مات . وبدوره

داجم ابنه مسعود السلاجقة فصدوه وانتصروا عليه . تلك كانت خلاصة الرسالة التي بعثها طغرلبك الى الخليفة فاطلع عليها وأوفد اليه رسولا يدعوه للحضور الى بغداد .

وواصل السلاجقة زحفهم بقيادة طغر فاحتلوا المناطق الغربية ، ثم اتجهوا الى كرمان واستولوا عليها ، ودخلوا اصفهان سنة ٤٤٢ ﻫ ومنها انطلقوا الى مناطق فارس الجنوبية واحتلوها . ثم اتجه طغرل بك على رأس قواته الى اذربيجان ودخل عاصمتها تبريز عام ٤٤٦ ﻫ وواصل تقدمه في بلاد الروم فحاصر (ملاذ كرد) وغزا المناطق المجاورة لها . وبعد ان بسط سيادته على هذه البلاد وانهى حكم الدولة البويهية في فارس زحف طغرلبك على العراق ودخل بغداد دون مقاومة سنة٤٤٧ﻫ(١٠٥٥م) فاستقبله الخليفة العباسي استقبالا رائعا ولقبه (السلطان ركن الدولة طغرلبك) . وبدخول السلاجقة العراق سقطت الدولة البويهية وزالت سيطرتها بعد أن حكمت فارس والعراق باسم الخلافة العباسية منذ عام ٣٣٣ ﻫ حتى عام ٤٤٧ ﻫ .

وتوطدت الروابط بين السلاجقة والخليفة العباسي ، وزادها توثيقا زواج الخليفة من (ارسلان خاتون) ابنة جغرى بك أخي طغرل في عام٤٤٨ ﻫ، وفي نفس السنة التي تم فيها هذا الزواج قامت حركة تمرد بزعامة البساسيرى (قائد ترك) ، فاستولى على الموصل وأعلن انضمامه الى الفاطميين . وسرعان ما أخمد حركته طغرلبك وعين اخاه ابراهيم اينال واليا على الموصل والجزيرة . وعندما عاد طغرل الى بغداد احتفى به الخليفة ولقبه (ملك المشرق والمغرب) .

وما كاد يستقر الوضع في الموصل حتى ظهرت حركة تمرد جديدة قائدها ابراهيم اينال ، الذى ترك الموصل وسار الى همذان حيث التفت حوله فئة من القوات التركية وناصرته. وقد شعر السلطان طغرلبك بخطورة حركة اخيه على الاسرة السلجوقية الحاكمة التي سيؤدي بها الانقسام الى الزوال ، فقرر بتر الداء قبل استفحاله . وعلى الفور سير جيشا قاده بنفسه للقضاء على حركة أخيه ابراهيم. وعلى مقربة من مدينة الرى وقعت معركة ضارية قتل فيها ابراهيم وهزمت قواته . وفي الوقت الذى كان السلطان طغرل بك مشغولا في قمع حركة تمرد أخيه كان

البساسيرى الذى تمركز في الموصل يوجه قواته الى بغداد مستغلا فرصة غياب طغرل عن العراق مع معظم القوات السلجوقية للأستيلاء عليها . وقد دخلها ووقع الخليفة العباسي أسيرا في قبضته واعلن الخطبة للخليفة الفاطمى المستنصر بالله. ثم تحرك الى المنطقة الجنوبية واستولى على واسط والبصرة . ولكن البساسيرى لم يتمكن من الاحتفاظ بالعراق ، فقد هاجمته جيوش السلطان العائدة من همذان والرى وسحقت قواته قرب الكوفة وقتلته. وبذلك استتب الامر للسلاجقة وقوى نفوذهم.

وفي اواخر عمره تزوج السلطان طغرلبك من ابنة الخليفة القائم بأمر الله. كان ذلك لترسيخ الرابطة مع البيت العباسي وليسمو بشرف مصاهرته. وتوفي طغرل عام ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) ، بعد أن وطد دعائم الدولة السلجوقية .

وأصبحت دولة السلاجقة الاسلامية كبيرة شاسعة الاطراف في عهد الب ارسلان [١] الذى خلف السلطان طغرلبك . فقد قام في المرحلة الاولى بسحق حركات التمرد في خراسان وبلاد ما وراء النهر. ثم فتح بلاد ارمينيا وجورجيا التي تعتبر محصنة من الشرق للأمبراطورية البيزنطية .

الاستيلاء على حلب والحجاز :

وفي عام ٤٦٢ هـ (١٠٦٩ م) أرسل الب ارسلان قوات الى بلاد الشام التي كانت تحت حكم الفاطميين ، فاستولت على حلب بدون مقاومة وأعلن اميرها الطاعة للخليفة العباسي . واستولت ايضا على اجزاء اخرى من بلاد الشام ، ثم اتجهت الى بيت المقدس ودخلته . كما ارسل قوات اخرى الى بلاد الحجاز وانتزعها من ايدى الفاطميين .

هزيمة جيوش الروم وأسر الامبراطور :

أرعبت تلك الانتصارات التي حققها الب ارسلان في ارمينيا وجورجيا وبلاد

---

(١) حين وفاة السلطان طغرلبك لم يكن له ابن ، فتولى السلطة ابن أخيه الب ارسلان بن جغري السلجوقي .

الشام امبراطور بيزنطية (رومانوس ديوجين) فجهز جيشا جرارا لقتال السلاجقة . وعند مدينة (ملاذ كرد) الواقعة على تخوم ارمينيا شمالي بحيرة وان دارت في عام ١٠٧١ م معركة حاسمة بين الروم والسلاجقة ابيد فيها معظم الجيش البيزنطي ووقع الامبراطور رومانوسي أسيرا . وقد عامله السلطان الب ارسلان الذى كان يقود بنفسه الجيش الاسلامي معاملة كريمة واطاق سراحه بعد ان عقد معه معاهدة مدتها خمسون سنة تعهد فيها امبراطور بيزنطية [١] بدفع جزية سنوية واطلاق جميع اسرى المسلمين .

وكانت حصيلة ذلك الانتصار العظيم في موقعة (ملاذ كرد) تقوية نفوذ المسلمين وضم أجزاء من بلاد الروم في آسيا الصغرى الى ممتلكاتهم ـ التي اصبحت فيما بعد قاعدة للقضاء على الدولة البيزنطية . ومن جهة اخرى فقد ادى انحسار نفوذ البيزنطيين عن آسيا الصغرى الى استنجاد هؤلاء بأوروبا وقيام الحروب الصليبية (راجع صفحة ٢١٠) .

وبعد مرور عام ونصف على موقعة (ملاذكرد) قتل السلطان الب ارسلان على يد ثائر اسمه يوسف الخوارزمي وذلك في عام ٤٦٥ هـ (١٠٧٢ م) ودفن في مدينة مرو .

عهد ملكشاه :

تولى ملكشاه بن ألب ارسلان السلطة بعد وفاة أبيه ، فسار على نهجه في بسط نفوذ الدولة السلجوقية وتقوية مركزها في الشرق الاسلامي . وقد ساعده في تنظيم أمور الدولة وزيره (نظام الملك) صاحب كتاب (سياسة نامه) الذى يتناول تنظيم الحكم وقواعده .

وواصل الفتوحات ملكشاه ، فانتزع بلاد الشام بكاملها من الفاطميين ، وعين

---

(١) بعد عودة الامبراطور رومانوس الى القسطنطينية ثار عليه « جان دوكاس » وتسلم السلطة منه منه بالقوة وظل يعذبه حتى مات بعد أن سمل عينيه .

أخاه « تتش » حاكما عليها . كما عين سليمان بن قتلمش واليا على المناطق التي فتحها السلاجقة في آسيا الصغرى وسليمان هو الذى فتح انطاكية وانتزعها من حكم الروم عام ٤٤٧ ﻫ (١٠٨٤ م) . وهو نفسه الذى أسس دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى .

وقد نجح ملكشاه في تقوية دعائم دولته المترامية الاطراف بعد أن أخمد حركات التمرد التي قامت في بلاد ما وراء النهر وحسم الخلافات بين أبناء الاسرة السلجوقية وبعد وفاته عام ١٠٩٢ ﻫ دب الانقسام بين السلجوقيين فأضعف ذلك دولتهم وأدى الى تقسيمها دويلات منها دولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى ودولة الاتابكة في الموصل وبلاد الشام .

الفصل العاشر

الدولة الأيوبية

مؤسسها صلاح الدين :

هو القائد البطل الذي قام بدور خالد في التاريخ تمثل باسترداد بيت المقدس والقضاء على جحافل الصليبيين في معركة حطين الحاسمة التي غيرت مجرى التاريخ في القرن السادس الهجري – الثاني عشر الميلادي .

وينتمي صلاح الدين الى أسرة كردية عريقة من اذربيجان ، خرجت من بلدتها (درين) واستقرت في العراق . وكان نجم الدين أيوب والد صلاح الدين في عهد الخليفة العباسي المسترشد بالله حاكماً لمدينة تكريت على شاطىء دجلة شمالي سامراء ، وفيها ولد صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٣٢ هـ (١١٣٨ م) . وفي نفس السنة التي ولد فيها وقعت اصطدامات دامية بين الخليفة العباسي الراشد بالله والسلطان مسعود السلجوقي انتهت بفرار الخليفة الى اصفهان حيث قتله رجل من خراسان . وعلى اثر ذلك رحل نجم الدين أيوب عن تكريت مع عائلته لعند صديقه عماد الدين زنكي مؤسس الدولة الزنكية في الموصل وحلب حيث عمل في خدمته وشقيقه أسد الدين شيركوه ورقيا الى أرفع المناصب في الجيش .

ونشأ صلاح الدين نشأة طيبة . ودرس الفقه والأدب دراسة عميقة ، وتدرب

على الفنون الحربية ، وترعرع في حلب ، ثم في بعلبك المدينة الشهيرة بآثارها الضخمة في البقاع الشمالي (بلبنان الحالي) حيث كان أبوه نجم الدين حاكما على القلعة والمدينة .

وبعد أن فتح نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي دمشق سنة ٥٤٩ ﻫ استقر نجم الدين أيوب مع أسرته فيها . وتسلم صلاح الدين منصب آمر الشرطة الذي كان يقوم به أخوه توران شاه . ثم ترقى حتى أصبح من كبار قواد جيش نور الدين ملك الشام .

توطيد الدولة الأيوبية :

اشترك صلاح الدين مع عمه أسد الدين شيركوه في الحملات العسكرية التي أرسلها نور الدين زنكي الى مصر لطرد الصليبيين الذين كانوا بدأوا يتغلغلون فيها . وفي تلك المعارك التي تكللت بالانتصار ظهرت مواهب ومقدرة صلاح الدين القائد الفذ الذي سجل في مصر الانتصار الأول من سلسلة انتصاراته على الصليبيين.

وبعد وفاة عمه أسد الدين في القاهرة سنة ٥٦٤ ﻫ (١١٦٩ م) أسند اليه الخليفة الفاطمي العاضد الوزارة ولقبه الملك الناصر . فأحبه الشعب والتف حوله ، وأعاد لمصر الأمن والاستقرار بعد أن قضى على المؤامرات الداخلية التي كانت تدبرها جماعة من أنصار الدولة الفاطمية التي دخلت في دور الانهيار .

وفي سنة ٥٦٧ (١١٧١ م) توفي الخليفة الفاطمي ، وبوفاته طويت آخر صفحة من حكم الفاطميين الذين كان مضى على قيام دولتهم ٢٦٢ سنة كانت بدايتها في تونس بعد أن قضت على دولة الأغالبة سنة ٩٠٩ م وفي مصر بعد أن أطاحت بالدولة الاخشيدية سنة ٩٦٩ م .

وقام صلاح الدين بسلسلة من الاصلاحات في مصر ، فحسن أحوالها ، وقضى على المفاسد ، وحول الدعاء في خطبة الجمعة الى الخليفة العباسي المستضيء، وولى القضاء للفقيه صدر الدين عبد الملك ابن درباس الشافعي ، وبنى مدرسة

خريطة الدولة الايوبية

للشافعية وأخرى للمالكية ، كما بنى قلعة وسوراً لحماية القاهرة من غارات الأعداء ورمم أسوار الاسكندرية .

وهكذا وطد صلاح الدين الأيوبي دعائم دولته في مصر ، ثم انطلق الى توحيد الشرق الاسلامي لانقاذه من خطر الحملات الصليبية التي توطدت أقدامها في سواحل بلاد الشام وفلسطين . فسار الى دمشق بجيش بعد أن توفي الملك نور الدين زنكي [1] سنة ١١٧٤ م واستولى عليها وعلى كثير من بلاد الشام سنة ١١٧٥ م ، وفتح أخوه توران شاه بلاد اليمن .

وفي المرحلة التالية ضم حلب والجزيرة والموصل التي كانت لا تزال تحت سيطرة ابن نور الدين زنكي الملقب بالملك الصالح الذي توفي سنة ٥٧٧ هـ (١١٨١ م) وابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل . وبذلك أعاد صلاح الدين توحيد الأقطار الاسلامية لمواجهة الصليبيين والحفاظ على كيان الأمة الاسلامية .

حروبه مع الصليبيين :

قام صلاح الدين الأيوبي بعد أن وحد الأقطار الاسلامية بشن حرب لتحرير المناطق والمدن التي كان الصليبيون استولوا عليها وأسسوا فيها امارات مضى على قيامها ٨٥ سنة بدأت باستيلائهم على مدينة انطاكية وطرسوس والرها بأعلى الفرات سنة ١٠٩٨ م ، وبيت المقدس سنة ١٠٩٩ م ، وطرابلس وما جاورها سنة ١١٠٩ م الخ.

أجل قبل أن يوحد صلاح الدين الشرق الاسلامي كان الصليبيون يسيطرون على مناطق هامة . وقد عجزت الخلافة العباسية التي انتابها الضعف ان تقاوم الحملات العسكرية . وكذلك الدولة الفاطمية التي دبت اليها الفوضى والصراع بين الوزراء على الانفراد بالسلطنة بعد وفاة المستنصر جعلها غير قادرة على الوقوف في وجه ذلك الغزو الخطير .

---

(١) نور الدين محمود زنكي لقب بالملك العادل ، كان شهما شجاعا كريما ، محبا لعمل الخير ، فتح دمشق سنة ٥٤٩ هـ ، وبنى فيها المدارس والمساجد ومستشفى ، رتب للأيتام والفقراء نفقة وكسوة ، حارب الصليبيين وانتصر في عدة معارك .

(أما الأسباب التي دعت أوروبا للقيام بحملات صليبية : ودور كل حملة من هذه الحملات العسكرية فسنأتي على شرحها بالتفصيل في فصل لاحق).

بعض المعارك الحربية :

سبق موقعة حطين المشهورة في التاريخ التي انتصر فيها صلاح الدين وقضى قضاءً مبرماً على القوات الصليبية ، نشوب عدة معارك كان أهمها معركة مرج عيون (بلدة في لبنان حالياً) سنة ٥٧٥ هـ (١١٧٩ م) هزمت فيها قوات الفرنج وأسر مئات من فرسانهم وبعض قوادهم .

وفي نفس السنة هاجم السلطان صلاح الدين حصن الأحزان الذي كان الفرنج بنوه قرب مدينة صفد (في الجليل الأعلى بفلسطين) واستولى على الأسلحة التي فيه ، بعد حصار دام أسبوعين ، وأسر ٧٠٠ من جنود وفرسان الصليبيين .

وفي سنة ٥٧٨ هـ (١١٨٣ م) وجه الأمير (ريجنالد دو شاتيون) حاكم حصن الكرك جنوب شرقي الأردن حملة بحرية للاستيلاء على الحجاز ، فأسرع العادل شقيق صلاح الدين ونائبه على مصر وأرسل على الفور أسطولا بقيادة الأمير حسام الدين لؤلؤ ، اشتبك مع الحملة الصليبية في معركة دارت رحاها في البحر الأحمر شمال (ينبع) أسفرت عن هزيمة الصليبيين وأسر منهم بالاضافة الى عدد كبير من الجنود والبحارة البعض من قوادهم وأمرائهم . وبذلك قضى على مغامرة ريجنالد ومخططه الخطير . وكان هذا المغامر من أشد أمراء وحكام الصليبيين تعصباً ، هاجم مراراً قوافل الحجاج المسلمين وسلبها ناقضاً بذلك شروط العهود والمحالفة التي تنص على عدم التعرض للقوافل الآمنة .

وهناك معارك أخرى جرت حوادثها في الأعوام الثلاثة التي سبقت معركة حطين كان النصر فيها للمسلمين في مناطق مختلفة . وكانت هذه تعتبر مقدمة للمعركة الكبرى مع الصليبيين .

موقعة حطين الحاسمة

في سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧ م) زحف السلطان صلاح الدين على رأس جيش سار به من دمشق واتجه الى حصن الكرك واستولى عليه بعد معركة ضارية . ثم تابع زحفه الى طبرية فحاصرها ستة أيام واحتلها .

وعلى مقربة من طبرية دارت رحى معركة حطين في شهر ربيع الثاني (٥٨٣هـ) تموز – يوليو (١١٨٧ م) بين جيش المسلمين والجيوش الصليبية بقيادة ملك القدس وأمراء صور وعكا والناصرة والكرك . وكان عددها نحو ٢٠ ألفاً من الفرسان و ١٣ ألف مقاتل من كتائب المعسكرات والحصون و ٧ آلاف مقاتل من كتائب المساندة أما قوات صلاح الدين فكان عددها ١٢ ألفاً بالاضافة الى بعض كتائب من المتطوعين .

وفي صبيحة يوم الجمعة بدأت المعركة والتحمت الجيوش في قتال عنيف . وكانت معركة حاسمة انتصر فيها السلطان صلاح الدين وأنزل بالفرنج هزيمة ساحقة . وقد وقع من الأسرى في أيدي المسلمين ملك القدس (غي دو لوزينان) والأمير (ريجنالد شاتيون) حاكم حصن الكرك ، وغيرهما من الأمراء ومعظم كبار قواد كتائب الجيوش . و ١٤ ألف جندي . وبلغ عدد قتلاهم نحو ٩ آلاف . كما قضى على كثير منهم العطش والحر والنيران التي اشتعلت في الحشائش الجافة التي قذفت بالنفط فتأجج اللهب تحت سنابك خيولهم وحول معسكرهم وأهلك مجموعات منهم .

وأحسن صلاح الدين السلطان النبيل معاملة أسرى الصليبيين وأطلق سراح غي دو لوزينان ملك القدس بعد أن أخذ عليه تعهد بأن لا يتعرض للمسلمين بأذى ولا يحرض على قتالهم . أما رجينالد حاكم حصن الكرك الذي نقض مراراً شروط العهد واعتدى على قوافل المسلمين فقد ضرب عنقه . وكان صلاح الدين قد أقسم اليمين أن يقتل هذا الغدار اذا وقع بيده ، فبرّ بقسمه وقتله ، كما ضرب عنق فرسانه الذين سلبوا ونكلوا بالناس الآمنين .

استرداد بيت المقدس :

بعد ذلك النصر العظيم الذي حققه صلاح الدين وجيشه في معركة حطين التي كانت بداية النهاية في تاريخ الحروب الصليبية اتجه الى الساحل حيث استولى على عكا وصيدا وبيروت ويافا ؛ ونابلس والرملة ؛ ثم فتح بيت المقدس بعد أن حاصر المدينة من جميع الجهات وشدد عليها الحصار حتى سلمت في شهر رجب ٥٨٣ هـ (تشرين أول – أكتوبر ١١٨٧م). ودخل السلطان العادل الكريم النفس المدينة المقدسة وأعطى الأمان لأسر الفرنج البالغ عدد أفرادها رجالا ونساءً وأطفالا نحو ١٧ ألف نسمة ، وعفا عن الأسرى . وأمر بتنظيف المسجد الأقصى وغسل الصخرة بالماء الطاهر وماء الورد . ونصب المنبر الى جانب المحراب ، وأقيمت الصلاة. وهكذا أعيد الى المسجد الأقصى حرمته وهيبته ، وانطلق في أجواء بيت المقدس صوت المؤذن يردد الله أكبر .. الله أكبر .. بعد انقطاع دام ٨٨ سنة كانت بدايتها سنة ١٠٩٩ ميلادية (٤٩٢ هـ) تاريخ استيلاء الصليبيين على القدس .

وبذلك تقوضت مملكة الفرنج الصليبيين في الشرق ولم يبق في حوزتهم إلا صور وطرابلس وانطاكية وبعض القلاع على السواحل وما جاورها من المدن الصغيرة .

حملة ملوك اوروبا العسكرية :

أحدث انهيار المملكة اللاتينية واسترداد المسلمين لبيت المقدس هزة عنيفة في أوروبا . فقام ملوكها بتجهيز حملة عسكرية لاستعادة المناطق التي خسرها الفرنج في الشرق وبالأخص القدس . وكانت هذه الحملة من أكبر الحملات الصليبية ؛ فقوادها ثلاثة ملوك هم : فريدريك بربروسا امبراطور ألمانيا . فيليب أوغست ملك فرنسا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا .

وفي الطريق غرق الامبراطور فريدريك وهو يعبر أحد أنهار كيليكية (في تركيا حالياً)، فتشتت جيشه ورجع القسم الأكبر من جنوده وقواده الى بلادهم ؛ ولم يصل منه الى سواحل بلاد الشام سوى خمسة آلاف .

واختار الفرنج عكا لتكون قاعدة ينطلقون منها لاسترداد القدس والمدن الأخرى التي فقدوها . وهاجمت قواتهم المدينة من البحر والبر بأعداد كبيرة مؤلفة من جيش فيليب أوغست ملك فرنسا ، وجيش أمير صور ، والألمان الذين كانوا وصلوا الى الساحل . وعززت هذه القوات بجيش ريتشارد قلب الأسد ملك انكلترا الذي وصل في ابان حصار مدينة عكا التي ظلت صامدة وصلاح الدين يدافع عنها ببسالة منقطعة النظير مدة عامين : ٥٨٥ – ٥٨٧ هـ (١١٨٩ – ١١٩١م) ولولا وصول النجدات للافرنج تلو النجدات عن طريق البحر ومساندة أسطولهم البحري لما تمكنوا من الاستيلاء على المدينة التي دخلوها على اطلال من الأنقاض .

وبعد سقوط عكا دب الخلاف بين ريتشارد ملك انكلترا وزميله ملك فرنسا أوغست فأبحر هذا عائدا الى بلاده ، وظل ريتشارد يحارب لتحقيق الهدف وهو استعادة بيت المقدس . ولكنه لم يتمكن رغم الانتصارات المحدودة التي حققها في الساحل .

صلح الرملة :

أدرك ريتشارد قلب الأسد أن التغلب على السلطان صلاح الدين حرباً لا يمكن تحقيقه ، فأوفد اليه مندوبين للتفاوض . واقترح ريتشارد ملك انكلترا زواج أخته الأميرة (جوانا) بالعادل أخي صلاح الدين على أن تكون القدس والمدن الساحلية له ، فرفض صلاح الدين ، وانتقل الى القدس حيث قام بتحصين المدينة . وعاد ريتشارد من جديد وأرسل مندوبين لاجراء مفاوضات انتهت بعقد صلح في بلدة الرملة سنة ٥٨٨ هـ (١١٩٢ م) ينص على أن يسمح للحجاج الفرنج بزيارة بيت المقدس . وأن تكون المنطقة الساحلية من صور إلى يافا بيد الفرنج . وبعد توقيع الاتفاق عاد ريتشارد ملك بريطانيا الى بلاده .

وفاة صلاح الدين :

عاد صلاح الدين الى دمشق بعد أن نظم الأمور في بيت المقدس وولى عليه عز الدين جورد بك ، وعين للقضاء بهاء الدين بن يوسف الشافعي . وفي دمشق

أصيب بالحمى فمات وهو في الخامسة والخمسين من عمره ـ سنة ٥٨٩ هـ (١١٩٣م) ودفن بجوار الجامع الأموي .

وكان صلاح الدين رجلاً عادلا ، وانساناً عظيماً ، وبطلاً مجاهداً ، حمل راية وحدة الشرق الاسلامي فحقق للشرق النصر العظيم .

استمرار الدولة الايوبية :

بعد وفاة صلاح الدين استمرت دولته قائمة ، ولكن ليس كما كانت في عهده . وفي هذه المرحلة التي دامت حتى ٦٤٨ هـ (١٢٥٠م) توالى على الحكم من البيت الأيوبي عدة ملوك كان من أبرزهم وأعظمهم شأناً هم :

١ ـ الملك العادل سيف الدين :

هو الذي تمكن بعد وفاة أخيه صلاح الدين أن يقضي على الفتن والمنازعات التي دبت في البيت الأيوبي ، ويبسط سلطته على بلاد الشام ومصر واليمن . وقد وجه اهتمامه لمقاومة مطامع الفرنج الصليبيين والحفاظ على سيادة الدولة ومركزها . ودام حكمه حتى توفي سنة ٦١٥ هـ (١٢١٨م).

٢ ـ الملك الكامل :

خلف أباه العادل ، قاوم الحملة الصليبية التي هاجمت مصر سنة ١٢١٩ م بقيادة (جان دو بارين) واندريه الثاني ملك هنغاريا . وحاول بعد أن استولت القوات الغازية على دمياط التوصل الى اقناع بارين وزميله بوقف الحرب والجلاء عن مصر : فعرض عليهما شروطاً سخية من ضمنها مئات الآلاف من الدنانير ولكنهما رفضا . وعندئذ أمر بقطع الجسور وتعويم الأرض بالمياه فأحاطت بقوات الفرنج ومعسكراتهم ، فاضطروا الى اخلاء المنطقة ، والاقلاع عن مغامرتهم التي كلفتهم أرواحاً وأموالاً ، وأبحروا راجعين الى بلادهم سنة ١٢٢١ م

وفي سنة ١٢٢٨ تعرض الشرق الى حملة عسكرية جديدة بقيادة فريدريك الثاني امبراطور ألمانيا . وكان هدفه الاستيلاء على مصر والمناطق التي كان صلاح الدين طرد منها الصليبيين بما فيها بيت المقدس . فدخل معه الملك الكامل في

مفاوضات انتهت بتوقيع اتفاقية نصت على تسليم القدس للامبراطور فريدريك . فأثار ذلك موجة سخط في جميع البلاد الاسلامية .

٣ ـ الملك الصالح أيوب :

هو الذي استرد بيت المقدس من الصليبيين بعد أن كان أمبراطور ألمانيا استولى عليها على عهد الملك الكامل . ولما شاع خبر استرداد المسلمين للقدس في أوروبا جهز ملك فرنسا لويس التاسع حملة عسكرية واتجه الى مصر ، فاستولى على مدينة دمياط سنة ١٢٤٩ م ، ومنها زحف على المنصورة واحتلها .

وبعد احتلال قوات الملك لويس المنصورة توفي الملك الصالح أيوب ، فأخفت زوجته شجرة الدر نبأ وفاته حتى يحضر ابنه توران شاه الذي كان غائباً عن مصر . ولما حضر توجه فوراً الى المنصورة على رأس قوة من الفرسان واشتبك مع الصليبيين في قتال عنيف . وقد انهارت مقاومة جيش الملك لويس ولم يعد يتمكن من الخروج من المنطقة التي طافت بمياه النيل الذي كان في أعلى ارتفاعه ، فغرق الكثير من جنوده وضباطه . ووقع ملك فرنسا في الأسر واقتيد الى دار لقمان في المنصورة حيث ظل النبلاء الذين كانوا معه حتى دفع الجزية ، (الفدية) ثم أطلق سراحهم جميعاً .

نهاية الدولة الأيوبية :

كانت نهاية هذه الدولة التي أسسها صلاح الدين سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١م) في انتزاع الملك من توران شاه ابن الملك الصالح أيوب وقتله في القاهرة سنة ٦٤٨ هـ (١٢٥٠م). وكان مقتله على يد نفر من زعماء المماليك بالاتفاق مع شجرة الدر زوجة الملك الصالح .

وقد قامت الدولة الأيوبية بأعمال جليلة تمثلت في الدفاع عن الاسلام ، والوقوف بوجه الحملات الصليبية واسترداد بيت المقدس والمناطق الأخرى التي كان الفرنج استولوا عليها قبل أن يتصدر صلاح الدين قيادة الشرق الاسلامي .

وفي عهد الأيوبيين ازدهرت الزراعة وراجت التجارة ، وانتشرت المدارس في مصر وبلاد الشام . وقد نبغ في عصرهم طائفة امن الأدباء ورجال القضاء .

دولة المماليك

قامت دولة المماليك في مصر بعد مقتل توران شاه . والمماليك أرقاء جلبهم ملوك الأيوبيين من بلاد القوقاس وتركستان . وقاموا بتعليمهم اللغة العربية ، وثقفوهم ، ودربوهم على فنون الحرب . وخرج منهم رجال قبضوا على مقاليد الحكم وأسسوا دولة دام حكمها أكثر من قرنين ونصف القرن .

وأقام المماليك في بداية حكمهم بمصر (شجرة الدر) ملكة عليهم . وكانت هذه مملوكة الأصل في قصر الملك الصالح أيوب ، فتزوجها وولدت له أبناً دعي خليل . وهي التي اتفقت مع بعض قواد الفرسان المماليك على قتل ابن زوجها توران شاه الذي اختلفت معه .

واختار المماليك (عز الدين أيبك التركماني) ليقوم بمساعدة الملكة شجرة الدر في ادارة الدولة . وقد تزوج ايبك من الملكة وتنازلت له عن السلطة ، ولقب بالملك المعز . وكانت نهاية شجرة الدر القتل على يد المماليك وسبب ذلك قتلها لزوجها ايبك الذي كان مضى على تسلمه السلطة سبع سنوات .

سلالة المماليك :

يقسم المماليك الى قسمين هما :

١ ــ المماليك البحريون : هم الذين اشتراهم الملك الصالح وأسكنهم جزيرة الروضة على النيل . ومن مشاهير دولتهم : ايبك ، والظاهر بيبرس ، والمنصور قلاوون ، والأشرف خليل . واستمرت دولتهم من عام ١٢٥٠ ــ ١٣٨٢ م.

٢ ــ المماليك البرجيون : هم الذين أقامهم السلطان قلاوون في أبراج قلعة القاهرة . وكان أول سلطان منهم الظاهر برقوق ، وآخرهم قانصوه الغوري .وحكمت دولتهم الى عام ١٥١٧ م ؛ تاريخ استيلاء الأتراك العثمانيين على مصر .

القضاء على معاقل الصليبيين

(بقيادة الظاهر بيبرس وقلاوون)

اتبع المماليك السياسة التي سار عليها سلاطين الدولة الأيوبية وقوامها الجهاد ضد الفرنج الصليبيين . وقد قام السلطان الظاهر بيبرس البندقداري الذي تولى الحكم سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م) بحملات عسكرية قادها بنفسه ، وانتزع من يد الفرنج بعد سلسلة من المعارك حصن الكرك الشهير سنة ٦٦٠ هـ ، والقيسارية وبعض القلاع سنة ٦٦٣ هـ . وفي سنة ٦٦٦ هـ استولى على يافا وقلعة الشقيف ، ثم على انطاكية وقلاعها في نفس السنة وبالتحديد في شهر رمضان . وفي سنة ٦٦٩ هـ استولى على صافيتا والمجدل وحصن الأكراد .

وعندما توفي الظاهر بيبرس في دمشق سنة٦٧٦هـ(١٢٧٧م) كانت معظم المدن والقلاع قد سقطت ولم يبق في أيدي الصليبيين من المدن الهامة سوى عكاوطرابلس وبعض القلاع على الساحل وفي حماة . وكان بيبرس رجلا شجاعاً وقائداً عظيماً اتصف بالشهامة وبعد النظر ، وحبه للخير . وقد أصلح الموانيء وحفر الأقنية ، وأنشأ عدة مدارس ومساجد في الشام ومصر . وهو الذي انتصر على التتر المغول في غزة وزحف السلطان المظفر قطز الى عين جالوت حيث أنزل بالمغول هزيمة فادحة (سنأتي على ذكر الغزو المغولي بالتفصيل فيما بعد).

وعلى غرار ما قام به بيبرس فقد استمر السلطان المنصور قلاوون الذي تسلم الحكم سنة ٦٧٨ هـ (١٢٧٩م) يحارب الصليبيين بشجاعة وحماس . فاستولى على حصن المرقب جنوبي شرقي بانياس سنة ٦٨٤ هـ وتلاه سقوط مدينة طرابلس بعد حصار دام شهراً سنة ٦٨٨ هـ .

وبسقوط طرابلس التي كان الصليبيون استولوا عليها سنة ١١٠٩ ميلادية لم يبق بيدهم سوى مدينة عكة المحصنة . فقام السلطان الأشرف خليل الذي تولى الحكم بعد وفاة والده المنصور قلاوون سنة ٦٨٩ هـ (١١٩٠ م) باعداد جيش زوده
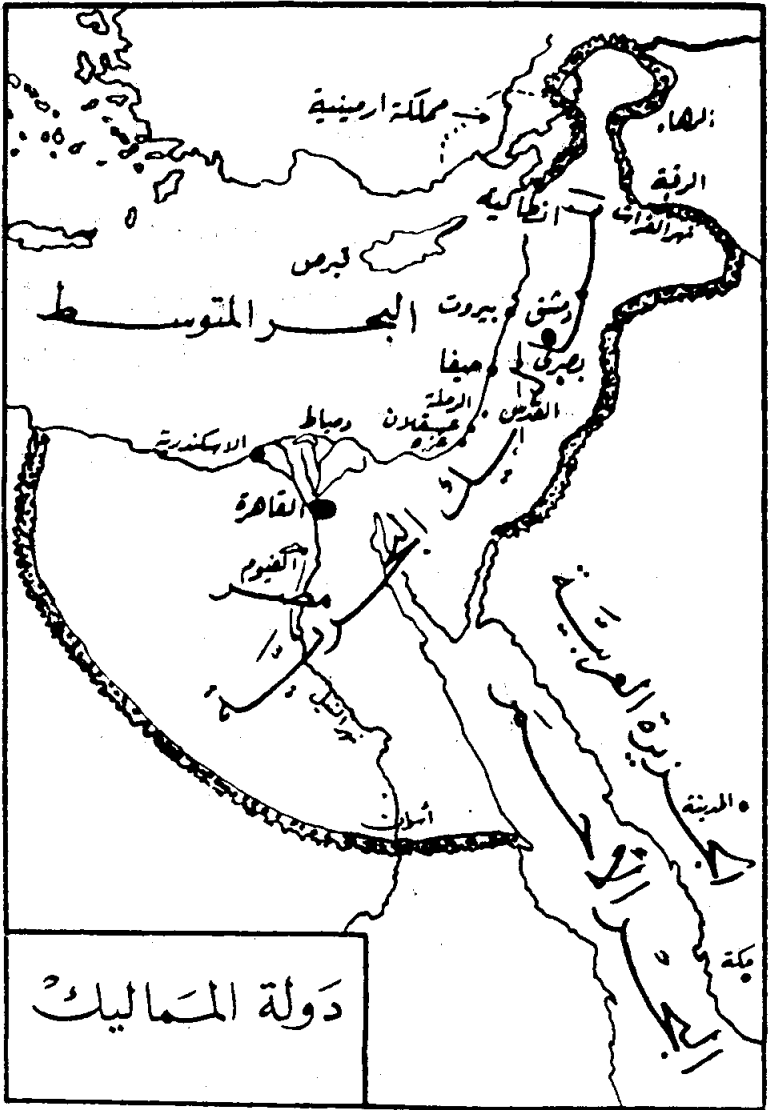
خريطة دولة الممالك

بآلات الحصار وزحف به الى عكا وشدد الحصار عليها حتى سقطت . كان ذلك سنة ٦٩٠ هـ (١١٩١م).

وهكذا تهاوت القلاع والحصون واستعاد المسلمون جميع المدن ، وطهرت البلاد من بقايا الفرنج الصليبيين، وطويت آخر صفحة من وجودهم في الشرق.

البلاد الاسلامية في عهد المماليك :

أفلح المماليك في تحرير المناطق التي كانت لا تزال بيد الصليبيين بعد سلسلة من المعارك انتصروا فيها على الفرنج وأجلوهم عن الشرق . كما تصدوا لغزو المغول الخطير الذي اجتاح فارس والعراق وبلاد الشام وهزموهم شر هزيمة في عين جالوت قرب بيسان وطردوهم من بلاد الشام .

وفي عهد دولة المماليك ازدهرت البلاد المصرية وازدادت ثروتها الاقتصادية . وقد اعتنى سلاطينها بالزراعة والصناعة والعلوم والعمران فأنشأوا المباني الكثيرة والقصور في القاهرة والاسكندرية ، وشيدوا المساجد والمدارس والمستشفيات ، نخص بالذكر منها المستشفى المنصوري الذي أقيم فيه بالاضافة الى الأجنحة الخاصة لمعالجة الأمراض مدرسة للطب استقدم لها أساتذة من مشاهير الأطباء في ذلك العصر . وبالاضافة الى ما قاموا به من أعمال جليلة فقد حاول السلطان الظاهر بيبرس احياء الخلافة العباسية ، فاستدعى أحد أبناء البيت العباسي الذي كان نجا من مذبحة هولاكو واسمه أبو القاسم الى مصر ، وبايعه الناس ولقب بالمستنصر . ثم أرسل بيبرس مع الخليفة قوة عسكرية ترافقه الى بغداد لاستردادها . وقبل وصوله الى العاصمة العباسية هاجمه المغول وقتلوه .

أما في عهد سلاطين دولة المماليك البرجية التي خلفت دولة المماليك البحرية عام ١٣٩٠ م واستمرت حتى انهارت على يد الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٧ م فقد نشطت الحركة التجارية وأثرى المماليك ثراءً كبيراً وغاصوا بالترف. ولزيادة دخلهم فقد فرضوا الضرائب الباهظة على الأهالي وخاصة التجارة .

وفي المرحلة الأخيرة من حكمهم ساءت الأحوال في مصر والشام ، وفقدت الدولةمورداً كبيراً كانت تعتمد عليه بسبب تحول طريق التجارة القديم الى الطريق البحري الجديد الذي اكتشفه سنة ١٤٩٧ م الملاح البرتغالي فاسكو دوغاما (١) حول رجاء الصالح . وبهذا التحول انتقلت الحركة التجارية من الموانىء المصرية والسورية ، فأفقد ذلك المماليك أهم مواردهم المالية ، وانهار الوضع الاقتصادي في البلاد ، ودخلت الدولة في دور الضعف والانحطاط ، ثم الانهيار .

---

(١) ان الذي ساعد فاسكو دوغاما للوصول إلى الهند وقاد سفنه اليها عبر المحيط الهندي هو البحار العربي شهاب الدين أحمد بن ماجد من مواليد جلفار (رأس الخيمة) .

الفصل الحادي عشر

البواعث على الحروب الصليبية
وأثرها في الغرب والشرق

تناولنا في الفصل العاشر الحروب التي دارت رحاها بين صلاح الدين الأيوبي والصليبيين ، واسترداده لبيت المقدس والمدن الساحلية بعد موقعة حطين التي هزت فيها جيوش الفرنج هزيمة ساحقة وأدت الى انهيار المملكة اللاتينية . وفي نهاية تلك الفترة التي دامت خمس سنوات لم يبق بيد الصليبيين سوى الساحل الضيق الممتد من صور الى يافا ، ومدينة طرابلس وانطاكية وبعض الحصون والقرى . وهذه بدورها سقطت جميعها في أيدي المسلمين الواحدة تلو الأخرى خلال المرحلة الأولى من حكم المماليك الذين تولوا مقاليد الأمور في مصر بعد مقتل توران شاه آخر سلاطين الدولة الأيوبية . وكانت نهاية الصليبيين في الشرق سنة ١٢٩١ م .

أما الأسباب التي دعت أوروبا لارسال حملات صليبية الى الشرق الاسلامي ، ونتائج تلك الحروب وأثرها في الغرب والشرق فهي استناداً على أوثق المصادر كما يلي :

بيزنطية تستنجد بالبابا لسد تيار السلاجقة :

عندما اكتسح السلاجقة آسيا الصغرى وشعر أمبراطور بيزنطية ديوجين بالخطر الذي يهدد كيان امبراطوريته استنجد بالبابا غريغوريوس السابع فكتب له يقول

مدعياً أن السلاجقة يعاملون الحجاج المسيحيين معاملة سيئة ، والطريق الى القدس براً أصبح عبوره خطراً على الحجاج الوافدين من أوروبا . ورأى البابا في دعوة الامبراطور البيزنطي فرصة سانحة لاعادة ضم الكنيسة الشرقية الارثوذكسية الى روما . وكان قد مضى على انفصالها عن سلطان البابوية ١٩ سنة . يعود تاريخه الى عهد ميخائيل كارولاريوس بطريرك القسطنطينية عام ١٠٥٠ ميلادية . وأراد البابا غريغوريوس القيام باعداد حملة من دول أوروبا للمساهمة مع بيزنطية في صد تيار السلاجقة واجلاء قواتهم عن آسيا الصغرى ، ولكن الخلاف الذي نشب بين البابا وهنري الرابع امبراطور ألمانيا حول السلطة الزمنية وتدخلها في شؤون السلطة الروحية حال دون تحقيق ما كان يهدف اليه البابا غريغوريوس .

وفي تلك الحقبة كان السلاجقة يشكلون قوة عسكرية هائلة ودولة شاسعة الاطراف . وهم ينتسبون الى (سلجوق) أحد زعماء قبائل الترك في بلاد تركستان . وفي بادىء الأمر استقروا في بخاري ، ثم انطلقوا الى الأقاليم المجاورة لبسط سيادتهم عليها ، فاستولى طغرل بك السلجوقي على بلاد خراسان سنة ٤٢٨ هـ (١٠٣٧ م) وتمركز فيها حيث بدأ يعد قواته للقضاء على دولة بني بويه التي كانت بسطت نفوذها في فارس والعراق منذ عام ٣٣٤ هـ (٩٤٥م) وقد ساعد طغرل بك النزاع الذي كان قائماً بين أبناء أسرة بني بويه على السلطة ، فزحف على فارس والعراق ودخل بغداد سنة ٤٤٧ هـ (١٠٥٥م). وبذلك قضى على الدولة البويهية ، وهيمن على الخلافة العباسية التي كانت في دور الضعف . وتربع السلاجقة على سدة السلطة ، ونمت دولتهم واتسعت في عهد (الب ارسلان) الذي استولى على حلب والحجاز ودخل بلاد الروم وهزم امبراطور بيزنطية رومانوس ديوجين في وقعة (ملازجرد) بأرمينيا سنة ١٠٧١ م وانتزع منه مناطق هامة في آسيا الصغرى .

الدعوة إلى حرب صليبية :

عادت بيزنطية تستغيث ، فوجه الامبراطور الكسيوس كومنينوس نداءً الى البابا أوربان الثاني يطلب فيه النجدة للوقوف بوجه السلاجقة الذين كانوا وصلوا

في زحفهم الى شواطىء بحر مرمرة، ودعم هذا النداء بترويج اشاعة في أوروبا تقول أن الحجاج المسيحيين يلقون اضطهاداً من السلاجقة. فتحمس البابا أوربان الثاني وألقى خطبة في ٢٦ تشرين الثاني – نوفمبر عام ١٠٩٥ م بمدينة كليرمون فيران الفرنسية دعا فيها ملوك أوروبا وشعوبها الى انتزاع الأرض المقدسة بفلسطين من أيدي المسلمين .

وهكذا استجاب البابا لنداء امبراطور بيزنطية وقام يحث ملوك أوروبا ويدعوهم الى ارسال حملة صليبية الى الشرق آملا بذلك استعادة سلطة البابوية على كنيسة القسطنطينية وضمها الى روما ، واعلاء نفوذها وسلطانها .

الأهداف والمطامع :

رأى ملوك أوروبا والنبلاء وأصحاب الاقطاعات في تحقيق دعوة البابا فرصة سانحة لجني المكاسب وجمع الثروات من الشرق ، وتأسيس امارات لهم فيه وبالوقت ذاته للتخلص من الأزمة الاقتصادية التي كانت تعانيها بلادهم والتي كان سببها الحروب الداخلية .

تلك هي الدوافع التي هيمنت على أولئك الذين قادوا الحملات الصليبية . والذين أسهموا فيها كتجار امارات البندقية وجنوى وبيزا الايطالية للسيطرة على حركة التجارة في الشرق . علماً بأن هذه الامارات قدمت السفن لنقل الجيوش الصليبية التي كانت تحشد في الموانىء . أما العامل الديني الذي ألهب شعاره عاطفة الجماهير وحماسها في أوروبا فقد اتخذه أصحاب المصالح ستاراً لتحقيق المطامع الدنيوية في مختلف صورها .

مراحل الحملات الصليبية :

في المرحلة الأولى تجمعت الحشود الهائلة من الفرنج في مدينة القسطنطينية سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٧م)، معظمهم من الفرنسيين الذين كان يطلق عليهم اسم فرانك أي الفرنجة ، ومن النورمنديين . واسم فرنجة يطلق فيما بعد على الأوروبيين جميعاً . وكان هؤلاء يحملون على صدورهم اشارة الصليب فعرفوا باسم الصليبيين .

الحملة الأولى :

كانت الحملة الصليبية الأولى تتألف من أربعة جيوش اقطاعية بقيادة امراء من عدة مقاطعات هم :

بودوان دوهانو غود فروى دو بويون	جيش اللورين والألمان
الكونت دو فيرماندوي الدوق دو نورماندي	جيش الشمال الفرنسي
الكونت ريموند دو تولوز أديمار دومونتي	جيش الجنوب الفرنسي
تانكريد دوهوتفيل بوهيموند دو تارانت	جيش النورمان الايطالي

وقد قدم الأمبراطور البيزنطي الكسيوس كومنينوس الى الجيوش الصليبية المؤن والعتاد . وتعهد له القواد الأمراء بأن يسلموه المناطق التي يستولوا عليها في آسيا الصغرى التابعة للسلاجقة .

وعندما تحرك الصليبيون وزحفوا على بلاد الشام وفلسطين لم تكن هناك جبهة اسلامية موحدة في الشرق الذي كان يعاني عهدئذ التفكك والانقسام . ففي العراق كان أمراء السلاجقة يتنازعون على الملك . وفي بلاد الشام التي استقل فيها الأتابكة لما أصاب الدولة السلجوقية التفكك لم يكن بين حكامها والسلاجقة رابطة تعاون ووفاق . وفي مصر كانت الدولة الفاطمية في دور الضعف الشديد والتنازع بين القواد على السلطة .

وعبرت الجيوش الصليبية الأناضول واستولت على المدن والقرى التي في طريقها الى بلاد الشام . وحاول الأمير السلجوقي قليج ارسلان التصدي لها ولكنه لم يتمكن لكثرة أعدادها التي لا تقارن بجيشه المحدود العدد والعتاد . ثم تابعت سيرها

وتقدمت بعض الفيالق باتجاه الرها واحتلتها سنة ١٠٩٨ م بينما حاصر جيش النورمان انطاكية التي صمدت عدة أشهر بفضل مناعة حصونها واستبسال أميرها رضوان السلجوقي . والذي ساعد الصليبيين على اقتحامها هو خيانة أحد الأرمن من حراس الأبراج ، وعدم وصول أية نجدات من أمراء السلاجقة . وكان سقوط انطاكية وطرسوس وما جاورهما من حصون سنة ١٠٩٨ م

ثم واصلوا زحفهم حتى القدس فحاصروها وشددوا عليها الحصار شهراً ونيفاً . وفي شهر تموز سنة ١٠٩٩ م دخلوا المدينة وانقضوا على سكانها قتلا وتنكيلا دون تمييز حتى امتلأت الأزقة والشوارع بجثث القتلى .

وكانت نتيجة هذه الحملة الصليبية الأولى توطيد أقدام الفرنج في الشرق وقيام مملكة بيت المقدس ، وامارة الرها ، وامارة انطاكية . ثم امارة طرابلس التي استولوا عليها سنة ١١٠٩ . وفي المرحلة الأولى اختاروا غود فروى دو بويون حاكماً وحامياً للقدس ولكنه توفي بعد سنة . فنادوا بأخيه (بولدوين) أمير الرها ملكاً عام ١١٠٠ م. وبذلك أصبحت القدس مملكة تشمل رعايتها الامارات اللاتينية الأخرى التي كان يتولى مقاليد الأمور فيها أمراء كل منهم مستقل بادارة امارته . وقد تولى امارة انطاكية الأمير بوهيموند ، وامارة طرابلس الأمير دوتولوز ابن الأمير ريموند الذي كان أحد قواد الحملة الصليبية وتوفي قبل احتلال الصليبيين لمدينة طرابلس .

وقد أسهمت أساطيل امارات ايطاليا البحرية في استيلاء الفرنج على موانيء بلاد الشام الواقعة على البحر المتوسط فساعد ذلك بولدوين ملك القدس على توسيع مملكته وتأمين المواصلات مع أوروبا . والسيطرة على حركة التجارة بالاشتراك مع جنوى والبندقية . وقد حاول بولدوين بعد أن أصبح في مركز القوة الاستيلاء على مصر ولكنه فشل .

الحملة الثانية :

في أعقاب استرداد المسلمين للرها على يد عماد الدين زنكي أمير الموصل الذي قام بمهاجمة الامارة الصليبية واجلاء الفرنج عنها سنة ٥٣٨ ﻫ (١١٤٤م). تحركت

أوروبا لنجدة وحماية الامارات الصليبية في الشرق . فقامت الحملة الصليبية الثانية سنة ١١٤٧ م بقيادة كونراد الثالث امبراطور ألمانيا ، ولويس السابع ملك فرنسا ، واتجهت الى الشام وحاصرت دمشق . ولكنها فشلت في اقتحامها بفضل استبسال حماتها والنجدات التي أرسلها نور الدين زنكي من حلب . وبذلك سجل الجهاد الإسلامي الانتصار الثاني أمام أبواب دمشق بعد الانتصار الأول في الرها .

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية وتقهقرت أمام صمود المسلمين وقوتهم المستمدة من الايمان واليقظة الاسلامية . وعاد الامبراطور كونراد الى المانيا وتبعه صديقه ملك فرنسا لويس السابع يحمل كل منهما أذيال الخيبة.

الحملة الثالثة :

كانت أقوى الحملات الصليبية من حيث التنظيم وعدد الجنود المدربة ووفرة العتاد . وقد اشترك فيها أعظم ملوك أوروبا : (ريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا ، وفيليب أوغست ملك فرنسا ، وفريدريك بربروسا امبراطور ألمانيا). وهذا الأخير غرق وهو يعبر نهراً في كيليكية .

وهذه الحملة اتجهت الى الشرق في أعقاب هزيمة الصليبيين في موقعة حطين واسترداد صلاح الدين الأيوبي لبيت المقدس سنة ١١٨٧م . ولم يستطع ملوك أوروبا انتزاع القدس من صلاح الدين ، واضطروا في النهاية الى عقد صلح معه بعد حرب استمرت من عام ١١٨٩ الى عام ١١٩٢م . «أتينا على ذكرها مفصلا في الفصل العاشر ـ الدولة الأيوبية وحروب صلاح الدين مع الصليبيين والانتصارات العظيمة التي حققها .»

الحملة الرابعة والخامسة :

وفي أعقاب الحملة الثالثة أعد الأمير بونيفاس دومونفيرا الايطالي وصديقه الأمير بودوان دوفلاندر الفرنسي حملة صليبية للتوجه الى فلسطين ، فوصلت

القسطنطينية سنة ١٢٠٣ حيث أعادت الى العرش اسحق الثاني امبراطور بيزنطية الذي كان خلع . وقبل أن تواصل الحملة الصليبية طريقها الى الشرق قامت حركة في القسطنطينية ضد الامبراطور اسحق انتهت بخلعه وتنصيب الأمير بودوان قائد الحملة على العرش ولقب امبراطور المملكة اللاتينية في الشرق . أما صديقه الأمير بونيفاس فأنشأ امارة في سالونيك واستقر فيها . وبذلك اكتفى بما حصل عليه كل من قائدي الحملة الصليبية الرابعة وتوقفت الحملة عن مواصلة سيرها الى الشرق .

ثم قامت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة جان بارين واندريه الثاني ملك هنغاريا ونزلت في مصر من البحر سنة ١٢١٩ م ، ولكنها فشلت في تحقيق أهدافها وجلت عن البلاد سنة ١٢٢١ م (أتينا على ذكرها في الفصل العاشر – دولة المماليك – عهد الملك الكامل).

الحملة السادسة والسابعة :

وفي سنة ١٢٢٨ قاد فريدريك الثاني امبراطور ألمانيا حملة صليبية، استطاع بعد مفاوضات من توقيع اتفاقية مع الملك الكامل تسلم بمقتضاها بيت المقدس . وبعد وفاة الكامل استرد ابنه الملك الصالح أيوب القدس من الصليبيين . (أتينا على ذكره في الفصل العاشر – دولة المماليك – عهد الملك الكامل وابنه الملك الصالح أيوب).

وقامت الحملة الصليبية السابعة قادها بحراً الى مصر لويس التاسع ملك فرنسا سنة ١٢٤٨ ، كان مصيرها الهزيمة الساحقة ووقوع الملك في الأسر بمدينة المنصورة سنة ١٢٤٩ ، ثم أطلق سراحه . (أتينا على ذكره في الفصل العاشر – دولة المماليك – عهد الملك الصالح أيوب .

وهناك حملة صليبية ثامنة أعدها لويس التاسع ملك فرنسا بعد أن كان مضى على حملته السابعة ٢٢ سنة وسار بها الى تونس سنة ١٢٧٠م وحاصر قرطجنة ولكنه فشل ، وتوفي على أثر اصابته بمرض الطاعون الذي تفشى في جيشه وقضى على قسم كبير منه .

أثر الحروب الصليبية في الغرب والشرق :

عندما قامت أوروبا بحملاتها الصليبية كانت متأخرة علمياً واجتماعياً واقتصادياً. فساعدها الاتصال المباشر بالشرق الاسلامي الغني بتراثه الحضاري وثرواته الاقتصادية والعلوم والفنون على التطور والتقدم .

أجل إن الحروب الصليبية تركت أثراً بالغ الأهمية في أوروبا تمثل في الفوائد والمكاسب التي جنتها من الشرق خلال القرنين السادس والسابع هجري — الثاني عشر والثالث عشر ميلادي . وفيما يلي خلاصة ما اقتبسه الفرنج ونقلوه الى بلادهم :

١ — نقلوا الكتب العربية في الطب والفلك والهندسة وقام بترجمتها العلماء في أوروبا .

٢ — تعلموا طريقة التداوي والمعالجة في المصحات والمستشفيات (البيمارستانات . فبدأوا في القرن الثاني عشر ميلادي بانشاء دور المصحات والمستشفيات في أوروبا .

٣ — نقلوا عدة أنواع من نباتات الشرق وعمموا زراعتها في بلادهم مثل الأرز والسمسم والذرة وقصب السكر والبطيخ والمشمش والليمون .. الخ .

٤ — اقتبسوا وتعلموا استخدام الحمام الزاجل لنقل المعلومات الحربية ، وفن الحصار وصناعة القذائف المحرقة والقوس .

٥ — اكتسب الصليبيون الأذواق الشرقية خاصة أدوات الزينة والروائح العطرية . واستعمال التوابل في أنواع الطعام ، واستخدام السكر لصنع الحلويات . وارتدى الرجال الملابس الشرقية الملائمة لطبيعة البلاد ، والنساء الأزياء العربية المزركشة .

٦ — ازدهرت الحركة التجارية ، وفاضت أسواق أوروبا بخيرات الشرق ومنتجاته كالمنسوجات والسجاد والزجاج والأواني .. الخ .

أما بالنسبة للشرق الاسلامي المزدهر فلم يستفد من أوروبا المتأخرة في تلك العصور شيئاً . بدليل لم يكن عندها من العلوم والفلسفة والفنون والابتكارات والصناعات لينقلها أبناء الشرق الذي أمد عالم الغرب بانتاجه الحضاري العلمي والثقافي أيام كان غائصاً في ظلام القرون الوسطى .

وخلاصة القول أن الأثر الذي أحدثته الحروب الصليبية في الشرق تمثل في وثبة التضامن الاسلامي لمجابهة جحافل أوروبا ومقاومة خطرها . وبفضل هذا التضامن الذي اتخذ شعاره الجهاد في سبيل الله ونصرة الاسلام تحقق النصر العظيم تحقق النصر وتحررت البلاد من الفرنج الصليبيين .
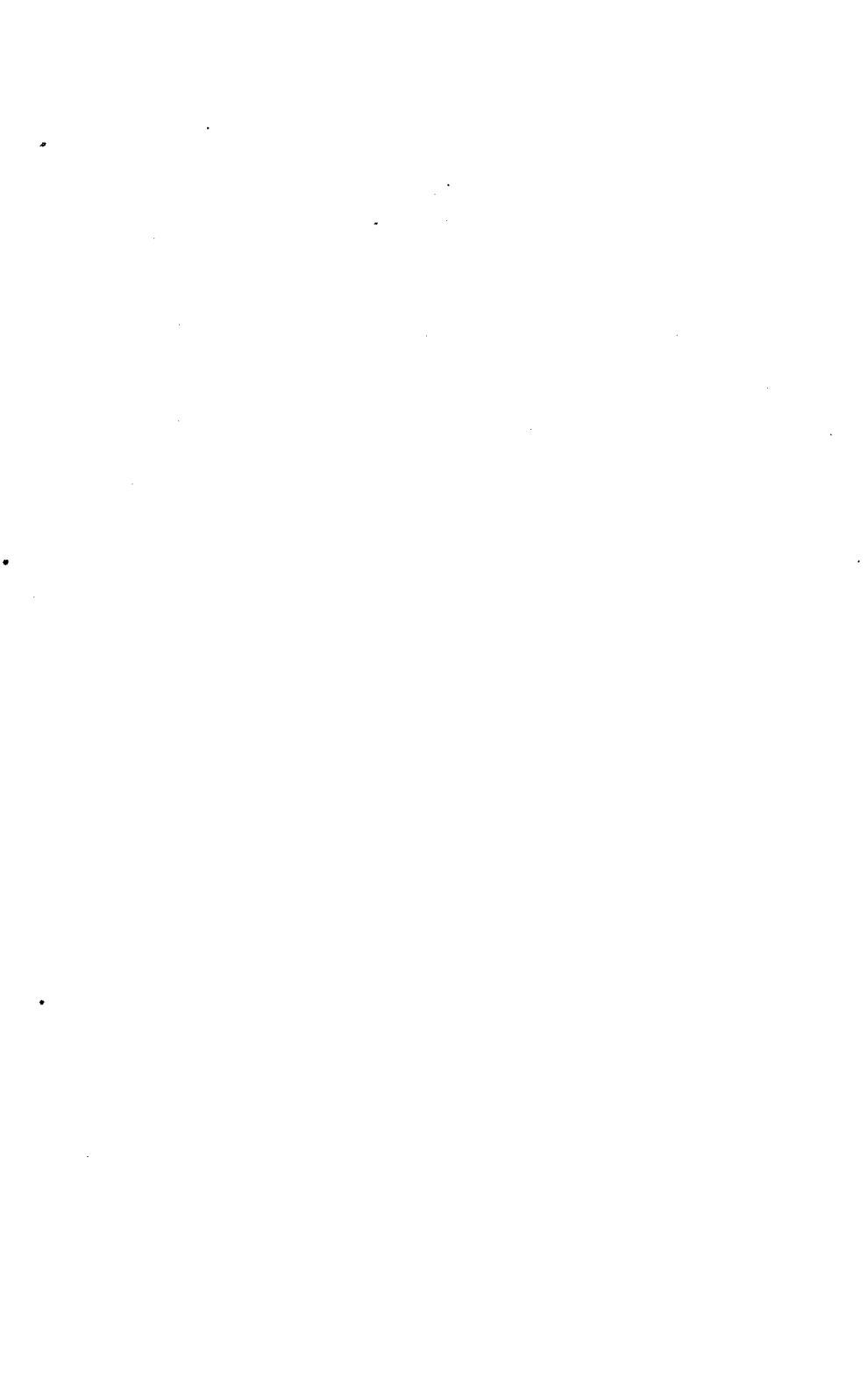
الفصل الثاني عشر

الغـزو المغولي

أصل المغول وموطنهم :

المغول هم من أواسط آسيا ، موطنهم منغوليا ، يشكلون مجموعات كبيرة من القبائل عرفت بالقسوة والشراسة وعدم الاستقرار . وظلت تعيش قروناً طويلة متنقلة في مناطق شاسعة تمتد من منشوريا حتى تخوم تركستان . وكانت ترهب جيرانها بغاراتها العنيفة التي تشنها عليهم بقصد النهب والسلب والبطش .

وفي أوائل القرن الثالث عشر الميلادي قام (تيموجين) أحد زعماء قبائل المغول بتوحيد جميع هذه القبائل تحت سلطانه ، وسمي (جنكيز خان) أي الحاكم الأعظم . واتخذ مدينة (قرة قورم) الواقعة على نهر أرخون بمنغوليا عاصمة لدولته التي أقامها على أساس نظم عسكرية سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦م).

اجتياح الصين :

بعد أن أنشأ جيشاً قوياً انقض جينكيز خان على جارته الصين التي كان حكامها قد أقاموا لحمايتها من الغارات الخارجية حصوناً في المنطقة الشمالية المتاخمة لمنغوليا ، ولكنها لم تصمد أمام هجوم جحافل جنكيز خان ، فتهاوت وسقطت المناطق الشمالية في أيدي المغول ، ودخل جنكيز خان بكين على اشلاء من القتلى

والدمار . وكانت تحكم الصين آنذاك أسرة (سونغ) التي حققت وحدة هذه البلاد الشاسعة سنةم٩٦٠ بعد أن كانت مجزأة الى عدة أجزاء ومقاطعات كل منها خاضعة لحكم أسرة مستقلة .

وهكذا تمكن المغول من الاستيلاء على شمال الصين والأجزاء الشرقية في المرحلة الأولى من غزوهم لها الذي بدأ سنة ١٢١٢ م . ثم امتد نفوذهم الى أجزاء أخرى ، وفي النهاية سيطروا على بلاد الصين .

هجوم المغول على البلاد الاسلامية

لم يكد ينتهي جنكيز خان من اخضاع القسم الأكبر من بلاد الصين حتى تحول لغزو البلاد الاسلامية . فبدأ بدولة الخوارزم في تركستان التي كانت استقلت عن الخلافة العباسية وبسطت سيادتها على بلاد ما وراء النهر . وأصل حكامها من اقليم خوارزم الواقع على نهر أمود اريا (جيحون) ،ومن أشهرهم السلطان علاء الدين خوارزم شاه الرجل القوي الذي اتسعت في عهده الدولة الخوارزمية وقوي مركزها ونفوذهـــا .

واتخذ جنكيز خان حادث القاء القبض على بعض تجار من المغول وقتلهم في خراسان ذريعة لاجتياح بلاد ما وراء النهر ، وأرسل يهدد السلطان علاء الدين خوارزم ويأمره بالخضوع والاستسلام . فرفض وأعد قواته لمواجهة المغول .

الدمار والمذابح في تركستان وخراسان :

لم يتمكن جيش الخوارزم من الصمود طويلاً أمام قوات المغول الزاحفة حتى انهار وهلك معظمه ، وفر السلطان علاء الدين الى بلاد قزوين . واندفع جنكيز خان بجيوشه الى مدينة بخاري الزاهرة فاقتحمها وقتل أهلها ثم قام بحرق الجوامع والمدارس والمنازل . ومنها واصل سيره الى مدينة سمرقند والمدن الأخرى فأعمل المذابح الوحشية في سكانها ودمرها .

وما كاد يمر عام ٦١٧ هـ (١٢٢٠م) حتى سقطت بلاد تركستان في قبضة جنكيز خان . وتلتها خراسان وأذربيجان وبعض مدن فارس سنة ٦١٨ — ٦١٩هـ حيث عمها الدمار والنهب والمذابح الرهيبة .

ذلك ما فعله المغول في اجتياحهم لهذه البلاد الاسلامية بقيادة ملكهم جنكيز خان الذي توفي بعد عودته الى عاصمته قرة قورم بمنغوليا سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) وخلفه ابنه تولي .

زحف المغول على العراق والشام :

بعد أن توطد حكم المغول في البلاد التي اكتسحوها وقضوا على العمران والحضارة فيها جددوا غاراتهم على البلاد الاسلامية بقيادة (هولاكو) بن تولي ابن جنكيز خان . وكان في عنفه وبطشه كجده الذي لم يدخل بلدا الا وخربها ، وعلى منواله سار غازياً سفاحاً بجيش جرار الى فارس والعراق والشام . واجتاح بلاد فارس ، ونهب وأحرق المدن والقرى التي مرت فيها جحافله وهي في طريقها الى بغداد . ولما وصل الى همدان أرسل خطاباً الى الخليفة المستعصم بالله يدعوه الى التسليم ، فأبى وأمر قواده بالاستعداد للحرب . وكان وزير الخليفة ، مؤيد الدين محمد بن العلقمي يعمل في الخفاء ضد الخليفة ، وتبين فيما بعد بأنه كان على اتصال بالمغول [1] .

سقوط بغداد :

حاصر هولاكو بغداد في شهر محرم سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨م) بجيشه البالغ عدده نحو ٢٠٠ ألف مقاتل . وظل يدك أسوارها بالمنجنيق من الناحية الغربية والشرقية حتى انهار بعض اجزاء منها . وعندئذ أوفد الخليفة بالاتفاق مع أعيان المدينة وزيره

---

(١) أكد بعض المؤرخين منهم عماد الدين ابن عمر بن كثير القرشي في (الجزء الثاني عشر من كتابه البداية والنهاية) ان الوزير محمد بن العلقمي عمل على تصفية جيش الخليفة العباسي حيث ظل يسرح ضباطه وجنوده حتى أفقده قوته ، ثم كاتب المغول وسهل لهم اجتياح البلاد .

ابن العلقمي ليطلب الصلح من هولاكو وتسليم بغداد له على شرط أن يؤمن للخليفة والسكان على أرواحهم وأملاكهم وأموالهم . فوافق القائد المغولي ولكن كان ذلك خدعة . فبعد أن دخل المدينة قتل الخليفة وولديه أحمد وعبد الرحمن . ثم نهبها وأباحها لجنده فخربوها وظلوا يقتلون أهلها أياماً وليالي ، ويستبيحون كل شيء .. ومن بين الذين قتلوا في تلك المذابح الرهيبة الأمراء والعلماء ورجال الدولة والأئمة وخطباء المساجد وحملة القرآن . ولم ينج من كبار القوم وأعيان المدينة إلا البعض الذين التجأوا الى دار الوزير ابن العلقمي المرضي عنه من هولاكو .

وباستيلاء المغول على العراق وقتلهم للخليفة المستعصم بالله زالت الخلافة العباسية بعد حكم دام خمسة قرون وربع القرن كان بدايته سنة ١٣٢ هـ وآخره سنة ٦٥٦هـ (٧٥٠ – ١٢٥٨م). وكان الخليفة المستعصم هو السابع والثلاثين من خلفاء بني العباس وآخرهم .

سقوط حلب ودمشق :

تحول هولاكو بعد أن سيطر على فارس والعراق لغزو بلاد الشام والأقاليم الأخرى التي كانت تحت حكم دولة المماليك . وأرسل ابنه اشموط على رأس جيش ليمهد له الطريق ، فاستولى سنة ٦٥٧ هـ على بلاد الجزيرة ونهبها وخرب مدنها وقراها ، ثم اندفع في اتجاه حلب حتى وصل الى موقع قريب منها . فتوقف حتى وصل هولاكو . وفي شهر صفر سنة ٦٥٨ هـ أطبق المغول على حلب وحاصروها عدة أيام ، ثم أعطى هولاكو الأمان لأهلها ولكنه غدر بهم بعد أن فتحوا له أبواب المدينة وقتل كثيراً منهم ونهب أموالهم .

ومن حلب أرسل هولاكو جيشاً الى دمشق بقيادة أحد كبار قواده واسمه كتبغا ، فاحتلها في أواخر شهر صفر الذي تم في العاشر منه سقوط حلب . ودمر المغول القلعة وخربوا بعض القصور والمساجد ، ونهبوا ، وقتلوا النقيب جمال الدين ابن الصيرفي الحلبي ومعه جماعة من وجهاء المسلمين .

وحاول هولاكو ارهاب المظفر سيف الدين قطز سلطان دولة المماليك في مصر ، فبعث له من حلب رسالة تهديد ، ويطلب منه التسليم والطاعة .. فاغتاظ السلطان قطز غضبا وعزم على مجابهة المغول وقتالهم . وفي تلك الأثناء بلغ هولاكو موت أخيه الخاقان الأكبر فعاد الى فارس وأناب عنه في بلاد الشام القائد المغولي كتبغا . وبعد ذلك بخمس سنوات توفي هولاكو عام ١٢٦٥ م .

هزيمة المغول في عين جالوت

كان هدف المغول بعد أن استولوا على بلاد الشام الزحف الى مصر البلد الاسلامي الذي سبق وقاوم ببسالة حملات الفرنج الصليبيين الخامسة والسابعة وهزمها وانتصر عليها في عهد الدولة الأيوبية (أتينا على ذكرها في الفصل العاشر).

وقام السلطان المظفر قطز باعداد الجيوش لقتال المغول الذين كانوا توغلوا في زحفهم حتى وصلوا الى ساحل غزة . وانطلقت القوات الاسلامية لملاقاة العدو السفاك الجبار ، وكان من بينها الكتائب التي انسحبت من الشام أمام هجوم المغول وجاءت الى مصر . وعلى بعد خمسين كيلو متراً من غزة اشتبكت طلائع من الجيوش الاسلامية بقيادة الأمير بيبرس البندقداري بالمغول الذين كانوا تمركزوا في تلك المنطقة وسجلت الانتصار الأول على الغزاة ، ثم واصل بيبرس تقدمه وفقاً للخطة المرسومة. وبالوقت ذاته كانت تزحف القوات الاسلامية الرئيسية بقيادة السلطان المظفر سيف الدين قطز . عبر فلسطين الى الشام وعند (عين جالوت) على مقربة من مدينة بيسان بفلسطين دارت رحى المعركة الكبرى في شهر رمضان المبارك سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠م) هزمت فيها قوات المغول شر هزيمة وقتل أميرهم كتبغا .واستمر الجيش الاسلامي يطارد الفلول الهاربة حتى وصلوا دمشق فاستردها في ٢٧ رمضان . ومنها واصل الأمير بيبرس سيره الى حلب وطرد منها المغول . وبذلك تحررت بلاد الشام من الغزاة المدمرين . وعادت اليها الحياة الطبيعية والأمن والاستقرار . وتلى ذلك فترة امتازت بالنمو والازدهار وتنظيم دوائر العدل برئاسة قاضي القضاة حسام الدين الحنفي الذي أوفده السلطان قلاوون .

توقف الزحف المغولي وتحرير الشام :

تعتبر معركة عين جالوت من الوقائع التاريخية الحاسمة . فقد هزم فيها المغول الغزاة لأول مرة منذ ظهور جنكيز خان واجتياحه للصين وتركستان وخراسان . واكتساح حفيده هولاكو فارس والعراق وسوريا . ذلك لأن النصر العظيم الذي حققه الجيش الاسلامي في موقعة عين جالوت قد أوقف الزحف المغولي الكاسح . وأنقذ الحضارة الاسلامية ، وحمى أقطار البحر المتوسط من دمار المغول الرهيب .. تلك كانت نتائج هذه المعركة الفاصلة التي غيرت وجه التاريخ . ومحت من أذهان الشعوب الأسطورة القائلة : ان المغول لا يغلبون ..

ظهور تيمورلنك واجتياحه لبلدان آسيا

بعد مائة وعشرين سنة مضت على اندحار المغول وطردهم من بلاد الشام ظهر تيمور لنك الملك المغولي الذي قام بسلسلة حملات متواصلة لاعادة تثبيت دعائم الامبراطورية التي أسسها جنكيز خان على أنقاض الممالك التي اجتاحها .

واتخذ تيمورلنك مدينة سمرقند عاصمة له. وأخذ يعد جيوشاً جرارة لاكتساح بلدان آسيا . وكانت وقتذاك آسيا الصغرى وشمال البلقان تحت حكم الدولة العثمانية التي أسسها عثمان بن ارطغرل. (سنأتي على ذكرها مفصلا فيما بعد).

وبدأ تيمورلنك هجومه سنة ٧٨٢هـ (١٣٨٠م) على فارس وخراسان وأذربيجان واحتلها بعد سلسلة من الغارات العنيفة المتواصلة ثم اتجه الى العراق سنة ١٣٩٣م وأعمل في مدنها وخاصة بغداد وتكريت النهب والتقتيل .

وفي سنة ١٣٩٥ م زحف تيمور لنك بجيش جرار شمالا عبر ((سهوب القرغيز والأورال) حتى وصل الى موسكو واحتلها وأقام فيها أربعة عشر شهراً . وقبل أن يتركها ويعود الى سمرقند حمل معه الأموال والأشياء الثمينة وخلافها .

ثم اتجه في سنة ١٣٨٩ م الى الهند وغزا المناطق الشمالية ودخل دلهي بعد حصار

وقتال عنيف . وقد انتقم من أهلها وقتل منهم أعداداً هائلة وخرب المدينة .

وجاء دور بلاد الشام التي كانت لا تزال تحت حكم دولة المماليك ، فهاجمها بقوات كبيرة سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠١م) ودخل حلب ونهبها وأباحها لجنده . ومنها واصل زحفه السريع الخاطف الى دمشق فقاومته شهراً ونيفاً ، وأخيراً استسلمت ودخلها ، وأحرق قصورها والجامع الأموي ونهبها وسلبها .

وتحول تيمورلنك الى آسيا الصغرى ، واشتبك مع القوات العثمانية في معركة عنيفة قرب أنقرة وقضى على معظمها وأخذ السلطان بايزيد العثماني أسيراً في تموز – يوليو سنة ١٤٠٢ م ، ثم سار الى مدينة بورصة العاصمة ونهبها وخربها ، وأيضاً مدينة أزمير وغيرها من المدن العثمانية .

وعاد تيمورلنك الى سمرقند ومعه السلطان العثماني بايزيد أسيراً في قفص من حديد . وبعد عامين زحف على الصين ولكنه توفي قبل أن يصل الى المنطقة الشمالية . وبذلك أخمدت نيران موجة الغزو المغولي الثالثة بموت تيمورلنك سنة ١٤٠٥ م .

وخلف عثمان بعد وفاته ابنه (أورخان) سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٦م) فحذا حذو أبيه في التوسع وتقوية امارته التي ازدهرت في عهده ووطدت مركزها في آسيا الصغرى .

التحول من امارة إلى دولة :

أصبحت الامارة العثمانية بعد أن اتسعت أملاكها دولة اتخذت في المرحلة الأولى من تأسيسها مدينة بورصق (بروسه) عاصمة لها .. ووجه السلطان أورخان الرجل القدير اهتمامه الى التنظيم الداخلي وتقوية الجيش لمتابعة فتوحاته . فأنشأ عدة فيالق عسكرية أطلق عليها اسم ياني شريه أي الجنود الجدد . ثم تابع توسيع مملكته في المناطق البيزنطية الأوروبية ، فاستولى على جزيرة غاليبولي ، وعلى مدينة درنة الهامة .

وعندما توفي أورخان سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩م) كانت الدولة العثمانية الفتية في مركز قوي ساعد مراد الأول الذي خلف والده على الاستمرار في الفتوحات . وكان السلطان مراد شجاعا وماهرا في فنون الحرب . فنقل عاصمة الدولة الى ادرنة سنة ١٣٦٢ م ، ومنها بدأ في حملات مركزة للامتداد عبر البلقان ، فاستولى على سالونيك والمنطقة المجاورة لها .

العثمانيون يهزمون حكام البلقان :

خشيت دول البلقان من وجود الدولة العثمانية ونمو قوتها ، فتحالفت ضدها لتقضي عليها . وبقيادة ملك صربيا جهزت الجيوش المتحالفة من الصربيين والبلغاريين والمجريين ، وسارت لقتال العثمانيين وتصفية دولتهم . وفي كسوف (قوصوى) دارت المعركة بين الجيش العثماني بقيادة مراد الأول والجيوش البلقانية بقيادة ملك صربيا سنة ١٣٨٩ م ، قتل فيها السلطان مراد ، وتولى ابنه بايزيد القيادة ، وظل يواصل المعركة حتى انتهت بدحر القوات البلقانية وأسر ملك صربيا وقتله . وبهذا الانتصار قوي مركز الدولة العثمانية وتوطدت أقدامها في البلقان.

الفصل الثالث عشر

الدولة العثمانية

منشأ الأتراك وقيام دولتهم :

ينتسب الأتراك العثمانيون الى احدى قبائل الغز التركية من القيرغيز في بلاد تركستان . وعندما اجتاح المغول تركستان لجأت هذه القبيلة التركية الى جنوب القوقاس حيث تكثر المراعي الخصبة في سهول وهضاب ارمينيا . وبعد أن استقرت فيها فترة من الزمن توفي أثناءها زعيمها سليمان وتسلم قيادتها ابنه (ارطغرل) نزحت الى شمال بلاد الأناضول (آسيا الصغرى) التي كانت آنذاك تحت حكم السلطان السلجوقي علاء الدين الثاني . وقد اشترك ارطغرل في صد غارات الأعداء على الأناضول . فكافأه السلطان علاء الدين باقطاعه منطقة (اسكي شهر) المتاخمة لحدود الدولة البيزنطية .

وفي سنة ٦٨٧ ﻫ (١٢٨٨ م) توفي ارطغرل وخلفه ابنه (عثمان) الذي تنتسب اليه الدولة العثمانية التي قامت بجهوده وجهود الذين خلفوه من سلالة بني عثمان .

وكان عثمان ابن أرطغرل شاباً شجاعاً وطموحاً . فقام بحركة توسعية استهلها في استيلائه على جزء كبير من منطقة بيثينا البيزنطية الواقعة على البحر الأسود . ثم واصل غاراته على المدن البيزنطية المجاورة لامارته وتمكن من فتح بعضها وضمها الى ملكه .

هجوم المغول ونتائجه :

لم تنج الدولة العثمانية من غارات تيمور لنك المدمرة . فقد هاجمها سنة ١٤٠٢ م ، وقضى على معظم الجيش العثماني عند أنقرة وأسر السلطان بايزيد ، ونهب وخرب ممتلكات العثمانيين في آسيا الصغرى.

وبعد تلك الكارثة قام السلطان محمد الأول بن بايزيد باعادة بناء الدولة. ولما خلفه ابنه مراد الثاني سنة ٨٢٤هـ(١٤٢١م) استمر في سياسة الاصلاح والتنظيم حتى أعاد لها قوتها ومركزها. كما شيد في كافة الأقاليم المساجد والمدارس والمصحات .

ثم تحول السلطان مراد الثاني لمجابهة حلف الدول المسيحية المؤلف من دول البلقان والامارات الأوروبية . وقد انتصر على جيوشها وهزمها هزيمة ساحقة .

فتح القسطنطينية :

بلغت الدولة العثمانية الأوج في التنظيم والقوة في عهد السلطان محمد الثاني الذي خلف أباه مراد الثاني سنة ٨٥٤هـ(١٤٥١م). ولم يعد يفصل أملاكها في أوروبا عن أملاكها في آسيا الصغرى إلا القسطنطينية التي كانت لا تزال تابعة للدولة البيزنطية.

وقرر السلطان العثماني الاستيلاء على القسطنطينية وجعلها عاصمة للدولة العثمانية . وكانت المدينة محصنة تحصيناً قوياً حماها من الغارات التي تعرضت لها في السابق . ولم تكن الدولة البيزنطية وقتذاك قوية قادرة على مجابهة العثمانيين . فاستنجد الامبراطور قسطنطين الحادي عشر بالبابا وطلب منه ارسال حملة عسكرية للدفاع عن القسطنطينية . ومقابل ذلك وافق الامبراطور البيزنطي رغم معارضة شعبه على توحيد الكنيسة الارثوذكسية مع الكنيسة اللاتينية البابوية.

وهاجم السلطان محمد الثاني القسطنطينية وظل يدك أسوارها وحصونها دون توقف . وعجز قسطنطين عن صد الهجوم ، ولم تصله النجدات من البابا سوى كتيبة من الجنود وبعض سفن حربية جاءت من جنوى والبندقية . وأخيراً سقطت القسطنطينية وقتل الامبراطور البيزنطي سنة ١٤٥٣ م . ودخل محمد الثاني المدينة دخول الأبطال ولقب باسم (محمد الفاتح).

فتح العثمانيّين للبلاد العربيّة

عندما أخذت أنظار العثمانيين تتجه الى البلاد العربية كانت هناك الدولة الصفوية تحكم فارس والعراق ودولة المماليك في مصر وبلاد الشام والحجاز . مع العلم أن الدولة الصفوية ظهرت في أواخر القرن الخامس عشر ميلادي بايران وضمت اليها العراق بعد أن استولى الشاه اسماعيل الصفوي [1] على بغداد سنة ١٥٠٨ م ، وعمل على نشر المذهب الشيعي في بلاد الرافدين .

لم يكن بين الصفويين والعثمانين أي انسجام . وقد أدى النزاع الذي حصل بينهما بسبب لجوء بعض المعارضين لحكم السلطان سليم الأول العثماني الى ايران واكرامهم وتشجيع الشاه اسماعيل الصفوي لهؤلاء الى نشوب حرب بين الدولتين .

واتجه السلطان سليم على رأس جيش كبير الى ايران سنة ٩٢٠ هـ (١٥١٤ م)، وبالقرب من مدينة تبريز في سهل (تشالديران) اشتبك مع قوات اسماعيل الصفوي فهزمها وشتتها . وكان من ثمار هذا النصر الذي أحرزه السلطان العثماني انتزاعه من الصفويين كردستان وديار بكر وضمها الى الدولة العثمانية .

فتح الشام ومصر :

كانت العلاقات حسنة بين المماليك حكام مصر والشام وبين الأتراك العثمانيين . ولقد أقام المماليك في مصر الاحتفالات والزينات عندما علموا أن العثمانيين فتحوا القسطنطينية وذلك تضامنا معهم، كما أرسلوا للسلطان محمد الفاتح بتهانيهم . الا أن تلك المودة لم تدم طويلا بسبب عدة حوادث وقعت فعكرت صفو العلاقات بينهما . ومن تلك الأحداث أن الأمير (جم) خاصم أخاه بايزيد الثاني على العرش ففشل وهرب الى مصر فرحب به السلطان قايتباي وأكرم وفادته ، فظن بايزيد أن تلك المعاملة من قبل سلطان المماليك لأخيه تشجيعاً

---

(١) أسماعيل الصفوي مؤسس الدولة الصفوية في ايران ، توفي بمدينة اردبيل سنة ١٥٢٤ م وكان آخر ملوك السلالة الصفوية الشاه طهماسب الثاني الذي خلع سنة ١٧٣٢ م .

الدولة العثمانية
في أقصى اتساعها
اسبانيا
المتوسط
البحر
إيطاليا
الصرب
نهر الدانوب
البحر الأسود
أدرنة
استنبول
ألبانيا
أرمينيا
انقرة
بورسه
أسكي شهر
قونيه
الجزائر
تونس
طرابلس
برقة
القاهرة
مصر
حلب
دمشق
بغداد
العراق
فارس
خليج العرب
الإحساء
المدينة
مكة
الحجاز
البحر الأحمر
الصحراء الكبرى

له على التمرد والعصيان . فما كان من السلطان العثماني الا أن أعلن الحرب على المماليك التي دارت رحاها بالقرب من حلب .

وفي عهد سليم الأول ازدادت العلاقات سوء بين العثمانيين والمماليك . فقد اتهم السلطان العثماني قانصوه الغوري سلطان المماليك بأنه على اتصال بالشاه اسماعيل الصفوي ، وعمل على ايواء أعداء الدولة العثمانية . ونتيجة لذلك استولى السلطان سليم وهو عائد من حملته العسكرية على الصفويين بايران على المنطقة الواقعة تحت سيادة المماليك والممتدة من جبال طوروس في الشمال الغربي من بلاد الشام الى مدينة مالطة بآسيا الصغرى .

وحاول الغوري بعد أن وصل الى حلب على رأس جيش من مصر حل النزاع سلمياً مع السلطان سليم الأول ، فأرسل اليه بعثة للتفاوض معه ، ولكنه رفض وقال : على الغوري أن يلاقينا عند مرج دابق . وهذا يعني الحرب ..

وفي الموقع الذي أشار اليه السلطان سليم (مرج دابق) دارت رحى المعركة في سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦م) بين جيش المماليك والجيش العثماني انتهت بهزيمة المماليك وقتل السلطان الغوري أثناء المعركة اذ وقع عن ظهر جواده ومات تحت سنابك الخيل .

وكان الجيش العثماني متفوقاً بأسلحته الجديدة من المدافع والبنادق على أسلحة المماليك الذين أظهروا في بداية المعركة بسالة وقوة ، ولكن ما لبث أن وهن عزمهم بسبب انسحاب بعض قوادهم مع جنودهم وانضموا الى العثمانيين .

وبذلك انتهى حكم المماليك في بلاد الشام واستولى عليها السلطان سليم . ثم واصل زحفه على مصر التي تولى السلطة فيها (طومان باي) أحد أقارب الغوري . وعند الريدانية (ضاحية من ضواحي القاهرة) دارت معركة عنيفة سنة ١٥١٧م كان النصر فيها للجيش العثماني وفرار طومان باي الذي لم يلبث أن وقع في قبضة العثمانيين وأعدم . وقضى بذلك السلطان سليم على المماليك، ودخلت مصر في حوزته .

السيطرة على الحجاز واليمن :

كانت الحجاز خاضعة لحكم المماليك ، وكان كل سلطان منهم يلقب نفسه (خادم الحرمين). ولما استولى السلطان سليم على مصر وقضى على المماليك صار هو الوارث لهذا اللقب . وقبل أن يبرح القاهرة أرسل اليه شريف مكة بركات مفاتيح الحرمين الشريفين معبراً بذلك عن الولاء للدولة العثمانية . وبذلك دخلت الحجاز في حوزة العثمانيين وبقي شريف مكة محتفظاً بمنصبه .

واستمر العثمانيون في فتوحاتهم ، فأرسل السلطان سليمان الأول المعروف باسم سليمان القانوني [1] حملة بحرية الى عدن وسواحل اليمن في الوقت الذي كانت فيه الأساطيل البرتغالية تهاجمها منطلقة من قواعدها في مسقط والخليج العربي الذي وقع تحت سيطرة البرتغال . وتمكنت الحملة العثمانية من الاستيلاء على عدن سنة ١٥٣٨ م ، وتلتها حملات أخرى استولت على سواحل اليمن ثم صنعاء سنة ١٥٥١ م. وفي تلك المرحلة قام العثمانيون بعدة حملات ضد البرتغاليين ولكنهم لم يوفقوا في اجلائهم عن الخليج العربي الذي كانوا تمركزوا فيه منذ عام ١٥٠٦ وكانت البرتغال وقتذاك دولة بحرية كبرى تملك مستعمرات في الهند وجنوب افريقيا.

الاستيلاء على المغرب العربي :

ودخلت بلاد المغرب بدورها في حوزة الدولة العثمانية ما عدا مراكش وكانت هذه البلاد مؤلفة من ثلاث دويلات هي تونس والجزائر والمغرب وقد قامت على أنقاض دولة الموحدين التي زالت سنة ١٩٦١ م بعد حكم دام قرنين . والذي ساعد على توطيد اقدام العثمانيين في المغرب العربي هي الأحداث الداخلية والصراع الذي نشب بين خير الدين بربروسا ومراكش ، فطلب المعونة من السلطان العثماني مقابل

---

(١) السلطان سليمان الأول (١٥٢٠ – ١٥٦٦ م) لقبه الأتراك بالقانوني والفرنج بالعظيم . بلغت في عهده الدولة العثمانية الاوج ، وبسطت سيادتها على أكثر من نصف بلاد هنغاريا بالاضافة إلى بلاد العرب . وبيده نسخ القرآن الكريم عدة مرات ، ودون القوانين والشرائع ، وأشاع العدل ، وشجع العلوم ، وأنشأ المساجد والمدارس .

ضم بلاد المغرب الى الدولة العثمانية ، فاستجاب لطلبه ، وانضمت الجزائر سنة ١٥١٩ م ثم ليبيا سنة ١٥٥١ م ، وتم فتح تونس على يد القائد التركي سنان باشا ١٥٧٤ م .

فتح العراق :

أما العراق الذي كان الصفويون استولوا عليه سنة ١٥٠٨ م فقد عزم السلطان سليمان العثماني على انتزاعه منهم . فجهز جيشاً وقاده بنفسه حتى وصل الى بغداد واستولى عليها سنة ١٥٣٤ م . ثم اخضع الأجزاء الأخرى من العراق بعد معارك انتهت بهزيمة الصفويين (الايرانيين).

وهكذا دخلت البلاد العربية في حوزة العثمانيين وأصبحت ولايات عثمانية منذ القرن العاشر هجري ، السادس عشر ميلادي الذي بلغت فيه هذه الدولة الاسلامية الكبرى أوج مجدها واتساعها . فقد بسطت سيادتها على البلقان والقوقاز والقرم وآسيا الصغرى وأقطار الشرق العربي والشمال الافريقي .

نظام الحكم العثماني

في عهد السلطان سليمان الأول نظمت الامبراطورية العثمانية على أساس حكم مركزي وادارة الولايات . وبموجب هذا التنظيم وضعت القواعد الأساسية للحكم الذي كان مطبقاً كما يلي :

الحكومة المركزية :

كان السلطان من الأسرة العثمانية هو رئيس الدولة وصاحب الكلمة العليا ، والسلطة المطلقة . وكان يلقب بخليفة المسلمين ، ويساعده في ادارة الحكومة مجلس وزراء يرأسه الصدر الأعظم (رئيس الوزراء) ، والديوان السلطاني المكون من الوزراء وكبار موظفي الادارة المركزية المدنيين والعسكريين ، والقضاء (لتطبيق الشريعة

الاسلامية وأحكامها) ويتولى أمره شيخ الاسلام والقضاة . وشيخ الاسلام هو الذي يصدر الفتاوي والمرجع الأعلى في كل ما يتعلق بأمور القضاء .

وكان الجيش هو الجهاز الهام في الدولة ، يتألف من الفيالق البرية والأساطيل البحرية . وكان من أشهر فرق الجيش العثماني (يني شريه) أي الجنود الجدد أو الجيش الجديد ويليه (السياهي) المؤلف من الفرسان.

ادارة الولايات :

قسم العثمانيون امبراطوريتهم الشاسعة الى ولايات لكل منها جهازها الخاص من الموظفين لادارة شؤونها . وكان الوالي (الباشا) يعين من قبل السلطان ، وتتركز في يده السلطات المدنية والعسكرية. وهو الذي يتولى جمع الضرائب والأموال المقررة وارسالها الى الاستانة (القسطنطينية) ، ويعاونه في أعمال ادارة الولاية (الديوان) المؤلف من كبار الموظفين المدنيين والعسكريين .

أما القضاء فكان يتولاه قاضي القضاة ويعرف باسم (قاضي العسكر)، ومن صلاحياته تعيين قضاة نواباً له في الأقاليم ، والاشراف على شؤون الأوقاف ، وتطبيق نصوص الشريعة الاسلامية .

وقسمت الولاية ادارياً الى سناجق عين على كل منها حاكم سمي بالسنجق ، مهمته الاشراف على شؤون الأقاليم ، والحفاظ على الأمن ، وجمع الضرائب . وكانت مناصب السناجق يختار لها شخصيات كبيرة من أهل الولاية ، يساعدهم في أعمالهم وموظفون عرفوا باسم الكشاف .

وكان في كل ولاية حامية عسكرية لمساعدة الباشا في الحفاظ على النظام والأمن . وقد ارتكب رجال بعض تلك الحاميات الأعمال المشينة مثل ابتزاز الأموال من الشعب .

الدولة العثمانية في دور الانحدار

لقد أسس الأتراك العثمانيون امبراطورية شاسعة مترامية الأطراف امتدت حدودها من تخوم فيينا غرباً حتّى جبال القوقاس شرقاً ، ومن ضفاف البوسفور حتّى شواطىء البحر الأحمر ، ومن الشام حتّى مصر ومنها حتّى الجزائر .

وعاشت الامبراطورية العثمانية أكثر من خمسة قرون ونصف القرن ، وبالتحديد منذ منتصف القرن الخامس عشر حتّى مطلع القرن العشرين . وقد بلغت أوج مجدها واتساعها في القرن السادس عشر ميلادي ، وحافظت على قوّتها وهيبتها حتّى أواخر القرن السابع عشر ثم بدأ الضعف يدب فيها لعدة أسباب أهمها : ١ — تتابع على الحكم بعد السلطان سليمان القانوني الذي اتصف بالمقدرة والعدل بعض سلاطين ضعاف انغمسوا في الترف والملذات . ٢ — تدخل رجال الحاشية في شؤون الحكم. ٣ — انتشرت الرشوة وفسدت أجهزة الدولة. يضاف إلى ذلك امتداد الضعف إلى الجيش وانهزامه في عدة معارك حربية كانت نتائجها وخيمة على الدولة العثمانية اذ أدت إلى ضياع أملاكها في جنوب شرقي أوروبا. ففي سنة ١٦٨٧م فقدت هنغاريا ، وفي سنة ١٧١٨م فقدت بلغراد ودلماسية وألبانيا ، وفي سنة ١٨٢٠م فقدت اليونان ، وفي سنة ١٨٥٦ فقدت رومانيا ، وفي سنة ١٨٧٨ فقدت صربيه وبلغاريا .. الخ تلك البلدان التي فقدتها الدولة العثمانية والتي كانت تعتبر جزءاً هاماً من امبراطوريتها .

وقد حاول بعض السلاطين القيام باصلاحات بعد أن أدركوا خطر التأخر الاجتماعي والاقتصادي والثقافي في الولايات التابعة للدولة العثمانية ولكنهم اصطدموا بمعارضة فئة من كبار رجال الدولة وضباط الجيش ، وظلت السياسة القديمة سائدة. وكان هؤلاء يعتقدون ان وصد الأبواب بوجه التطور وبقاء الولايات بمعزل عن التيارات الفكرية والعلمية الحديثة يجنبها أطماع الدولة الأوروبية فيها وتبقى للعثمانيين . ولكن هذه السياسة لم تبعد أطماع بعض هذه الدول مثل روسيا وفرنسا وانكلترا التي تحركت لما انتاب الدولة العثمانية الضعف ودخلت في دور الانحدار ، وأخذت تتدخل بشؤونها وتنتزع منها الغنائم والامتيازات السياسية والاقتصادية .

الوضع في البلاد العربية :

بصورة عامة كانت البلاد العربية تعاني التأخر في شتى الميادين ، وتعيش في عزلة بعيدة عن النهضات التي قامت في أوروبا . واستمرت تلك المرحلة الطويلة حتى أواخر القرن الثامن عشر الذي تميز بتضعضع الدولة العثمانية ، وعجزها عن مقاومة أطماع دول أوروبا التي أخذت تمتد إلى العالم العربي في الوقت الذي أصبح نتيجة تدهور النظم العثمانية وضعف الدولة مسرحاً للفوضى والقلاقل والمنازعات والحركات الانفصالية .

الحركات القومية في العالم العربي :

أدى سوء ادارة الحكم العثماني واختلاله ، وتضعضع الأحوال في البلاد العربية إلى قيام حركات ذات طابع انفصالي كان أبرزها هي :

أولاً – في مصر ظهرت حركة قام بها علي بك الكبير أحد المماليك سنة ١٧٦٩ استهدف بها الاستقلال بمصر عن الدولة العثمانية . فطرد الوالي التركي ، وأبطل ارسال الجزية إلى الاستانة ، واستولى على الحجاز والشام . وأخيراً هزمته القوات العثمانية بقيادة محمد بك أبو الذهب الذي كان من كبار مساعديه ثم انقلب عليه . ومات علي بك وانهارت حركته سنة ١٧٧٣م .

ثانياً – في فلسطين تمكن الشيخ ظاهر العمر زعيم قبائل صفد من الاستيلاء على عكا ، ومنها انطلق بحركته في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر ، فاستولى على طبرية وصيدا وحيفا . وحاولت الدولة العثمانية عن طريق البحر ضرب قواعده والقضاء على حركته ولكنها أخفقت في المرة الأولى ، ثم جددت حملتها في سنة ١٧٧٥ واستولت على عكا . أما الشيخ ظاهر فقد اغتاله أحد أعدائه ، وبموته انتهت حركته القومية .

ثالثاً – في لبنان قامت حركة الأمير فخر الدين المعني الثاني المعروف باسم الكبير . وكان يهدف إلى الاستقلال بلبنان ، فتمكن من بسط سلطته على البلاد

وفصلها عن الدولة العثمانية . وأقام الأمير فخر الدين علاقات مع بعض دول أوروبا ، وقوي مركزه ، وأصبح بنظر العثمانيين يشكل خطراً على نفوذهم وهيبتهم فأرسلوا جيشاً إلى لبنان تمكن من الاستيلاء عليه ، وأخذ الأمير أسيراً سنة ١٦٣٥م ، وأرسل مع أولاده إلى استنبول وأعدم .

وبدوره قام الأمير بشير الشهابي الكبير بحركة تميزت بتوطيد علاقاته بمحمد علي حاكم مصر واسهامه معه في حروبه ضد الدولة العثمانية في بلاد الشام التي انتهت بتدخل بريطانيا وانسحاب قوات محمد علي سنة ١٨٤١ ، وبذلك انتهى حكم الأمير بشير الشهابي في لبنان ، ونفي الى استنبول حيث توفي سنة ١٨٥٠ .

رابعاً ــ في اليمن ، استمرت المقاومة ضد العثمانيين بقيادة الأئمة الزيديين ، وظلت الثورات مشتعلة حتى اضطر الأتراك إلى الاعتراف بسلطة الامام . ثم تجددت الثورة في عام ١٨٧٢ واستمرت حتى منحت اليمن استقلالها الذاتي سنة ١٩١١ .

خامساً ــ في المغرب العربي ، قامت حركات في تونس وليبيا والجزائر أدت إلى تقلص نفوذ الدولة العثمانية .

رواد الدعوة الى الاصلاح

كان أبرز حركة اصلاحية ظهرت في ذلك العصر هي حركة المصلح الكبير الشيخ محمد بن عبد الوهاب (سنأتي فيما بعد على شرح هذه الحركة الاصلاحية الدينية الكبرى في نجد وأثرها في العالم الاسلامي) .

ومن رواد الاصلاح الذين قاوموا الانحراف والنظم الفاسدة ، وطالبوا السلطان عبد الحميد الثاني الذي تولى الحكم سنة ١٨٧٦ حتى سنة ١٩٠٩ باصلاح شامل ووضع دستور للبلاد على أساس ديمقراطي نذكر :

مدحت باشا :

ولد في استنبول ١٢٣٨هـ (١٨٢٢م) ، كان أبوه حافظ محمد أشرف قاضياً وعالماً دينياً ، فأنشأ ابنه مدحت نشأة عالية . وتعلم في جامع الفاتح حيث كانت تعقد حلقات الدروس الدينية ، والنحو والبلاغة والمنطق والحكمة . وبالاضافة إلى اللغة التركية والعربية كان يتقن الفارسية والفرنسية .

وكان مدحت باشا رائد حركة الاصلاح في تركيا . وهو الذي قال : لا حياة للدولة العثمانية الا بنشر العدل ، والقضاء على الجهل والاستبداد ، والأخذ بالنظم الديمقراطية الصحيحة السليمة لتعم المساواة بين العناصر المختلفة ويضمن لها الحريـــة .

واصطدم مدحت باشا بالسلطان عبد العزيز وحاشيته عندما تقدم بمشروعه الاصلاحي على أساس وضع دستور للبلاد . وتحت ضغط الأحداث وخطورتها عين مدحت رئيساً للوزراء (الصدر الأعظم) . وما كاد يبدأ بالاصلاحات الداخلية حتى اصطدم من جديد مع السلطان عبد العزيز ، وأقصي عن الوزارة .

وبعد أن تولى السلطان عبد الحميد مكان عبد العزيز الذي خلع سنة ١٨٧٦ ، تسلم مدحت باشا منصب الصدر الأعظم وقام بحركته الاصلاحية ، فوضع دستوراً اشتمل على ١١٩ مادة ، ينص على قيام مجلسين الأول ينتخب من أهالي البلاد ويسمى بمجلس المبعوثان ، والثاني مجلس الأعيان تعين الدولة أعضاءه . ويتضمن الدستور المساواة بين جميع رعايا الدولة العثمانية أمام القانون ، ويبيح حرية الصحافة ، ويجعل التعليم اجبارياً ، ويمنع مصادرة أموال الناس . كما يحد من سلطة السلطان المطلقة .. الخ وقد وافق السلطان عبد الحميد على الدستور وأعلن في محفل عام بالاستانة سنة ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م) . ثم ما لبث عبد الحميد الذي كان يؤمن بالحكم المطلق أن عطل الدستور وألقى القبض على الشخصيات المؤيدة لحركة الاصلاح التي يتزعمها مدحت باشا ، ونفي مدحت خارج البلاد . وظل الدستور معطلاً مدة ثلاثين سنة حتى قامت حركة جماعة الاتحاد والترقي

سنة ١٩٠٨ وأرغم السلطان عبد الحميد إلى اعادة الدستور للبلاد . ثم خلع سنة ١٩٠٩ وتولى الحكم السلطان محمد رشاد الخامس .

جمال الدين الأفغاني :

ولد سنة ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م) في أسعد باد (أفغانستان) درس على العالم الشهير بادشاه علوم الدين والأدب والتاريخ والفلسفة . طاف الأقطار الاسلامية ودرس أحوالها . وفي القاهرة مكث سنة واحدة في زيارته الأولى لها ، ثم رحل إلى الأستانة سنة ١٨٧٠ حيث رحبت به الحكومة وعينته عضواً في مجلس المعارف . وحاول اصلاح مناهج التعليم ولكن بعض أعضاء المجلس لم يوافقوا على مقترحاته ، فترك الأستانة ورجع إلى القاهرة سنة ١٨٧١ حيث التفت حوله طائفه من المعجبين بنظرياته الفلسفية وحكمته . وكان في بيته يلقي دروسه وآرائه على زواره من رجال الفكر .

وكان جمال الدين الأفغاني يدعو إلى التمسك بالاسلام ، والقضاء على البدع ، واصلاح المسلمين اجتماعياً وسياسياً ، وتحرير الشرق من السيطرة الأجنبية .

وأخيراً نفي من مصر في عهد الخديوي اسماعيل سنة ١٧٨٩ ، ونفي أيضاً رفيقه في الجهاد الشيخ محمد عبده . وفي باريس أصدر هو ورفيقه مجلة العروة الوثقى . وكان بالوقت ذاته يحاضر عن الاسلام ويدافع عن الشرق . ثم عاد من جديد إلى الأستانة سنة ١٨٩٢ بناءً على دعوة السلطان عبد الحميد ليعمل على توثيق العلاقات بين المسلمين وكانت الفكرة تهدف إلى قيام جامعة اسلامية تضم المسلمين في كافة أقطارهم لتقف حاجزاً بوجه مطامع الغرب في العالم الاسلامي .

وكانت وفاة جمال الدين الأفغاني العلامة المصلح سنة ١٨٩٧ عن عمر يناهز ٥٨ سنة .

الشيخ محمد عبده :

ولد سنة ١٢٦٦هـ (١٨٤٩م) في قرية نصر (مصر) وترعرع في الريف ، ودرس في الأزهر ، ثم أصبح من كبار اساتذته في علوم التوحيد والمنطق والأخلاق . وفي دار العلوم التي عين فيها مدرساً للتاريخ اهتم خصيصاً بشرح مقدمة ابن خلدون وفلسفته التي اتخذها قاعدة لمحاضراته عن علم الاجتماع .

وقام الشيخ محمد عبده بنشر سلسلة من المقالات في جريدة الأهرام عن الاصلاح الاجتماعي كان لها أثرها الكبير في مصر وبالأخص في أوساط المفكرين والمثقفين . ولما قدم جمال الدين الأفغاني إلى مصر لازمه محمد عبده ووجد في فلسفته وآرائه الهدف السامي للاصلاح الخلقي والاجتماعي الذي عليه تتوقف نهضة الشرق الاسلامي .

وتولى الشيخ محمد عبده رئاسة تحرير جريدة (الوقائع المصرية) فجعل منها منبراً للتوجيه والدعوة إلى الاصلاح . وظل ثمانية عشر شهراً يعمل دون انقطاع حتى نفي إلى بيروت على اثر قيام الثورة العرابية في مصر وسافر إلى باريس حيث اشترك مع صديقه جمال الدين الأفغاني في تأسيس جريدة العروة الوثقى وتحريرها . ثم عاد إلى بيروت سنة ١٨٨٥م ومنها رجع إلى مصر بعد أن صدر العفو عنه حيث استأنف جهاده . فعين قاضياً ، ثم مفتياً للديار المصرية .

وكانت رسالة الشيخ محمد عبده سامية في جوهرها وأهدافها المتمثلة في الدعوة إلى الاصلاح الاجتماعي والتربوي ، والحفاظ على القيم الروحية والأخلاقية ، وتطوير نظم الحكم ، والاعتماد في النضج السياسي على التربية الاسلامية السليمة النقية . وتوفي محمد عبده الفيلسوف الاسلامي المصلح في الاسكندرية سنة ١٩٠٥م

عبد الرحمن الكواكبي :

ولد في حلب (سوريا) سنة ١٢٦٥هـ (١٨٤٩م) من أسرة عريقة ، درس في المدرسة الكواكبية التي كانت في منهجها كالمدرسة الأزهرية . ولما أتم دراسته

انكب على العمل وأخذ يحارب الفساد ويدعو إلى الاصلاح . وقام برحلات في الأقطار الاسلامية ودرس أحوالها الاجتماعية والاقتصادية ، وفي ضوء ما شاهده ودرسه درساً عميقاً نشر مجموعات كبيرة من المقالات في الصحف والمجلات انتقد فيها نظم الحكم العثماني ودعا إلى اصلاح البلاد .

وكان الكواكبي مفكراً وداعياً نزيهاً للاصلاح في الشرق الاسلامي . وقد تعرض كغيره من رواد الاصلاح في عهد عبد الحميد للملاحقة والنفي . ومن أشهر مؤلفاته : (كتاب الاستبداد وكتاب أم القرى) . وتوفي عبد الرحمن الكواكبي في مصر سنة ١٩٠٢ .

دولة المغل (المغول) الاسلامية

ان المغل (المغول) بالهند يختلفون عن المغول الذين تزعمهم جنكيز خان واجتاحوا في القرن السابع الهجري – الثالث عشر ميلادي – الصين وتركستان وخراسان والعراق وبلاد الشام (راجع صفحات ٢١٩ حتى ٢٢٥) ومؤسس أسرة المغل العظيمة في بلاد الهند هو الزعيم (بابر ظهير الدين) الذي قام بنشر الاسلام في المقاطعات الشمالية الهندية حيث قام بسلسلة من الحملات لفتحها . وكان رجلا شجاعا وعالما له ديوان ومذكرات تعرف باسم (بابر نامه) وقبل وفاته ترك وصية لخلفائه يحثهم على الجهاد لتوطيد دعائم الاسلام ونشره في ارجاء الهند . وتوفي بابر ظهير الدين عام ٩٣٧ هـ (١٥٣٠ م) عن عمر يناهز ٥٠ سنة .

ونهج ملوك دولة المغل سياسة أسلامية قوامها دعم ونشر الاسلام في الاقاليم والمناطق التي تتألف منها حاليا دولة الباكستان . وقد توطدت دعائم دولتهم ونمت وازدهرت في عهد الملك جهان كير والملك شاه جهان . وفي عهدهما نشطت حركة العمران والتجارة والصناعة ، وشيدت المساجد والمدارس والقصور . كما شيد شاه جهان سنة ١٦٣٠ م ضريحا فخما لزوجته ارمند في مدينة أغرا والمعروف باسم (تاج محل) الذي ما زال قائما حتى يومنا هذا .

وظلت دولة المغل الاسلامية قائمة حتى وضعت بريطانيا يدها على الهند واستعمرتها عن طريق الامتيازات التجارية التي حصلت عليها شركة الهند الشرقية البريطانية في القرن السابع عشر الميلادي . واخذت الشركة تعمل على ترسيخ نفوذ بريطانيا في الهند حتى تمت السيطرة عليها .

واستمر الاستعمار البريطاني للهند حتى منتصف القرن الحالي الذي تميز بانحساره عنها وحصول الشعب الهندي والشعب الباكستاني على استقلالهما . ففي عام ١٩٤٥ تأسست دولة الهند ، وفي عام ١٩٤٧ تأسست دولة الباكستان .

مطامع اوروبا وزوال الدولة العثمانية

دخلت الدولة العثمانية كما ذكرنا في دور الانحدار منذ أواخر القرن الثامن عشر الذي تميز بتحرك أوروبا وامتداد مطامعها إلى الشرق والمغرب العربي . ففي سنة ١٧٨٩ قاد نابليون بونابرت حملة عسكرية نزلت في مصر ، كانت تهدف بالاضافة إلى الاستيلاء عليها السيطرة على طريق الهند . وأرسلت بريطانيا أسطولها بقيادة الأميرال نلسون لاحباط خطة نابليون الذي اضطر إلى العودة لفرنسا بعد أن تحطم أسطوله في أبوقير سنة ١٧٩٨ ، واجلاء قواته عن مصر سنة ١٨٠١ ، وفي أعقاب خروج الفرنسيين تولى محمد علي الحكم في مصر .

وفي سنة ١٨٣٠ استولت فرنسا على الجزائر ثم على تونس سنة ١٨٨١ ؛ وبدورها ايطاليا استولت على ارتيريا وجزء من الصومال سنة ١٨٩٥ ، وبعد أن تم فتح قناة السويس سنة ١٨٦٨ أخذت بريطانيا تتدخل بشؤون مصر ؛ وتحول ذلك إلى احتلال سنة ١٨٨٢ ؛ ثم استولت على السودان . وفي عام ١٨٠٠ احتلت مسقط وساحل عمان . ثم بسطت نفوذها على الخليج العربي سنة ١٨٢٠ . وسيطرت فرنسا على مراكش سنة ١٩١٢ ، وبعدها بسنة واحدة احتلت ايطاليا ليبيا .

وهكذا وقعت جميع الأقطار العربية في قبضة بريطانيا وفرنسا وايطاليا ولم يعد للدولة العثمانية أي نفوذ فيها . وهي بدورها انهارت في أواخر الحرب العالمية الأولى التي انتهت سنة ١٩١٨ بانتصار الحلفاء وتقسيم الشرق العربي إلى مناطق نفوذ بين بريطانيا وفرنسا ، فوضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي ، والعراق والأردن وفلسطين تحت الانتداب البريطاني . وبذلك انتهت الدولة العثمانية بعد حكم استمر في العالم العربي أربعمائة سنة .

نضال الشعوب الاسلامية

ناضلت الشعوب الاسلامية نضالا عظيما في سبيل حريتها واستقلالها . ففي مصر ظل المصريون يقاومون الاحتلال البريطاني بشتى الوسائل حتى ارغمت بريطانيا على الغاء الحماية سنة ١٩٢٢ م والاعتراف باستقلال مصر ، وقد تحولت بعد ذلك الى مملكة ووضع لها دستور سنة ١٩٢٣ م وبعد الحرب العالمية الثانية تم جلاء البريطانيين من القواعد التي احتفظوا بها على مرحلتين الاولى عام ١٩٤٦ والثانية عام ١٩٥٤ أي بعد قيام النظام الجمهوري بعامين .

وفي الشرق الاسلامي استمرت الحركات الوطنية ضد الاستعمار البريطاني والفرنسي حتى نالت كافة أقطاره استقلالها . فالعراق الذي اعترفت بريطانيا باستقلاله عام ١٩٣٠ م مع الاحتفاظ ببقاء سيطرتها وحمايتها نال استقلاله الكامل عام ١٩٥٥ . أما سوريا ولبنان اللتان كانتا تحت الانتداب الفرنسي فقد حققتا استقلالهما عام ١٩٤٦ ، وأيضا الاردن الذي اعترفت بريطانيا باستقلاله عام ١٩٤٦ فقد جلت قواتها عنه وتحرر من سيطرتها عام ١٩٥٧ . وكذلك السودان فقد نال استقلاله عام ١٩٥٦ أما أقطار المغرب العربي التي كانت تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي فقد تمكنت بعد نضال وجهاد عظيمين من نيل استقلالها . ففي المغرب الغيت الحماية الفرنسية عام ١٩٥٥ وتلا ذلك الاعتراف به دولة مستقلة ملكية ذات سيادة. وفي عام ١٩٥٦ استقلت تونس ، وفي عام ١٩٦٢ استقلت الجزائر . أما ليبيا التي كانت قبل الحرب العالمية الثانية تحت حكم الاستعمار الايطالي فقد بقيت بعد الحرب مقسمة الى مناطق نفوذ بين دول الحلفاء (فرنسا وبريطانيا وأميركا) فقد نالت استقلالها عام ١٩٥١ م .

وفي الجزيرة العربية استقلت أمارة الكويت التي كانت تحت الحماية البريطانية منذ عام ١٨٩٩ واستمرت حتى عام ١٩٦١ تاريخ انهاء الحماية واعلان استقلال دولة الكويت . وبدوره الجنوب العربي الذي بسطت بريطانيا سيطرتها عليه منذ عام ١٨٣٩ فقد نال استقلاله سنة ١٩٦٨ .

وهكذا حققت شعوب الاقطار الاسلامية في الشرق والمغرب العربي أمانيها المتمثلة في الحرية والاستقلال . وتخلصت من الاستعمار البغيض .

فلسطين والصهيونية :

منذ أواخر القرن التاسع عشر أخذت الحركة الصهيونية تعمل على تحقيق أطماعها المتمثلة بقيام دولة يهودية في فلسطين العربية . وفي سنة ١٨٩٧ عقد المؤتمر الصهيوني بزعامة هرتزل في مدينة بال (سويسرا) ووضع الخطة لتحقيق انشاء وطن قومي يهودي في فلسطين . وحاول الصهاينة اقناع السلطان العثماني بالسماح لهم بالهجرة إلى هذا القطر العربي العميق الجذور بعروبته واسلاميته ، فرفض وأصدر قانوناً بمنع الهجرة اليهودية واقامة مستعمرات لليهود في فلسطين .

وبعد زوال الدولة العثمانية ركز اليهود اهتمامهم ومساعيهم لدى الحلفاء للحصول على وعد يحقق أمانيهم بأنشاء وطن قومي في فلسطين. وقد تمكن (ليوليتل روتشلد) رئيس الجمعية اليهودية في لندن من الحصول على رسالة في ٢ تشرين الثاني—نوفمبر ١٩١٧ من المستر بلفور وزير خارجية بريطانيا يعدفيها اليهود بوطن قومي في فلسطين على أن لا يمس ذلك حقوق الشعوب غير اليهودية .

وما كادت فلسطين تصبح تحت الانتداب البريطاني في عام ١٩٢٠ حتى شرع اليهود بتنفيذ خطتهم المرسومة لتحقيق اطماعهم ، فأنشأوا الوكالة اليهودية (هيئة مسئولة عن تنظيم شؤون اليهود والاشراف على مدارسهم) وذلك بموافقة البريطانيين الذين سهلوا الهجرة اليهودية الى فلسطين وجعلوا اللغة العبرية لغة رسمية الى جانب العربية والانجليزية .

أدرك عرب فلسطين خطر الهجرة اليهودية المتزايدة وأطماع الصهيونية ، فثاروا وقاوموا سياسة الانتداب البريطاني . وكانت أعنف ثورة قاموا بها واشترك فيهـا مجاهدون من الاقطار العربية هي ثورة عام ١٩٣٦ التي عجزت بريطانيا عن اخمادها فالتجأت الى وسيلة المفاوضة وقد أرسلت لجنة برئاسة اللورد بيل عام ١٩٣٧ . فدرست الاوضاع وخرجت باقتراح تقسيم فلسطين الى ثلاثة اقسام (جزء عربي . وجزء يهودي ، وجزء يضم الاماكن المقدسة تحت وصاية دولية .) . وتحديد الهجرة اليهودية . فرفض العرب مشروع بيل البريطاني واعلنوا استمرار الكفـاح . وعادت بريطانيا من جديد الى المفاوضة بعد أن فشلت في القضاء على الثورة ، فوجهت دعوة الى زعماء العرب لبحث قضية فلسطين . وفي لندن عقد مؤتمر المائدة المستديرة عام ١٩٣٩ وانتهى برفض العرب للمقترحات البريطانية .

وفي عام ١٩٤٧ عرضت قضية فلسطين على هيئة الامم فقرر تقسيم فلسطين الى دولتين : عربية ، ويهودية ، مع وضع الاماكن المقدسة تحت الوصاية الدولية . فرفض العرب قرار التقسيم ، وهب الشعب الفلسطيني للدفاع عن بلاده ، واشتبك مع اليهود في معارك دموية استبسل فيها ، وفي ١٥ أيار – مايو ١٩٤٨ انتهى الانتداب البريطاني على فلسطين ، واعلن اليهود في نفس اليوم قيام دولة أسرائيل . فأسرعت الجيوش العربية لأنقاذ فلسطين ، وواصلت زحفها حتى بلغت مشارف تل أبيب التي اتخذها اليهود عاصمة لهم. وعندئذ تدخلت هيئة الامم وفرض مجلس الامن الهدنة على الطرفين .

ولم تقف مطامع الصهيونية على سلب أكثر من ٧٧ بالمائة من أراضي فلسطين سنة ١٩٤٨ بل توسعت واستولت في عدوانها الغاشم سنة ١٩٦٧ على فلسطين بكاملها وعلى مرتفعات الجولان السورية وصحراء سيناء المصرية والضفة الشرقيـة لقناة السويس .

تلك هي مطامع الصهيونية وخطرها على العرب الذين قاوموا جحافل الغـزاة في مختلف العصور وانتصروا عليها بفضل وحدتهم تحت لواء الاسلام .

الفصل الرابع عشر

حركة الإصلاح الكبرى في نجد

ظهر في شبه جزيرة العرب في أوائل القرن الثامن عشر عالم من علماء الدين هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب . ولد في عام ١١١٥ هـ (١٧٠٣ م) ببلدة العيينة ، ونشأ نشأة صالحة اذ كان أبوه عالماً جليلاً وقاضياً فدرس عليه الفقه على مذهب الامام احمد بن حنبل . وقد زار الكثير من البلدان حيث كان يتابع أحوال المسلمين فحز في نفسه ماسمعه وما رآه من بوادر الانحلال وعلامات الانهيار بعد أن ظهرت في ذلك الوقت البدع التي تتنافى مع تعاليم الاسلام .

وأخذ محمد بن عبد الوهاب يدعو الى نبذ هذه البدع ، وكان يؤكد للناس أنه لا يرشدهم الى مذهب جديد في الاسلام بل يدعو (الى الله وحده لاشريك له والى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم) ، ولكي يضمن نجاح حركته الاصلاحية رأى من الضروري ان يعتمد على سند سياسي ، واستطاع أن يكسب ود الأمير « محمد بن سعود » أمير الدرعية الذي رحب به بعد أن فهم دعوته واعتنق فكرته وأخذ ينشر مبادىء هذه الدعوة الاصلاحية بين قبائل العرب . وخلال سنوات قلائل انتشرت مع الحكم السعودي في شبه الجزيرة العربية .

اتساع حركة الاصلاح في عهد الدولة السعودية الاولى

بعد أن توفي الأمير محمد سنة ١١٧٩ هـ – ١٧٦٥ م خلفه ابنه عبد العزيز . وكان متديناً متحمساً للدعوة . وقد تخطى حدود نجد وهاجم الأحساء واستولى عليها وانطلق لنشر الدعوة في امارات الخليج العربي ، ثم أخذت قواته تغير على حدود العراق حتى وصلت الى كربلاء فذعر السلطان العثماني وطلب من ولاته في العراق القضاء على هذه الحركة ولكنهم أخفقوا .

وفي عام ١٨٠٣ م أغتيل الأمير عبد العزيز فخلفه ابنه الأمير سعود الذي لقب بسعود الكبير . وفي عهده بلغت الدلة « السعودية » أقصى اتساعها . واستطاع ان يفتح الحجاز وفر الشريف غالب بن مساعد أمير مكة « الى جدة » وقد أبقاه الأمير سعود في منصبه بعد أن تعهد بأن يسير نظام الحكم في الحجاز وفقاً للدعوة الاصلاحية الجديدة التي انتشرت في شبه الجزيرة وبعض البلدان المجاورة .

جدد السعوديون حملاتهم على العراق وهاجموا النجف والزبير ثم أرسلت الحملات الى الشام ووصلت الى جنوب حوران فأمر السلطان العثماني والي دمشق أن يقضي على الحركة ،لكنه عجز عن ذلك وقد وجه سعود الكبير ضربة قوية الى السلطان العثماني عند[illegible] الحجيج المصري والشامي بالعوة لأنهما لم يمتثلا الى الأحكام الشرعية بمنع الطبل والز[illegible] أثناء الحج بينما سمح للحجيج من بقية البلاد الاسلامية الأخرى .

وطلب السلطان العثماني من محمد علي والي مصر أن يقضي على حركة الاصلاح الناشئة فقبل محمد علي هذه المهمة لارضاء السلطان من ناحية ولتحقيق أطماعه التوسعية من ناحية أخرى . وأرسل الحملات الحربية الى شبه الجزيرة (١٨١١ – ١٨١٨ م) فاسترد الحجاز ثم أتم ابراهيم باشا فتح الدرعية في سبتمبر عام ١٨١٨ م بعد أن هدمها وأرسل الأمير عبد الله بن سعود الذي خلف أباه سعود الكبير الى القسطنطينية حيث أعدم هناك عام ١٢٣٣ هـ ١٨١٧ م .

ولا يعني هذا ان الدولة العثمانية نجحت في القضاء على الحركة الاصلاحية ، فبمجرد أن سحب محمد علي جيوشه من شبه الجزيرة عام ١٨٤٠ م عاد السعوديون الى توطيد حكمهم والعمل على نشر الدعوة الاصلاحية الدينية .

آثار حركة محمد بن عبد الوهاب الاصلاحية :

١) ظلت الحركة مصدرا لجميع الحركات الاصلاحية التي ظهرت في العالم الاسلامي خلال العصر الحديث .

٢) نجحت الحركة في القضاء على البدع والضلالات التي تفشت بين المسلمين وكادت تؤدي بالأمة الاسلامية الى الانهيار .

٣) لقيت الدعوة صدى طيباً في الأقطار الاسلامية وعمت آثارها مصر والشام والعراق وايران والهند .

٤) أثبتت الحركة قدرتها على أن تكون أساسا صالحاً قوياً لبناء دولة اسلامية كبرى .

٥) أحدثت المناظرات والمناقشات التي كانت تدور في مجالس العلماء نوعاً من اليقظة الفكرية ، كان الشرق العربي الاسلامي في مسيس الحاجة إليها بعد الجمود الفكري الذي هيمن عليه قروناً طويلة .

٦) ساد حكم الشريعة الاسلامية في شبه الجزيرة العربية فساد الأمن والنظام فيها .

الدولة السعودية الثانية

ساد نجد الاضطراب واختل الأمن والنظام حتى تمكن الأمير ز فيصل بن تركي الذي كان منفياً في مصر من الفرار والعودة الى امارته ، وما كاد يصل اليها حتى التف حوله الشعب وتمكن من استرداد نجد عام ١٨٤٣ م ثم أخذ يبسط نفوذه في

معظم شبه الجزيرة ، فامتد ملكه الى الأحساء والقطيف وعسير ودانت له بعض امارات الخليج ونعمت البلاد طول فترة حكمه التي دامت ٢٢ عاماً بالأمن والطمأنية

وعندما توفي فيصل بن تركي عام ١٨٦٥ م وقعت البلاد في فوضى مرة أخرى واشتد النزاع بين ولديه عبد الله وسعود . وقد انتهز الأتراك الفرصة السانحة واحتلوا منطقة الأحساء وضموها الى ممتلكات السلطان العثماني .

وعندما توفي سعود بن فيصل عام ١٨٧٤ م وبويع أخوه عبد الرحمن أميراً على الرياض تجدد الشقاق بين الأمراء وعندئذ استغل محمد بن عبد الله الرشيد أمير حائل الفرصة لينتزع من آل سعود الملك ويؤسس دولة لآل الرشيد . وكانت تركيا تؤيده وتشد ازره ، فدخل ابن الرشيد الرياض ، وتمكن من بسط سلطانه على نجد .

الدولة السعودية الثالثة

عز على الأمير عبد الرحمن بن فيصل آل سعود أن يعيش في بلده تحت رحمة آل الرشيد الذين كانوا من قبل أتباعاً لآل سعود ، فرحل مع أفراد أسرته الى الربع الخالي حيث قضى فترة لدى بني مرة ثم انتقل الى قطر ومنها الى الكويت حيث نزل ضيفاً كريماً لدى الشيخ مبارك الصباح مع أفراد أسرته عام ١٣٠٩هـ- ١٨٩١م

عبد العزيز يوطد ملك آل سعود :

في الكويت التي وصلها عبد العزيز مع والده عبد الرحمن وهو في الثانية عشرة من عمره قضى فترة شبابه . وكانت فترة عصيبة بالنسبة له اذ درس التيارات السياسية المختلفة التي كانت تلعب دورها في المنطقة ، وأخذ يستعرض المحن التي تعرضت لها أسرته . ولم ينس قط ما رآه من أحداث في بلاده وهو صغير . وأخيراً عقد العزم على استرداد ملك آبائه وأجداده .

الاستيلاء على الرياض :

سئم عبد العزيز الحياة الراكدة في الكويت ، وصمم على أن يسترد ملك آل سعود أو يموت دونه ، ومن أجل ذلك قام بمخاطرات جريئة اذ خرج في عـــدد قليل من رجاله لا يتعدون الأربعين من الكويت في أواخر عام ١٩٠١ م قاصداً الرياض ، وعندما اقترب من المدينة أعد خطة الهجوم ، وفي يناير عام ١٩٠٢ م تسلل ليلاً مع عشر رجال من بينهم ابن عمه عبد الله بن جلوي وترك الثلاثـــين الباقين خارج الأسوار ، وتمكن من قتل أمير الرياض ويسمى (عجلان) نائــب ابن الرشيد ، وكان ذلك مفاجأة لأهل الرياض الذين أسرعوا لمبايعة الأمير عبــد العزيز ، وبذلك حقق أول انتصار كان بداية الكفاح لاعادة تأسيس الدولـــة السعودية . وأخذ يسترد نجد ، منطقة بعد أخرى ، وهزم الحملة العسكرية التي ، أرسلتها الدولة العثمانية من العراق لنصرة الرشيد عام ١٩٠٤ م ، ثم جهز عبـــد العزيز جيشاً من أعوانه سماه جيش (الاخوان) وهزم قوات الرشيد هزيمة ساحقة في الدلم واستولى على الأفلاج والحوطة ووادي الدواسر ثم اتجه الى المناطق الشماليــة واحتل القصيم . وبذلك أصبح عبد العزيز . بن عبد الرحمن آل سعود سيد بلاد نجد

ضم الأحساء والقطيف :

كان عبد العزيز يعتبر الأحساء جزءاً لا يتجزأ من الدولة السعودية لأنها كانت المنفذ الوحيد لدولته على الخليج العربي . وفي عام ١٩١٣ م قبيل قيام الحــرب العالمية الأولى انقض بجيش مكون من ستمائة رجل على اقليم الأحساء (الحســا) وفاجأ الحامية التركية فقاوم الجنود الأتراك وعندما تأكدوا من عدم جدوى مقاومتهم آثروا الانسحاب ، ثم أرسل سرية من رجاله الى القطيف فاحتلوها دون مقاومـــة .

فتح حايل (حائل) :

بعد أن انسحب العثمانيون من العالم العربي اثر انتهاء الحرب العالمية الأولى انتهز عبد العزيز الفرصة لفتح حائل فحاصرها ثلاثة أشهر حتى استسلم ابن الرشيد

في نوفمبر عام ١٩٢١ م فعفا عنه واصطحبه الى الرياض معززاً مكرماً . وكان من آثار هذا الموقف الكريم لعبد العزيز أن أخلص له آل الرشيد .

فتح الحجاز :

بعد أن سيطر عبد العزيز آل سعود على معظم شبه الجزيرة لم يبق أمامه الا الحجاز التي تمركز فيها الشريف حسين عندما خذله الانكليز وخيبوا آماله في مشروع الدولة العربية الكبرى .

ولما كانت الحجاز تضم الأماكن الاسلامية المقدسة (مكة والمدينة) التي هي قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لم يغب هذا عن بال عبد العزيز ابن‌سعود. وأدرك انه لا بد من ضم الحجاز اليه حتى يستتب له الأمر وتتوحد الجزيرة العربية .

بدأ النزاع بين الطرفين على تحديد الحدود بين نجد والحجاز ثم نشأ نزاع آخر عندما رفض الحسين الاذن للحجاج الوهابيين بالحج ، وفي مايو عام ١٩١٧ م احتلت قوات الشريف حسين بقيادة ابنه عبد الله (تربة) « بلدة تبعد ٩٠ ميلا من الطائف » ولكن عبد العزيز آل سعود هزمهم عام ١٩١٩ م ثم عاد الى نجد بعد أن حذرته الحكومة البريطانية من التقدم في الحجاز .

وفي عام ١٩٢٣ م اختمرت فكرة فتح الحجاز ، فسار عبد العزيز آل سعود واحتل الطائف عام ١٩٢٤ ثم دخل مكة وحاصر جدة واستولى عليها ، ثم على المدينة ، وانهارت مقاومة الهاشميين . وبذلك سيطر السعوديون على بلاد الحجاز عام ١٩٢٥ م وبويع عبد العزيز آل سعود ملكاً ، وأصبح لقبه الجديد (ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها) .

ضم منطقة عسير :

كانت عسير أمارة يحكمها الأدارسة وهم من أصل مغربي ينتسبون للشيخ أحمد الادريسي الذي قدم من المغرب وبسط سلطانه الروحي على هذه المنطقة الواقعة جنوب الحجاز ، وكانت موضع تنافس بين الحجاز واليمن . وقد انتهز

الامام يحى امام اليمن فرصة القتال بين الأمير عبد العزيز والشريف حسين واحتل عسير فاستنجد أميرها الادريسي بعبد العزيز الذي سارع لنجدته ودخل في حرب مع الامام يحى واسترد عسير ووضعها تحت حمايته عام ١٩٢٦ م ، ثم ضمت نهائياً الى ملكه .

المملكة العربية السعودية :

أصبح اسم الدولة السعودية هو (المملكة العربية السعودية) وقد صدر مرسوم ملكي بذلك في سبتمبر عام ١٩٣٢ م ، وتهيأت بذلك الجزيرة العربية لاستقبال العهد الجديد الذي بدأه الملك عبد العزيز .

النهضة في عهد الملك عبد العزيز :

قاوم الملك عبد العزيز بنهضة كبيرة واصلاحات عظيمة . وقد بنى دعائم ملكه على اساس سليم في الداخل والخارج ، فعمل على تقوية مركزه الدولي بعقد معاهدات مع الدول وتوثيق الروابط مع البلاد العربية والاسلامية .

أما في الداخل فقد وطد دعائم الأمن في البلاد بتطبيق أحكام القرآن والشريعة الاسلامية ، وقضى على خلافات القبائل ، وأصبح الحج الى الحرمين مأموناً ،وأنشأ القرى التي ساعدت على استقرار البدو ، وأقام المدارس والمستشفيات .

وهكذا استطاع الملك عبد العزيز آل سعود بفضل ايمانه العميق وحكمته وسياسته أن يعيد بناء الدولة السعودية الكبيرة على مبادىء الشريعة السمحاء مع الأخذ بأسباب النهضة الحديثة .

وفي ربيع الثاني عام ١٣٧٣ هجرية الموافق ٩ نوفمبر ١٩٥٣ ميلادية توفي هذا الملك العظيم الذي يعتبر بحق (مجدد مجد العرب وباني دولتهم) وخلفه ابنه سعود الذي كان ولياً للعهد . وقد أصيب الملك سعود في عام ١٩٦٤ م بمرض شديد أضعفه وأقعده عن القيام بأعباء الحكم .

الملك فيصل بن عبد العزيز :

وفي شهر رجب عام ١٣٨٤ هـ ١٩٦٤ م بويع ولي العهد الأمير فيصل بن عبد العزيز ملكاً على المملكة العربية السعودية . وهو الابن الثاني للملك الراحل عبد العزيز مؤسس المملكة وسبط الشيخ محمد بن عبد الوهاب المصلح الديني من جهة والدته ابنة الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ من كبار علماء نجد . ويتمتع الملك فيصل بمناقب وفضائل جعلت مواهبه الفذة وسياسته البناءة رائداً حكيماً تنعقد عليه آمال العرب والمسلمين . وفي عهده تضاعفت النهضة الاصلاحية في المملكة وقطعت شوطاً بعيداً في شتى الميادين .

إنتشار الاسلام في العالم

دخل الاسلام آسيا وافريقيا وجنوب شرقي أوروبا وجزر البحر المتوسط في عصور مختلفة متصلة المراحل كان أهمها مرحلة الفتوح التي تمثلت بانضواء كتلة من الشعوب والأمم المختلفة الأجناس والقوميات تحت لواء الرسالة الاسلامية وانصهارها في المجتمع الاسلامي الكبير .

لقد جاء الاسلام دين الهدى والحق للناس كافة . جاء برسالة تجمع الشعوب في أمة واحدة لا تعرف شعوبية ولا اقليمية ، رابطتها العقيدة الدينية والأخوة والتعاون الصادق والحب والسلام .

والاسلام دين السلام والعلم والتقدم . وهو في تشريعه يعتبر نظاماً عالمياً أوجب حماية القيم الروحية والأخلاقية ، والخصائص الفردية والجماعية ، والوحدة بين أبناء الأمة في الحقوق والواجبات والتضامن في المسؤوليات ، واقامة العدل والمساواة بين الناس بغير تفرقة بين الأنساب والأجناس والألوان . كما حث على الجهاد في سبيل الله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدفاع عن الحق ، ونصرة المظلوم . تلك هي المبادىء التي قامت عليها الدعوة الاسلامية الخالدة .

آسيا :

بعد ان امتد الاسلام الى بلاد الشام والعراق وفارس في عهد الخلفاء الراشدين دخل بلاد ما وراء النهر وشمال الهند في عهد الامويين وبالتحديد في عهد الخليفة الوليد ابن عبد الملك . ففي عهده فتح القائد العظيم قتيبة بن مسلم الباهلي بلاد ما وراء النهر (راجع صفحة ٨٤) وحطم اصنام الوثنيين ونشر الاسلام في بخارى وسمرقند ومناطق اخرى اتخذها المسلمون طريقا للاتصال بالصين عبر تركستان . وبقيادة محمد بن القاسم الثقفي فتح المسلمون مقاطعات في بلاد السند ودخلوا مدينة الديبل (كراتشي ــ حاليا) ومدينة ملتان مركز معابد الوثنية ، فدمروا الاصنام وأقاموا شعائر الاسلام (راجع صفحة ٨٤) .

وفي عهد العباسيين استمرت الفتوح الاسلامية حيث اتسعت رقعة المناطق التي انتشر فيها الدين الحنيف بفتح اقاليم جديدة منها بلاد كشمير التي استولى عليها الجيش الاسلامي الذي ارسله الخليفة أبو جعفر المنصور .

وقد اتسع انتشار الاسلام في المقاطعات الشمالية بالهند في عهد الدولة الغزنوية الاسلامية التي امتد نفوذها الى تلك الاصقاع في القرن الخامس الهجري . كما دعم مركز المسلمين في عهد دولة المغل (المغول) التي تأسست بالهند وقامت بنشر الاسلام في الاقاليم التي تتألف منها حاليا دولة الباكستان .

اما في الصين فقد انتشر الاسلام فيها عن طريق التجار المسلمين منذ القرن الثاني الهجري . وكان التجار يحملون الى الصين منتجات بلادهم بواسطة السفن التي كانت تقلهم الى الموانيء الصينية حيث استقرت فيها جاليات اسلامية كثيرة وفي تلك الثغور شيدت المساجد وازداد عدد المسلمين باعتناق اعداد كبيرة من اهل الصين الاسلام .

وفي اندونيسيا توطد الاسلام وانتشر انتشارا عظيما في ارجاء البلاد . وكان دخوله في المرحلة الاولى عن طريق التجار المسلمين الذين استقروا في سواحل جزر سو مطرة وجاوة . ومنها امتد الى الداخل في القرن السابع الهجري ــ الثالث عشر

ميلادي . ثم أخذ الدعاة يقومون بتلقين الاهالي التعاليم الاسلامية . ومن اندونيسيا وفدت جماعات الى مكة المكرمة لدراسة الفقة وأصول الدين وعادت الى بلادها حيث اسهمت في نشره .

ودخل الاسلام الى الملايو عن طريق التجار والدعاة الذين وفدوا اليها من موانيء الصين وسومطرة واستقروا فيها . وقد ازداد عدد المسلمين ونشطت اعمالهم التجارية فساعد ذلك على نشر تعاليم الاسلام بين اهالي البلاد .

أفريقيا :

دخل الاسلام الى افريقيا عن طريق مصر والشمال الافريقي (المغرب العربي) وذلك بفضل حركة التجار المسلمين واختلاطهم بأهل البلاد ، والهجرات العربية والبربرية الاسلامية التي استقرت في المناطق الافريقية .

ففي القرن الخامس الهجري اعتنقت افريقيا الغربية الاسلام . وقد وفدت اليها هجرات على مراحل متعددة من قبائل البربر الذين لعبوا دورا كبيرا في نشر الاسلام باختلاطهم ومصاهرتهم للسنغاليين .

وقام المرابطون حكام المغرب بجهود عظيمة خلال القرن الخامس الهجري (الحادي عشر ميلادي) بنشر الاسلام وترسيخ تعاليمه في افريقيا الغربية حيث انشأوا مدينة تمبكتو على مقربة من نهر النيجر وأصبحت مركزا هاما للدراسات الاسلامية خرج منه علماء وفقهاء ومؤرخون . ثم امتد الاسلام الى اواسط افريقيا وانتشر في نيجريا والنيجر وذلك عن طريق الدعاة المسلمين وأقبل الشعب على اعتناقه بايمان .

ومن مصر دخل الاسلام الى السودان حيث استقرت فيها عدة قبائل عربية. وقد اعتنق ملك درافور الاسلام في القرن الثامن الهجري ، ورسخت دعائم الدين الحنيف في بلاده . أما افريقيا الشرقية فقد دخل الاسلام الى الحبشة منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أذن لأصحابه بالهجرة اليها لينجو من اذى قريش

واتسع انتشار دين الله في هذه البلاد خلال القرن السابع الهجري حيث تدفقت اليها جماعات من سواحل الجزيرة العربية ، وقد اعتنق كثير من الاحباش الاسلام عن ايمان واقتناع .

وفي الصومال وسواحل افريقيا الشرقية التي هاجرت اليها بعض القبائل العربية منذ القدم توطد الاسلام عن طريق الهجرات العربية والعلماء المسلمين .

الحضارة الاسلامية وأثرها في نهضة أوروبا

بفضل الرسالة الاسلامية ونظامها الاجتماعي افتتح العرب القسم الاكبر من قارة آسيا وجزر البحر المتوسط والشمال الافريقي والاندلس ، وأسسوا حضارة عظيمة ساهمت مساهمة كبرى في حياة ونهضة كثير من الامم والشعوب .

وعندما فتح العرب اسبانيا في اوائل القرن الثامن الميلادي حملوا اليها ثروة فكرية هائلة وثروة علمية عظيمة كونتها العبقرية الاسلامية ، وبفضل هذه الثروات التي ظلت تتدفق من الشرق الاسلامي عن طريق الاندلس وصقلية منذ القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر الميلادي انتعشت الروح العلمية والفلسفية في اوروبا وأسست نهضة حديثة .

اجل لقد استعانت اوروبا بأنتاج علماء وفلاسفة النهضة الاسلامية ونقلت مصنفاتهم الى اللغات اللاتينية والاسبانية والفرنسية والانكليزية والالمانية والروسية والمجرية . . الخ ، ومن مشاهير هؤلاء العباقرة الاحياء بتراثهم العلمي والفكري والاجتماعي نخص بالذكر :

محمد بن موسى الخوارزمي العالم الرياضي في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) ، من اشهر مؤلفاته التي نقلت الى اللاتينية وانتشرت في معاهد اوروبا : كتاب معرفه الدائرة من الفلك ، وكتاب الجبر والمقابلة .

ثابت بن قرة الذي ادخل بعض الاصلاحات على قواعد الحساب وعلم الجبر

والمثلثات في القرن التاسع الميلادي ، له عدة مؤلفات اهمها : كتاب الاعداد وكتاب استخراج المسائل الهندسية .

جابر بن حيان العالم الكيميائي في القرن الثاني الهجري الذي اكتشف طريقة تركيب حمض الكبريتيك وحمض النتريك ، وله كتاب « الرحمة » فيه بحث طريقة تحويل المعادن وتذويب الذهب والفضة . . الخ .

ابو يعقوب بن اسحق الكندي في القرن الثالث الهجري ، لقب بفيلسوف العرب له عدة مؤلفات في علم الطب والفلك والرياضيات . وكان يتقن اللغة اليونانية ، وترجم بعض مؤلفات علماء اليونان التي نقلت من ثم الى اللاتينية .

أبو نصر الفارابي في النصف الاول من القرن العاشر الميلادي ، لقب بالمعلم الثاني بعد المعلم الاول أرسطو اليوناني . ألف في علم الاجتماع والطب والفلسفة الاسلامية والمنطق .

ابن سيناء في النصف الاول من القرن الحادي عشر الميلادي ، لقب بأمير العلوم له عدة مؤلفات في الطب والفلسفة والطبيعة والرياضيات . ويعتبر كتابه (القانون في الطب مرجعا هاما في جامعات اوروبا .

محمد بن زكريا الرازي النابغة في الطب في القرن العاشر الميلادي . له موسوعة في هذا العلم دعاها (الحاوي) تقع في ثلاثين مجلدا ، طبعت عشرات المرات بشتى اللغات العالمية .

أبو حامد بن محمد الغزالي في القرن الحادي عشر الميلادي ، فيلسوف اسلامي عظيم ، سما بالتصوف الى مرتبة سامية لإدراك الحقيقة ، وقد وضع عدة مؤلفات ترجمت الى اللغات اللاتينية والجرمانية والسلافية منها كتاب المنقذ من الضلال . وكتاب تهافت الفلاسفة .

ومن مشاهير علماء وفلاسفة المغرب العربي والاندلس الذين ساهموا في بناء الحضارة العربية الاسلامية : واستعانت اوروبا بمؤلفاتهم في تقدمها الفكري والعلمي هم :

علي بن حزم ، المؤلف الفيلسوف الناقد في القرن الحادي عشر الميلادي ، ولد في قرطبة بالأندلس . له عشرات الكتب في التاريخ والدين والمنطق والفلسفة والشعر منها : كتاب (الفصل في الملل والاهواء والنحل) ، وكتاب « طوق الحمامة » وفي كتابه الفصل في الملل نقد بعض القصص الواردة في التوراة ولفت الانظار اليها . وقد اتخذت نظرياته حجة في مدرسة النقد العلمي للتوراة التي ظهرت في القرن السادس عشر بأوروبا . ومن كتبه التي فقدت بعد ان ترجمت الى اللاتينية في الطليطلة الواقعة قرب مدريد كتاب (الحقيقة والمنطق) وفيه نقد نقدا علميا ادعاءات اليهود وقصصهم الخرافية ، وقد حمل عام ١٣٣٧ م الكاتب الاسباني ميكائيلي الذي تعمق بالدراسات العربية والاسلامية نسخة باللاتنيينية من كتاب ابن حزم الى البابا بينوا الثاني عشر الذي كان يقيم في مدينة افينيون بفرنسا فأعجب البابا بهذا الكتاب القيم وقال الى ميكائيلي : ان في اقوال ابن حزم الفيلسوف العربي ما يساعد على كشف الغطاء عن وجه اليهودية وانقاذ اوروبا من قصصها الضارة .

أبو عبدالله الادريسي : العالم الجغرافي في القرن السادس الهجري ــ الثاني عشر ميلادي ، من مدينة سبتة بالاندلس ، وضع نموذجا للكرة الارضية من الفضة ورسم عليه جميع البلدان المعروفة في ذلك العصر .

أما الفيلسوف العربي الكبير ابن رشد فقد لقبه علماء أوروبا بفيلسوف العقل ولد في قرطبة عام ١١٢٦ م ، وقد شرح كتب ارسطوا الفيلسوف اليوناني ، ووضع عدة مؤلفات ظلت تدرس في جامعات أوروبا ثلاثة قرون ، ولم يبق منها بالعربية الا القليل ، واهمها : كتاب تهافت التهافت وكتاب تفسير ما بعد الطبيعة . وقال ابن رشد في شرحه فلسفة الوجود والطبيعة على الانسان أن يحكم العقل في اموره الا في عقيدة الايمان بالكائن الاعلى السرمدي .

وهناك ابن خلدون المولود في تونس عام ١٣٣٢ م الذي يعتبر من اعظم فلاسفة التاريخ في العالم . وهو مؤسس علم الاجتماع القائم على نظرياته القائلة يجب الاخذ بحقائق الاقليم والجغرافيا والاخلاق . وقد سبق فلاسفة اليونان في تحديد قوانين التقدم وعلل الانحلال الاجتماعي .

لاشك بأن مشعل الثقافة والمدنية الذي حمله العرب في ضوء الرسالة الاسلامية لخالدة الى اسبانيا قد سهل السبيل لنشوء عصر النهضة في أوروبا . ففي الاندلس ي فتحوها ودام حكمهم فيها حتى اواسط القرن الثالث عشر الميلادي ، وفي برناطة حتى عام ١٤٩٢ وفي صقلية حتى عام ١٠٩١ م أسسوا ، المعاهد للطب لعلوم والتشريع . وكانت تتوافد على المعاهد العربية جماعات الطلاب من انحـاء وروبا آنذاك لتنطلق بلادهم الى عصر الرقي الحضاري .

وبالاضافة الى تلك المعاهد ، والى مصنفات وكتب علماء العرب وفلاسفتهم لتي ترجمت الى اللغات الاوروبية فقد تسربت الكلمات العربية من أسماء علوم لرياضيات والفلك والكيمياء والجغرافيا الى اللغات الاسبانية والفرنسية والالمانيـة والايطالية والروسية والسلافية .

اجل لقد استطاعت أوروبا أن تنهض بعد ان غمرها العرب بهذه الثروة الفكرية والعلمية ، بالاضافة الى صناعة الورق والفن المعماري والمنسوجات وغيرها من الفنون الاسلامية .

وعلى ذكر اسهام الحضارة العربية الاسلامية في نهضة أوروبا قال العلامـة «برتلمي كاسيس» الاسباني ، المولود في اشبيلية عام ١٤٧٤ في رسالته (العدالة) : اتحف العرب أوروبا بقانون التشريع الاجتماعي الانساني لينطلق الضمير مع روح العدالة الى السمو .

وقال الفيلسوف الفرنسي الاجتماعي « غوستاف لوبون » في مقدمة كتـاب (مناهل الحضارة) الذي وضعه صديقه الكاتب الالماني غونزر عام ١٩١١ : على الغرب الذي استعان بحضارة الشرق أن يظل صديقا وفيا للشرق ليستمر اللقاء معه في ضوء مشعل حضارته الاجتماعية والانسانية .

وقال الأديب الالماني الكبير « غوتيه » في رسالته إلى استاذه الفيلسوف « هردر » عام ١٧٨٤ : من الشرق انطلقت أنوار الحضارة فنقلت البشر من جحيم الظلام والعبودية إلى فردوس المعرفة والحرية بأسمى معانيهما .

العالم الاسلامي في العصر الحاضر

يشكل المسلمون في العصر الحاضر كتلة بشرية هائلة يبلغ تعدادها ٦٢٠ مليون نسمة يقطن معظمها قارة آسيا وافريقيا . ويشغل العالم الاسلامي مساحات شاسعة مترامية الأطراف تمتد من المحط الهادي شرقاً الى المحيط الأطلسي غرباً .

وهذا العالم الاسلامي الكبير يشكل قوة بشرية ، وقوة اقتصادية وقوة سياسية لها وزنها في الثقل الدولي . هذا بالاضافة الى خصائصه الجغرافية ومواقعه الاستراتيجية الهامة ، مع العلم انه من أغنى بقاع العالم من حيث سعة المساحات الزراعية والثروة البترولية .

ويتألف العالم الاسلامي حالياً من مجموعة دول عربية وأسيوية وافريقية ، منها ١٤ دولة في قارة آسيا ، و ١٩ دولة في قارة افريقيا معظم سكانها من المسلمين

وحسب الاحصاءات التي اعتمدنا في جمعها على أوثق المصادر يقدر عدد المسلمين ونسبتهم في كل بلد من بلدان العالم كما هو مبين في الجدول التالي :

المسلمون في آسيا :

يقدر عدد المسلمين في آسيا نحو ٤٦٣ مليون نسمة موزعة كما يلي :

البلد	عدد السكان (ملايين)	نسبة المسلمين
جمهورية الباكستان	١٠٧	٩١ بالمئة
جمهورية أندونيسيا	١٠٢	٨٥ »
جمهورية تركيا	٣٣	٩٦ »
مملكة ايران	٢٣	٩٧ »
مملكة افغانستان	١٥	٩٩ »
المملكة العربية السعودية	٨	١٠٠ »

البلد	عدد السكان (ملايين)	نسبة المسلمين
جمهورية العراق	٧ ١/٢	٩٥ بالمئة
الجمهورية العربية السورية	٥ ١/٢	٨٨ »
اليمن	٥	٨٠ – ١٠٠ »
كشمير	٤ ١/٢	٨٥ »
المملكة الأردنية الهاشمية	٢	٩٢ »
جمهورية لبنان	٢ ١/٤	٥٠ »
ماليزيا	٦	٥٨ »
الجنوب العربي	١ ١/٢	١٠٠ »
مسقط وعمان	١	١٠٠ »
الكويت (٤٥٠ ألف)		٩٥ »
امارات الخليج (٦٠٠ ألف)		٩٧ »
فلسطين (الفلسطينيون)	١ ١/٢	٩٠ »

في الاتحاد السوفياتي :

البلد	عدد المسلمين
تركستان	٣٤ مليون مسلم
أوزبكستان	
تركمانستان	
قيرغيزيا	
اذربايجان	
داغستان	
كاوستان	
في الصين	٥٤ » »
في الهند	٥٨ » »
في الأقطار الأخرى الآسيوية	٢٥ » »

المسلمون في افريقيا :

يقدر عددهم ١٤٧ مليون نسمة موزعة كما يلي :

البلد	عدد السكان (ملايين)	نسبة المسلمين	
نيجيريا	٤٦	٧٣	بالمئة
مصر (الجمهورية العربية المتحدة)	٣٠	٩٠	»
جمهورية السودان	١٣ ½	٨٤	»
المملكة المغربية	١٣	٩٥	»
الجمهورية الجزائرية	١٢	٩٣	»
الجمهورية التونسية	٤ ½	٩٥	»
الجمهورية الليبية	١ ½	٩٠	»
جمهورية موريتانيا	١	٩٩	»
جمهورية السنغال	٣ ½	٨٠	»
جمهورية مالي	٤ ½	٩٠	»
جمهورية غينيا	٣ ½	٨٥	»
جمهورية تشاد	٣ ¼	٨٣	
جمهورية النيجر	٣	٨٠	»
جمهورية الصومال	٢ ½	٩٥	»
جمهورية افريقيا الوسطى	١ ½	٥٢	»
اثيوبيا	٢٤	٥١	»
جمهورية تنزانيا	١٠	٥٠	بالمئة
جمهورية الكمرون	٥	٦٠	»
جمهورية توغو	١ ½	٥٣	»

البلد	عدد السكان (ملايين)	نسبة المسلمين
جمهورية فولتا العليا	٤ ١/٢	٤٩ بالمئة
جمهورية داهومي	٢ ١/٢	٥٣ »
سيراليون	٢ ١/٢	٥٠ »
جمهورية ساحل العاج	٣ ١/٢	٤٨ »
البلدان الافريقية الأخرى :	٩٢	١٥ »

لمسلمون في أوروبا :

هناك دولة ألبانيا تعتبر اسلامية لأن معظم سكانها من المسلمين . ويقدر عددهم مليون ونصف المليون أي بنسبة ٨١ بالمئة من مجموع السكان .

وفي جزيرة القرم يوجد مليون ونيف من المسلمين ، وفي يوغسلافيا مليون في المنطقة الجنوبية . وهناك أيضاً مجموعات من الجاليات الاسلامية منتشرة في أوروبا الغربية معظمها من أبناء المغرب العربي وايران .

المسلمون في أميركا :

وفي قارة أميركا توجد مجموعات كبيرة من الجاليات الاسلامية موزعة في مختلف أقطارها وبالأخص في المدن الكبرى . والبعض من هذه الجاليات من أصل عربي معظمها يقيم في أميركا اللاتينية (الجنوبية) وبعض مدن أميركا الشماليـــة .
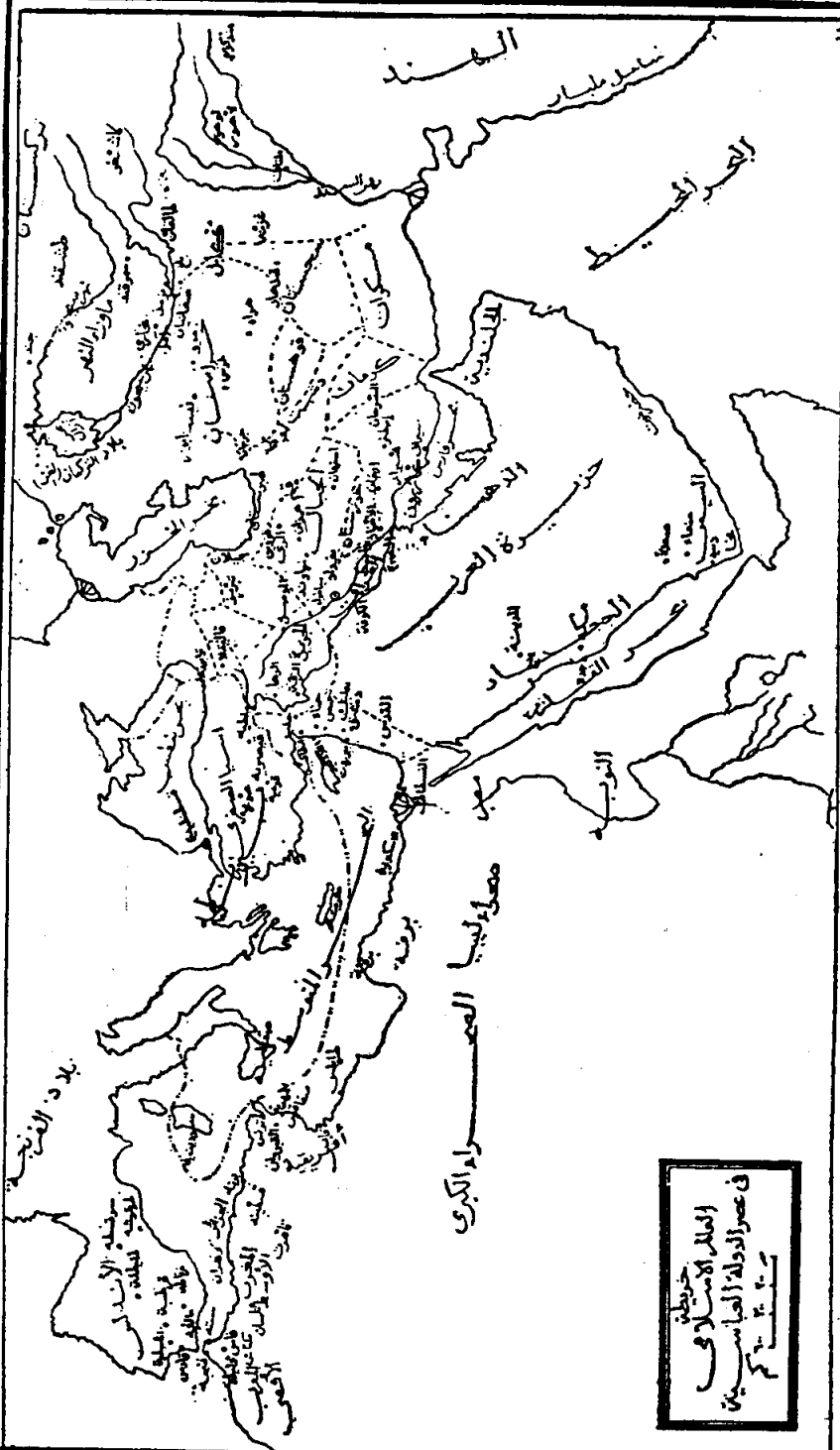
المراجع

تاريخ الأمم والملوك . . . . الطبري
الكامل في التاريخ . . . . ابن الأثير
البداية والنهاية في التاريخ . . . . عماد الدين بن كثير القرشي
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان . . . . . . ابن خلكان
مالك الأبصار في ممالك الأمصار . . . . ابن فضل الله العمري
معجم البلدان ومعجم الأدباء . . . . ياقوت الحموي
مروج الذهب ومعادن الجوهر . . . . المسعودي
لسان العرب . . . . ابن منظور
الآداب السلطانية . . . . محمد ابن الطقطقي
مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . . . . . ابن واصل
خطط الشام ، فلاسفة الاسلام . . . . . . محمد كرد علي
زعماء الاصلاح الاسلامي . . . . أحمد أمين
جزيرة العرب . . . . حافظ وهبه
تاريخ العرب والاسلام . . . . عبد اللطيف الطيباوي
دائرة المعارف الاسلامية (٤ مجلدات) . . . وضعها كبار المستشرقين
دائرة المعارف . . . . بطرس البستاني وسليم البستا
تاريخ العالم (مجلدان) . . . . (لاروس) باشراف البرفسو
. . . . دونان
الاسلام وعدالته . . . . أنيل راندس
تاريخ الوهابية منذ نشأتها . . . . كورانتريز
تاريخ الحضارة الاسلامية . . . . أندريه بروديل
تاريخ الشرق الاسلامي . . . . أحمد علي خان